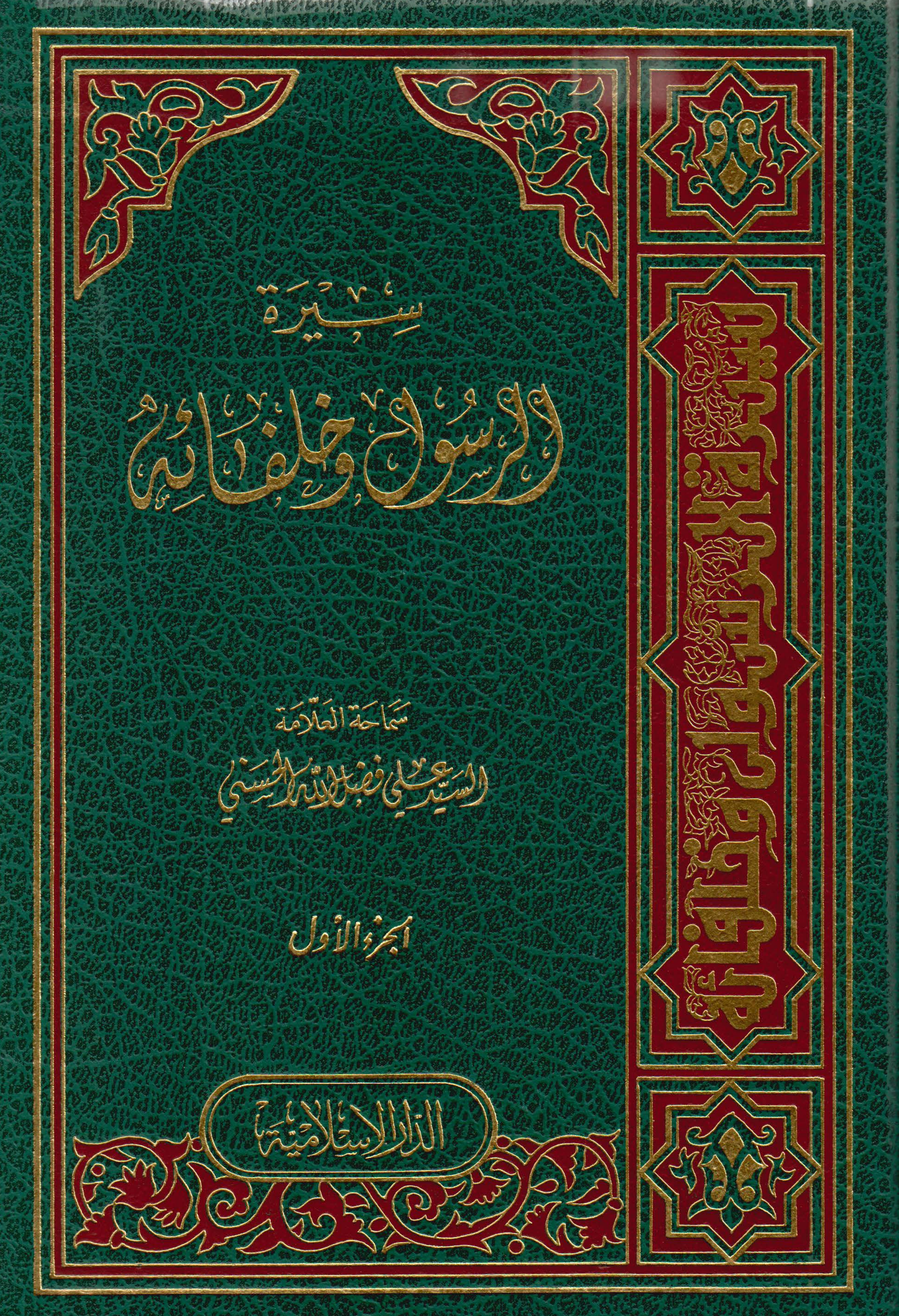

سيرة
الرسول وخلفائه
سماحة العلامة
السيد علي فضل الله الحسني
الجزء الأول
الدار الإسلامية

سيرة

الرسول وخلفائه

١

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م





كورنيش المزرعة ـ بناية الحسن سنتر الطابق الثاني
هاتف: 816627. ص ب: 14/5680
المكاتب والمستودعات ـ حارة حريك شارع دكاش
هاتف: 820704 ـ 835670. ص ب: 25/209

سيرة

الرسول وخلفائه

سماحة العلّامة

السيّد علي فضل الله الحسني

الجزء الأوّل

الدار الإسلامية



صورة المؤلـــــف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر
للطبعة الثانية

مع يقظة الفكر العربي والإسلامي، وفي الوقت الذي أصبحت فيه البلاد العربية والإسلامية هدفاً لكل طامع تتقاذفها أمواج الفتن وتهب أعاصير الفوضى فى أرجائها لزرع التفرقة بين أبنائها... وفي الوقت الذي بلغت فيه الغايات والأهواء ذروتها ولعبت المطامع دورها في نفوس الضالين، في هذا الوقت لم يبق إلا أهل العلم والفكر المنفذ الوحيد والنبراس الذي يضيء أمام الناس طريقهم إلى حيث النجاة من كيد الكائدين وضغن الحاقدين.

في هذا الظرف بالذات الذي نحن فيه بأمس الحاجة إلى جمع الكلمة ولم الشتات أطل علينا رجال مصلحون من أهل العلم والفكر والأدب مشمرين مجاهدين بأفكارهم وأقلامهم همهم إبراز الحقيقة وكشف غشاوة الجهل عن عيون المضللين ومحاربة الجاهلية التي أخذت تتفشى من جديد بعاداتها وتقاليدها يغذيها أعداء الإنسانية والإسلام.

ولولا الجهد الذي بذله أهل العلم من المخلصين وأصحاب الفكر والرأي الأمناء في محاربة الجهل بجميع فروعه، لما اهتدى أحد إلى سلوك درب السعادة نحو الدين والدنيا، وانتهاج الصراط المستقيم.

وفي غضون الصحوة الإسلامية المباركة، أتحفنا سماحة العلامة

قاضي شرع المحكمة الإسلامية العليا في بيروت، السيد علي فضل الله الحسني بموسوعته القيمة ـ سيرة الرسول وخلفائه ـ هذه الموسوعة التي تحتوي على مواضيع علمية وأدبية وتاريخية، المستقاة من المنبع الصافي عن الرسول الأعظم (ص) والأئمة الأطهار والصحابة الأبرار.

وليس بالكثير على كاتبنا الجليل السيد علي فضل الله الذي هو فرع من الشجرة العلمية المعروفة في جبل عامل ـ لبنان الجنوبي، بعائلة آل فضل الله، تلك العائلة المشهورة بتراثها العلمي والفكري والأدبي والتاريخي التي هي دائماً في الطليعة بعلمائها البارزين، وأدبائها اللامعين من العصور السابقة حتى عصرنا الحاضر.

الدار الإسلامية

بقلم سماحة العلامة

السيد عبد الكريم فضل الله

تقديـــم

بسم الله الرحمٰن الرحيم وبه نستعين

وصلّى الله على سيدنا ونبينا محمد وآله الطاهرين وصحبه الميامين.

نقـرأ التاريـخ لنعيش الحاضر ونستشرف المستقبـل ، فليس الأمر مجـرد متعة ، وإن كان لا يخلو منهـا ، لكنها لازمـة له وليست غـاية ، نحن بحـاجة لدراسة التاريخ لا لمجرد قراءته ، بل لنستنبط منه قواعد التطور والتغير ، نحو الأفضل أو الأسوأ ، قواعد الإنعـطافات التـاريخية للمجتمـع ، ذلك الكـائن العظيم ، الذي له أحكامه الخاصة ، كما عبّر عن ذلك القرآن الكريم : ﴿ لا يغـيِّر الله ما بقـومٍ حتى يغيِّروا مـا بأنفسهم ﴾ ، فكـما للفرد أحكـامه كـذلك « للقوم » ، للمجتمع .

والأمـة التي لا تاريـخ لها لا حضـارة لها ، بـل لا وجود ؛ من تـاريخهـا تستمـد استمراريتهـا ، وكيانها ، وعنفـوانها ، ومشـاربهـا ، بـل تستمـد منـه رموزها ، بل حتى أحلامها وكوابيسها المستقبلية .

لقـد وعت البشريـة هـذه الحقيقـة منـذ نشـوء المجتمعـات ، وأدركت خطورتها وحاولت الإستفادة منها ، فوجَّهها بعضهم لخدمة الإنسان واستغلها

بعضهم لمآرب دنيئة ، وآخرون لغايات شخصية .

فعبر الأجيال وعلى مرّ العصور ، وفي أنحاء المعمورة كتبت تواريخ وسير ، بأقلام بعض الناس ، يدَّعون أنهم يكتبون تاريخاً لقوم خاصة ، أو تاريخاً للبشرية عامة ، ووصل إلى أسماعنا التطبيل لهم والتزمير ، فانخدعنا بذلك وسمّيناهم « مؤرخين » .

ونظرة سريعة لهذه التواريخ نجد أنّها تواريخ أشخاص ، هم الحكام والسلاطين والأقوياء ، حروبهم وتحالفاتهم ، وحياتهم السياسية وإنجازاتهم وما إلى ذلك ، حتى ليخيَّل للقارىء أنه لا يوجد غيرهم في هذه الدنيا ، فهم محورها ومركزها وقلبها النابض ، وأنه لولاهم لكان وجود الكون تافهاً ، بل لولاهم لما كان للكون وجود .

ونجد هؤلاء المتسلطين في هذه الكتب التاريخية يسبغون على أنفسهم أثواباً من الكمال والفضيلة ، فينقل المؤرخون عنهم حكايات في التسامح والصبر والإنسانية والعلم والفكر وما إلى ذلك من صفات الكمال .

وكأنَّ هؤلاء السلاطين لم يكفهم الظلم في حياتهم ، بل كانوا ظالمين حتّى بعد مماتهم ، فيزوِّرون التاريخ ليقدموا أنفسهم وكأنهم رمز الكمال ، فيكون للناس رموز مشوَّهة تحاول لبس أثواب الفضيلة لتغطي نفوساً كريهة أنتنها اللؤم والخبث والنفاق ، وبهذا يكونون ظالمين في مماتهم أكثر منهم في حياتهم ، لِأنَّ الناس تتأثر في نفسيّتها ومسلكيتها برموزها العليا ، فيتأثّر الناس بهؤلاء ، إلا ثلّة قليلة من أهل الفكر الثاقب والعقل النيِّر تستطيع أن تنفذ إلى أعماق هذه الشخصيات لتشمّ الرائحة الكريهة المنبعثة من خلال أثواب الفضيلة المزيّفة التي يتقمَّصها هؤلاء ، والتي ألبسهم إياها المؤرخون طمعاً في دنياهم ، أو خوفاً من سيوفهم ، وأحياناً يلعب الهوى الشخصي دوراً كبيراً في توجيه قلم الكاتب .

وأما الشعوب ، وأما الناس ، فلا تكاد تجد في مساحة كتب التاريخ لها

شيئاً يذكر ، فهي منسية مهملة ، وكأن تاريخ الإنسان هو تاريخ أولئك السلاطين .

إننا نقرأ عن كثير من الأكاسرة والقياصرة والكثير من ملوك المسلمين أيضاً حياتهم وسياستهم وحكمهم ، وأما الناس فهل كانوا يعيشون في راحة أم في ضنك ، في حرمان أم في سعة ، في فقر أم في غنىً ، في سعادة أم في تعاسة ، في حرية أم في كبت ، في حركة وأمل أم في جمود ويأس . . . الخ .

إننا لا نكاد نقرأ في تاريخ الفراعنة في مصر عن الناس شيئاً رغم قراءتنا للسلالات الحاكمة وأبنائها وحكّامها وحروبها وتوسع الدولة ونفوذها .

كذلك نقرأ لنابليون وغيره حروبهم ودولتهم ، وأما الناس ، وأما تاريخ الإنسان ، فماذا نقرأ عنه ؟!

هذا شأن التاريخ !

وأما المصلحون فهم الأكثر مظلومية :

إنهم يشتركون مع الشعوب في الإهمال ، ويزيدون عليها :

أنَّ المتسلّطين يحاولون طمس الحقائق ، وإخفات صوت المصلحين بتشويه سمعتهم وإلحاق الصور الرذيلة بهم كي لا يتأثر الناس بهم ، ولا يكون لقولهم صدى ، وتبوء محاولات إصلاحهم بالفشل ، بل يحرضون الناس عليهم .

فها هم الأنبياء والمصلحون جميعاً قد أوذوا ، وها هو سيد البشر محمد (ص) يرميه قومه بالجنون وبالسحر ، ويصفه الأعداء من المعاصرين ، خصوصاً من الغربيين ، أنَّه رجل نساء شبق للشهوة والجنس ، ورجل حرب ظمآن للدم .

وهذا هو علي بن أبي طالب (ع) يُسبّ على المنابر أربعين عاماً حتى أنَّ بعض المدن أرسل ثلة من أهلها إلى عمر بن عبد العزيز لما رفع السبّ عن

علي : أمهلنا ستة أشهر فلقد اعتادت ألسنتنا على سبّ أبي تراب .

وأرسل معاوية بن أبي سفيان إلى عمّاله في الولايات : أن برئت الذمّة من كل من قال كلمة مدح في حق علي بن أبي طالب .

ويوصف الحسن بن علي (ع) بأنه مزواج مطلاق ، أي لا شأن له بأمور الدين والدولة .

وها هي نساء الحسين (ع) سبايا تقاد إلى الشام ، يقولون عنها أنها سبايا الخوارج وقد نصر الله أمير المؤمنين يزيد . . . إلى غير ذلك من ظلم السلاطين .

والأنكى من ذلك أن يأتي بعض المؤرخين ليدافع عن يزيد ، فيقول ابن خلدون : إنه كان على يزيد أن يقتل الحسين كي يحافظ على ملك بني أمية ، لِأنَّ الدولة الإسلامية مبنية على العصبية ، والعصبية آنذاك كانت لبني أمية ! ! !

ولا أظن أن هذا الكلام يحتاج إلى جواب ، فهل بعث الله الإسلام رحمةً للعالمين ليبني دولةً ومجتمعاً تملؤه العدالة والإنسانية ، أم بعث الله الإسلام ليبني دولةً مبنية على العصبية العشائرية ؟! فيجب طاعتها ولو كانت ظالمة ؟!

والغريب أن يبلغ التعصب بعالم كبير إلى هذا الحد من الإنحراف الفكري .

لكن الواقع يفرض نفسه ، ويمتد اللطف الإلهي إلى هذه الحياة ليفك الحصار عن المصلحين ، كي يكونوا هم الرمز والقدوة للناس . **﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة ﴾**[1] **﴿ فلله الحجّة البالغة ﴾**[2] ، فها هو محمد بن

---

(١) سورة النساء : آية ـ ١٦٤ .

(٢) سورة الأنعام : آية ـ ١٤٨ .

عبد الله (ص) يخترق اسمه الحصار ، وينتشر صيته في الدنيا ، ليملأ أرجاء المعمورة ، وليكتب عنه أهل الأرض ، كل الأرض ، بل لم نجد في تاريخ البشرية رجلاً كتب عنه كما كتب عن محمد (صلّى الله عليه وآله) .

لم يكتبوا عن حكمه ودولته وسياسته فحسب ، بل كتبوا عن أحواله الشخصية في معاملته مع الناس بمختلف طبقاتهم ، مروراً بصفاته وأخلاقه وسلوكه ، بل كتبوا أكثر الأشياء خصوصية كأكله وشربه ونومه ، وجعلته بعض مراكز البحوث غير الإسلامية الأول في رجال التاريخ ، حتى بات الرمز الأكبر للإنسانية تطبيقاً لقوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾[1] .

وهذا علي بن أبي طالب (ع) يخترق اسمه كل أنواع الحصار التي فرضت عليه ، لقد مُنع ذكر اسمه بأي خير وأي فضيلة ، لكن عظمته وفضله فرضا واقعاً غير الذي أراده أعداؤه ، وإذا بصيته يملأ الآفاق ، حتى قال بعضهم : عجبت لرجل كتم أعداؤه فضله كرهاً له ، وكتم أصحابه فضله خوفاً عليه ، ومع ذلك ملأ ما بين الخافقين . .

وغيرهم . . وغيرهم من المصلحين . . .

أراد الله أن يخرقوا الحصار الذي فرض عليهم ، ليكونوا هم الرمز وهم المثال دون أولئك المتسلطين المتجبرين . ﴿ **ليهلك من هلك عن بيّنة ويحي مَن حيَ عن بيّنة** ﴾[2] .

وهكذا أرادهم الله القدوة ، وخاب ظن المفسدين ﴿ **يريدون أن يُطفِئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون** ﴾[3] .

إنما عظمة الله في خلقه ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾[4] .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ـ ٢١ .

(٢) سورة الأنفال : آية ـ ٤٢ .

(٣) سورة التوبة : آية ـ ٣٢ .

(٤) سورة آل عمران : آية ـ ٥٤ .

وما كان الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها الطبيعية ، فسالت الأقلام عن محمد وخلفائه صلوات الله عليهم أجمعين ، وتبيّن للأجيال ما حاول أهل البغي طمسه ، ومن هذه الأقلام التي سُلَّت ، قلم المؤلف السيد الوالد العلّامة المؤرخ ، السيد علي فضل الله يكتب تاريخ النبي محمد وخلفائه ويحلل ، وقد لحظت في الكتاب ميزات هامة :

الأولى : ربط كثير من الأحداث التي حدثت في الإسلام بأحداث أخرى في الجاهلية ، ولذا اقتضى الأمر تقديم موجز عن تاريخ مكة والمدينة وغيرهما من الحواضر العربية قبل الإسلام وعن تاريخ العرب قبل الإسلام .

الثانية : التحليل الموضوعي الذي ينطلق من واقع العرب والمسلمين الإجتماعي وملاحظة صراع القوى ونقاط ضعفها وقوتها .

الثالثة : تحتوي الأجزاء الثلاثة الأخيرة في تعليقاتها على سيرة العشرات من أصحاب النبي (ص) وعلي (ع) وأصحاب معاوية مما اقتضى جهداً كبيراً في البحث والتنقيب . وهذه التعليقات جهد جليل وعمل قائم بنفسه .

الرابعة : إعتماد المؤلف على مصادر متعددة يختلف كاتبوها ديناً أو مذهباً أو مشرباً أو قومية أو هوى وهذا هو شأن الكاتب الموضوعي .

كما أنوّه بالأخوة في الدار الإسلامية على تصديهم لطباعة هذا الكتاب كما تصدوا لطباعة غيره من الكتب النافعة . أسأل الله تعالى للسيد الوالد ولهم الثواب والأجر الجزيل .

بيروت غرة ذي الحجة ١٤١٣ هجرية
على مهاجرها واله أفضل الصلاة والسلام

مُقَـدّمـة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين والصلاة والسلام على اشرف الخلق اجمعين سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين واصحابه المنتجبين ورحمة الله وبركاته .

نبيُ هذه الأمة ، محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، سيد البشرية وقمة الكمال الانساني ، تربع على عرش الفضيلة ، فكان افضل مخلوق في الوجود استحق ان يكون المصطفى لرسالة رب العالمين . والله يعلم حيث يجعل رسالته .

تجمعت فيه الفضائل فعظمت مسؤوليته ، وكلما عظم المسؤول والمسؤولية عظم البلاء والأذى . فعانى من المصاعب والمتاعب في سبيل اخراج البشرية من الظلمات إلى النور ما لا يُحد بحد وما لا يوصف بوصف حتى ورد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « ما اوذي نبي مثل ما اوذيت » .

والإسلام تلك الرسالة الخالدة التي نسخت الرسالات السابقة لتكون الدين الذي يجب اعتناقه إلى يوم يبعثون قد وعد الله بحفظه حيث قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وإذا اراد الله امراً هيأ اسبابه ، ومن الطبيعي أن يختار الباري عز

وجل لهذه الغاية ثلة طيبة طاهرة تضمن استمراريتها ، ومن اجلها وحفظا عليها نادى الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) امته على رؤوس الاشهاد فقال : « اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابداً ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض » .

وقال : « مثل اهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلَّف عنها غرق وهوى » .

وغيرهما من النداءات ، وجهها نبي هذه الامة إليها بامر ربه ، ليحفظها رحمة بها ، ودعوة اطلقـها منذ فجر الإسلام ليعطيها مقومات البقاء واكسير الحياة .

. . . أن تمسكوا بثلة نقية طاهرة ، خزان العلم ومنتهـى الحلم وأصول الكرم وقادة الامم .

هم سلالة النبيين وصفوة المرسلين وعترة خيرة رب العالمين .

وهم تراث الامة وحياتها وسر بقائها .

« بقاء الامة ببقاء تراثها » قانون طبيعي اتبعته جميع الامم في تخليد عظمائها وابطالها ومصلحيها وصانعي تراثها .

باذلة الغالي والنفيس من اجلهم ، معتبرة اياهم تلك الشعلة الخالدة التي تستنير بضوئها وتتبع خطاها ، فلا تضيع في متاهات التاريخ المخيفة .

وبخلاف هذا الخط الواضح لبقاء الامم ، تخلت الامة الإسلامية

عن تخليد عظمائها ومصلحيها إلا النزر القليل ، وضاعت صرخة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في غوغاء الانانيين وضوضاء السلاطين ، وانتاب الامة الإسلامية من بعده التمزق والتفكك ، واضحت عزتها وكرامتها اثراً بعد عين ، ثم فقدت حريتها واستقلالها ووصلت إلى ما هي عليه الآن من الذل والهوان .

لقد انصرف معظم المؤرخين والكتاب والمؤلفين عن ذكر العترة الطاهرة وحثِّ الامة على التمسك بها وتذكير الناس بصرخات النبي الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن الكريم : ﴿ **قل لا أسألكم عليه اجراً إلا المودة في القربى** ﴾ ، وباتوا يطبلون ويزمرون في ذكر حفنة من المتسلطين ومن استؤجروا من المتفيقهين ، هم اقزام امام اهل البيت ، عماليق البشرية .

وامتلأت الكتب والمكتبات واطنب الوعاظ والخطباء في ذكر الامويين والعباسيين وامثالهم ومن قبلهم ومن بعدهم ومن استأجرهم هؤلاء ، بل وفي النيل احيانا من اهل البيت (عليهم السلام) ، فلقد سُبَّ علي (عليه السلام) اربعين عاماً على المنابر ، وعدَّ بعضهم الحسين (عليه السلام) خارجاً على يزيد بن معاوية . . . .

وما كان هذا الانصراف طبيعياً وغير مقصود ، بل كان نتيجة لجهود مكثفة قام بها طواغيت الامة ، حتى صار السذج من الناس يرون أن سلاطين الجور والظلم من بني أُمية وبني العباس هم حقاً أئمة الخلق وخلفاء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

لقد كان هؤلاء السلاطين يرون أن الخطر الحقيقي يكمن في المكانة

العظيمة ، والمقام السامي ، والمحبة الشديدة ، والاحترام الكبير ، الذي يُكنّه السواد الاعظم من المسلمين للعترة الطاهرة من اهل البيت ، ويعتقدون أن لا بقاء لهم مع بقائها ، حتى كان معاوية بن ابي سفيان يقول : «كيف يبقى لبني امية ملك ومحمد يذكر خمس مرات في اليوم» .

ولمحو فضائل أهل البيت (عليهم السلام) الذين هم «حلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من بعده على أُمته» قام اعداؤهم بعدة خطوات لتحقيق مآربهم وتركيز سلطانهم .

أولاً - تضييق الخناق على الأئمة (عليهم السلام) ، ومحاولة عزلهم عن سائر الناس .

ثانياً - التنكيل باصحابهم قتلاً وتشريداً ونهباً ، حتى كان رأس عمرو بن الحمق الخزاعي أول رأس حمل في الإسلام الى معاوية .

ثالثاً - منع الحديث في مناقبهم والكتابة عنهم (عليهم السلام) .

وهذه الخطوات الثلاث تؤدي الى جهالة الناس بهم وعدم معرفتهم وانعدام ذكرهم . حتى روي ان السبايا بعد معركة الطف في كربلاء لما دخلوا الشام ، اعترض شيخ ، الإمام زين العابدين (عليه السلام) ، لاعناً له ، لحربهم للأمير يزيد ، وكان يزيد قد صوَّر لأهل الشام ان السبايا من الخوارج ، فقال له الإمام (عليه السلام) : أَوَلم تقرأ القرآن يا شيخ ؟ قال بلى ، قال (عليه السلام) : أو قرأت قوله تعالى : ﴿ **قل لا أسألكم عليه اجراً إلا المودة في القربى** ﴾ قال : نعم ، قال (عليه السلام) : نحن القربى الذين امر بمودتهم . فبكى الشيخ واعتذر .

رابعاً ـ من جهة اخرى ارسل سلاطين الجور اهل الغايات المستأجرين لمدحهم وذكر مناقبهم لكل مكان، واكثر الخطباء في المساجد من ذلك .وانطلق القصاصون والوعاظ في القرى والارياف ليستميلوا الناس لصرفهم من الوجهة التي وجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين إليها . وكثرت القصائد التي تجعل الحكام والملوك خلفاء الله في الأرض ، بحجة انه لو لم يكونوا كذلك لما مكنهم الله من الملك .

خامساً ـ استمالة بعض من عاصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ممن سُمُّوا بالصحابة لوضع الاحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) التي تخدم مآربهم ، وقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « سيكثر من بعدي الوضّاعون » .

سادساً ـ منع بعض الفقهاء من الفتوى الصحيحة واجبارهم على الفتوى التي توافق مصالحهم الشخصية والتي يرونها مناسبة ، حتى افتى بعضهم بأن اطاعة السلطان واجبة ولو كان جائراً .

سابعاً ـ ابتداع بعض المذاهب العقائدية وتغذيتها لتفريق المسلمين ، ومناهضة اهل بيت الرسول فكرياً .

هذا من جهة الحكام والسلاطين ، وأما من جهة المؤرخين والكتاب الذين يشترط فيهم امور ثلاثة رئيسية :

أولاً : بذل اقصى الجهد الممكن في البحث عن الوثائق والمستندات اللازمة لدراسة الموضوع ، واتعاب النفس في اعطاء الصورة التاريخية الواضحة الصحيحة .

ثانياً : الامانة في النقل .

ثالثاً : انكار الذات وهوى النفس ، فيكتب ما هو الواقع ومن دون

تحيز لاحد الطرفين أو الاطراف .

فالمؤرخون والكتاب الاسلاميون كانوا على اقسام ثلاثة :

أولاً : المستأجرون من قبل الحكام وقد سبق الكلام عنهم .

ثانياً : من لم يكن هواه لأهل البيت (عليهم السلام) فاتبع هواه وخان الامانة وحرَّف التاريخ ، مختاراً ما يؤيد وجهة نظره ، طارحاً ما سواه مؤوّلاً ما كان صريحاً في موالاة اهل البيت .

ثالثاً : وهو النزر اليسير ، من كان حر الضمير ، فكتب عنهم ما امكنه ذلك باشارة أو كناية ، خوفاً من السلطة الحاكمة .

وبعد حقبة غير يسيرة من الزمن وبرحيل حكام الجور والطغيان بدأ الحق بالانكشاف ، وبدأ نجم الأئمة (عليهم السلام) يعلو على كل نجم ، لأن الواقع يفرض نفسه ، ولا يمكن لأحد أن يغير الواقع مهما عظم طاغوته ، وكثر الباحثون والمؤلفون في تدوين السيرة الطاهرة .

وهكذا . . . ورغم استبداد الحكام واهل الظلم والطغيان ، بقي آل بيت الرسول (عليهم السلام) عند المسلمين معدن الايمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه، واركان الإسلام وبناته ، رياً لعطاشى العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، وموئلا للصلحاء ، وحبلا من الله جلَّ وعلا ، وثيقةٌ عروتُه ، هم العز لمن تولاهم والهدى لمن ائتم بهم ، واعلام لا يعمى عنها السائرون ، وهم الشفعاء لمن تشفع بهم ، وبمحبتهم والسير على طبق تعاليمهم النجاة من النار وغضب الجبار .

ولكن ، ويا للأسف الشديد ، لا يزال الكثير من رواسب الماضي

القاتم ، ماثلا في نفوس الكثيرين ، مالئا لأروقة الفكر من مكتبات وغيرها ، محتاجاً إلى جهد جهيد لهدمه وردمه .

فقررت وأنا اشرف على العقد السابع من عمري أن أشارك اخواني الباحثين خدمة لأمتي الضائعة ، بالكتابة عن النبي الأعظم (صلى الله عليه آله وسلم) والعترة الطاهرة (عليهم السلام) المعصومين الاربعة عشر وهم : النبي الاعظم ، وعلي ، وفاطمة الزهراء ، والحسن ، والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين (عليه السلام) متحملاً الصعوبات في ذلك ، خصوصاً من جهة الحصول على الوثائق اللازمة، التي كتبت في عصرهم (عليهم السلام) او ما بعد عصرهم بفترة وجيزة ، وهو عصر الاصحاب القريبين من عهدهم . فهؤلاء عندهم المنهل الوافر .

ولكن مما يدمي القلب ندرة هذه المصادر الى حد كبير للاسباب التي ذكرناها سابقاً من ملاحقة الحكام للكتاب المنصفين .

وهذا ما جعل مهمة الباحث صعبة ، ورغم ذلك تحملت المهمة الشاقة ، غير مدَّع الاحاطة بجميع مناقبهم وسيرتهم ، ومن يستطيع ادعاء ذلك ؟!

وإني بكتابتي هذه غير متحيز للعاطفة ، بل لما هو الواقع وما كان عليه اهل البيت (عليهم السلام) من الاخلاص لله والعمل بطاعته ، يواجهون بايمان قوي كل ضلال وعمى ، وطغيان وهوى ، واضطهاد وبغي ، وتهديد وتشريد ، وتنكيل وتقتيل ، كل ذلك في سبيل نصرة الحق وأداء مهمتهم .

ولا بد لفهم سيرتهم من بيان العهد الذي سبقهم وبيان ما كانت

عليه بيئة شبه جزيرة العرب وعلى الاخص ، مكة والمدينة ، لما في ذلك من بيان العلاقة بين المجتمعين الجاهلي ـ والإسلامي الذي عقبه ، وما ورثه المجتمع الإسلامي من سلفه ، من روابط واحقاد وقبليات ، مما يساعدنا على تفسير بعض ما عاناه الأئمة (عليهم السلام) وما لاقوه ، وتفسير بعض الاحداث التي عاصروها .

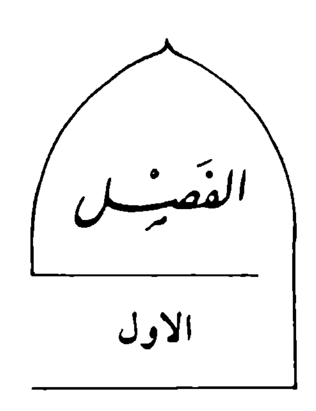
وفي هذه الدراسات لن يكون للامور العقائدية مسرح إلا في ما سأضطر إليه في بعض المواضع . وسيكون بحثاً تاريخياً ادبياً اجتماعياً ، ممّهداً له بذكر المقصود من اهل البيت (عليهم السلام) ثم بذكر البيئة التي سبقتهم ، مختصراً في ذلك لكونه مقدمة لموضوعنا وهو سيرتهم (عليهم السلام) : محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم فاطمة الزهراء ثم علي وأولاده وآخرهم محمد بن الحسن (سلام الله عليهم جميعاً) .

واني اتقدم بهذا الجهد القليل متقرباً الى الله سبحانه وتعالى والى الرسول الكريم وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام) ، ان يكونوا شفعائي في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من اتى الله بقلب سليم .

وليس عندي ما اقدمه بين يدي ربي يوم الحساب الأكبر غير ايماني بالله عز وجل وولائي للرسول الأعظم وآله السادة الاطهار ولسان حالي يقول :

آل بيت الرسول مالي سواكم من شفيع ارجوه يوم المعاد
فـذنـوبي كثيـرة اثقلت ظهـ ـري وخوف الحساب اضنى فؤادي
لم اهيىء للحشر زادا ولكن من ولاكم جعلت ذخري وزادي

علي فضل الله الحسني



الفَصِل
الاول

العرب قبل الاسلام

قبل الاسهاب في الكتابة والبحث والتدقيق في موضوع العرب قبل الإسلام ، لا بد لنا ان نستعرض ولو لمحة خاطفة بعض احوال العرب والبلاد العربية ومواطنهم والامكنة التي كانوا يسكنونها .

ولا بد لنا من الغوص في عمق التاريخ وخصوصاً تلك الازمنة البعيدة التي لم يستطع المؤرخون تدوينها كما يجب ، لولا ذكرها في القرآن الكريم الذي حمل الباحثين على التتبع واستقصاء احوال الامم الغابرة من خلال آياته الكريمة . امثال ـ عاد وثمود ـ وغيرهما تلك الامم ذات الحضارة العريقة التي سادت ثم بادت ولم يبق منها اثر سوى العبر .

شبه جزيرة العرب

شبه جزيرة العرب هي اكبر شبه جزيرة في العالم ، تحيط بها المياه من اطرافها الثلاثة ، ومع ذلك لم تستطع رطوبة الجو البحري ان تخفف من حدة الحرارة فيها ، وتتغلب على جفافها لأن الابخرة المتصاعدة من البحر لا تتمكن ان تصل الى اواسط شبه الجزيرة العربية .

واما حدودها . فكما يلي :

اولاً : يحدها من الشرق الخليج العربي ، المعروف عند اليونان

باسم (الخليج الفارسي) وما زال يعرف بهذه التسمية المأخوذة عن اليونانية في المؤلفات المعاصرة .

ثانياً : ـ يحدها من الغرب (البحر الاحمر) كما يسمى في الجغرافيا الحديثة ، وأما في العربية واللاتينية فانه يعرف بـ (بحر القلزم) .

ثالثاً : ـ يحدها من الجنوب المحيط الهندي ، وقد اطلق اليونان على القسم المتصل منه بسواحل جزيرة العرب الجنوبية اسم البحر (الاريتيري) وبلاد أريتيريا .

رابعاً : ـ وحدها الشمالي خط وهمي يمتد في اصطلاح علماء العرب من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي.

يقول الدكتور جواد علي : واما من الناحية التاريخية فان هذا الخط الوهمي المتصور هو وهم وخطأ . فقد سكن العرب في شمال هذا الخط قبل الميلاد بمئات السنين ، سكنوا في العراق من ضفة نهر الفرات الغربية ، وامتدوا في البادية حتى بلغوا اطراف الشام . وسكنوا في فلسطين وطور سيناء ، حتى بلغوا ضفاف النيل الشرقية ، وهي ارضون ادخلها الكتبة القدامى من يونان ، ولاتين ، وعبرانيين ، وسريان في جملة مساكن العرب ودعوها بـ (العربية) و بـ (بلاد العرب) لأن اغلب سكانها كانوا من العرب ، حتى ذهب بعض علماء (التوراة) الى أن (بلاد العرب) في التوراة هي مواطن (الاسماعيليين) و (القطوريين) أي الوادي التي نزلت بها القبائل المنتسبة الى (اسماعيل) و (قطورة) . وهي قبائل بدوية ، كانت على اتصال بالعبرانيين . وهي بواد تقع شمال جزيرة العرب[1] .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي.

من هم العرب ؟

العرب هم ابناء عم العناصر السامية الاخرى ، من عبرانيين ، واشوريين ، وكلدانيين ، وفينيقيين وغيرهم يلتقون معهم في جدهم الأكبر سام بن نوح (عليه السلام) واليه يرجع نسب الجميع .

ويمكن تعريفهم بالمنطقة التي سكنوها ، فهم جيل من الناس سكن منطقة شرقي البحر الأحمر .

غير أن هذا الجيل لم يكن جميعه اصيلا في عروبته ، بل كان بعضه دخيلاً على العرب ، رحل الى بلادهم واكتسب صفاتهم وصار منهم . وعلى هذا يمكن تقسيم العرب الى قسمين :

العرب العاربة . وهم الاصيلون في عروبتهم . جاء في تاج العروس للزبيدي : « العرب العاربة هم الخلص منهم واخذ من لفظه ، فاكدَّ به . كقولك ليل لايل . . . تقول عرب عاربة وعرباء وعربة « الاخيرة كفرحة » أي صرحاء جمع صريح وهو الخالص . . .

قال ابو الخطاب بن دحية المعروف بذي النسبين العرب اقسام :

الأول : عاربة وعرباء وهم الخلص ، وهم تسع قبائل من ولد ارم بن سام بن نوح وهي : عاد ـ وثمود ـ واميم ـ وعبيل ـ وطسم ـ وجديس ـ وعمليق ـ وجرهم ـ ووبار ومنهم تعلم (اسماعيل عليه السلام) العربية » على ما يروى .

العرب المستعربة : وهم الدخلاء وليسوا بخلّص[1] وهم ولد اسماعيل (عليه السلام) من معد بن عدنان بن أدد .

واذا كان هذا تعريف العرب المستعربة فانه يمكن ادخال كل من هاجر الى بلاد العرب واكتسب عاداتهم وتقاليدهم وتزيا بزيهم وتكلم بلغتهم .

واما العرب العاربة فقسمان : بائدة وغيرها .

اما البائدة : فهي الطبقة الأولى من العرب وقد هلكت وانقرضت وهي هود ـ ولقمان ـ وثمود ـ وطسم ـ وجديس ـ واميم ـ وعبيل ـ وجرهم الأولى ـ والعمالقة ـ وحضوراً[2] .

واما غير البائدة فهي الطبقة الثانية التي أتت بعد هلاك الطبقة الأولى وهم : ابناء قحطان . ولعل هذه التسمية هي السبب في اشتهار تقسيم العرب الى قحطانيين ـ وعدنانيين . وقد أسسوا ممالك واسعة منها : حمير ـ وسبأ ـ ولخم ـ وغسان . وغيرها .

---

(١) بخلص ـ أي أنهم ليسوا في الاصل من العرب وهم دخلاء على العرب الاقحاح .

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي.

اقسام العرب ـ قبل الإسلام

من المشهور ان العرب كانوا ثلاثة اقسام :

اولاً : ـ العرب البائدة : وهم من ذكرهم القرآن الكريم ، والاخبار الدينية ، والكتب التاريخية ، امثال عاد ـ وثمود وغيرهم.

ثانياً : ـ العرب العاربة وهم اولاد يعرب بن قحطان ، ويدعون بالقحطانية ، وكانوا على حضارة ومدنية عريقة .

ثالثاً : ـ العرب المستعربة وهم سكان شمال الجزيرة ، اجداد الجيل العربي الذي بعث فيه النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

اما العرب البائدة : فهم امثال عاد ـ وثمود ـ وطسم . وجديس وغيرهم كما اسلفنا .

عاد . . . قوم نبي الله هود (عليه السلام)

قال تعالى : ﴿ **والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره افلا تتقون ـ قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين ـ قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ـ ابلغكم رسالات ربي وانا لكم ناصح أمين ـ او عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ**

جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ـ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ـ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين ـ فانجيناه والذين معه رحمة منّا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[1] .

ذكر النجار في قصصه : « كان قوم هود اصحاب اوثان يعبدونها . ضاهوا في عبادتها قوم نوح حين عبدوا وداً ـ وسواعاً ـ ويغوث ويعوق ـ ونسرا . وفي اثرٍ مروي عن ابن عباس أنهم اتخذوا صنماً يقال له (صمود) وصنماً أخراً يقال له (الهتار) فبعث الله اليهم هودا ، وكان هود من قبيلة يقال لها الخلود ، وكان من أوسطهم نسباً واصبحهم وجهاً ، وكان في مثل اجسادهم ابيض بادي العنفقة ، طويل اللحية ، فدعاهم الى عبادة الله وامرهم أن يوحدوه وان يكفوا عن ظلم الناس فابوا ذلك وكذبوه وقالوا : (من اشدّ منا قوة)[2] .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر اخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألّا تعبدوا إلا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ـ قالوا اجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ـ قال انما العلم عند الله وابلغكم ما ارسلت به ولكني اراكم**

---

(١) سورة الأعراف آية ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ .
(٢) قصص الانبياء لعبد الوهاب النجار.

قوماً تجهلون ـ فلما رأوه عارضاً مستقبل اوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم ـ تدمر كل شيء بأمر ربها فاصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾(١).

ذكر الطبرسي في تفسيره قال : (قالوا كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله اليهم سحابة سوداء ، خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا : **﴿ هذا عارض ممطرنا ﴾** أي سحاب ممطر إيانا فقال هود (عليه السلام) : **﴿ بـل هو ما استعجلتم به ﴾** اي ليس هو كما توهمتم بل هو ما وعدتكم به وطلبتم تعجيله(٢).

قصة نبي الله هود . . . مع قومه

عاد . . . قبيلة نبي الله هود (عليه السلام) وكانت مساكنهم في ارض الاحقاف وهي التي تقع في شمال حضرموت ، وفي شمالها الربع الخالي وفي شرقها عُمان ، وموضع بلادهم اليوم ليس بها انيس بعد ذلك العمران الهائل والحضارة العظيمة والقوة والبأس الشديد فلم تغن عنهم قوتهم . فاهلكهم الله سبحانه بكفرهم **﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾** .

وقصة عاد مشهورة ذكرها اهل الادب ، واللغة ، واصحاب التواريخ ، والسير ، وعلماء التفسير للقرآن الكريم وقد ذكرناها آنفاً .

---

(١) سورة الاحقاف آية ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ .
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ـ للطبرسي.

واما ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ـ هي باليمن بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شداد بن عاد ورووا أن شداد بن عاد كان جباراً ، ولما سمع بالجنة وما اعد الله فيها لأوليائه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار وغير ذلك من اوصاف الجنة المقدسة ونعيمها الدائم .

بغى شداد وتجبرً وقال : اني متخذ في الأرض مدينة على صفة الجنة ووكل جميع امرائه أن يأمروا الصناع والمهرة من المهندسين والبنائين ليقوموا ببناء جنة في الأرض تضاهي الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين .

وقد انفق شداد بن عاد على بناء مدينته (ارم ذات العماد) من الاموال والمعادن ، والجواهر النفيسة ما يعجز عنه وصف الواصفين ، فجاءت غاية في الاتقان تبهر بروعتها وجمالها اعين الناظرين ، ولكن الله سبحانه وتعالى ارسل هوداً (عليه السلام) ، وكان من صميم قومه واشرافهم فقام بتبليغ رسالة ربه ، ودعا قومه الى التوبة : ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره افلا تتقون** ﴾ ودعاهم أيضاً الى الرحمة وعدم التجبر والرجوع الى اتباع اوامر الله ونواهيه والاقرار بربوبيته تعالى .

لكن شداد لم يستجب الى ما دعاه اليه هود (عليه السلام) ولم يرتدع عما كان عليه بل مضى في طغيانه وتوجه لدخول مدينته (ارم) التي بناها فاحسن بنيانها فكان مع حاشيته ، وجنده ، وركبه بابهى زينة .

ولما قرب من المدينة ارسل الله سبحانه وتعالى عليهم صيحة من السماء وهو العذاب الذي انذره به هود (عليه السلام) ولم تغن عنهم قوتهم وتجبرهم ﴿ **فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين** ﴾[1] . وصب عليهم الباري سبحانه سوط عذاب فاهلكهم جميعاً بكفرهم ولم يدخلها منهم احد .

ذكر ياقوت في معجمه انه عثر في حضرموت على حفيرة شداد ، وهي بيت في الجبل منقور مائة ذراع في اربعين ذراع ، وفي صدره سريران عظيمان من ذهب على احدهما رجل عظيم الجسم وعند رأسه لوح مكتوب فيه :

اعتبر ايها المغرور بالعمر المديد
انا شداد بن عاد صاحب الحصن المشيد
واخو القوة والبأساء والملك الحشيد
دان اهل الأرض طراً لي من خوف وعيد
فاتى هود وكنا في ضلال قبل هود
فدعانا لو أجبناه الى الامر الرشيد
فعصيناه ونادى ما لكم هل من محيد
فاتتنا صيحة تهوي من الافق البعيد

وقد اختلف المفسرون في معنى ارم ذات العماد ، وقبيلة عاد، وفسروها بعدة تفاسير وروايات كثيرة ـ وقيل ارم ذات العماد هي في مدينة دمشق وهو الهيكل المعروف بجيرون وقيل غير ذلك والله العالم .

---

(١) سورة المؤمنون ـ آية ـ ٤١ ـ.

ثمود ... قوم نبي الله صالح (عليه السلام)

لا بد لنا ونحن نكتب عن منازل العرب القدامى قبل الإسلام ومواطنهم ، من ذكر ثمود قوم نبي الله صالح ، الذين عتوا عن أمر ربهم واخذهم الغرور والتجبر ، وقد نصحهم نبيهم صالح وحذرهم من العذاب الاليم ، فلم يلتفتوا الى نصائحه وطلبوا منه معجزة يأتي بها ليصدقوه .

ولكن ماذا كان سؤالهم وطلبهم منه ؟

لقد سألوه ان يخرج لهم ناقة من صخرة عينوها ... فخرجت الناقة لهم من الصخرة بامر الله تعالى ...

ثم قال لهم صالح لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم . فلم يلتفتوا الى مقالته بل مضوا في عتوهم وطغيانهم ... فعقروها ... ثم قالوا : يا صالح إئتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ...

ونزل العذاب عليهم فاخذتهم الرجفة واصبحوا في دارهم جاثمين . قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ كذبت ثمود المرسلين ـ اذا قال لهم اخوهم صالح الا تتقون ـ اني لكم رسول امين ـ فاتقوا الله واطيعون ـ وما اسألكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين ـ اتتركون في ما ها هنا آمنين ـ في جنات وعيون ـ وزروع ونخل طلعها هضيم ـ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ـ فاتقوا الله واطيعون ـ ولا تطيعوا أمر المسرفين ـ الذين

يفسدون في الأرض ولا يصلحون ـ قالوا انما انت من المسحَّرين ـ ما انت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين ـ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ـ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ـ فعقروها فاصبحوا نادمين ـ فاخذهم العذاب ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين ﴾[1] ـ .

قال ياقوت في معجمه : « والحجر ـ اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام ، قال الاصطخري : الحجر ـ قرية صغيرة قليلة السكان وهو من واد القرى على يوم بين جبال ، وبها كانت منازل ثمود قال تعالى : ﴿ **وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين** ﴾ ، وفي تلك البقعة بئر ثمود التي قال الله فيها وفي الناقة : (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم)[2] .

طسم ـ وجديس

واما منازل طسم وجديس فهي حجر اليمامة ، وفي بعض المرويات انها نزلت بها بنو حنيفة بن لجيم بعد طسم وجديس .

---

(١) سورة الشعراء ـ آية ـ ١٤١ ـ ١٤٢ ـ ١٤٣ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ ١٤٩ ـ ١٥٠ ـ ١٥١ ـ ١٥٢ ـ ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ ١٥٨ ـ وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ثمود في عدة سور ايضاً منها سورة الاعراف . وسورة هود ـ وسورة الحجر ـ وسورة النمل ـ وسورة فصلت ـ وسورة النجم ـ وسورة القمر ـ وسورة الحاقة ـ وسورة الشمس .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ـ مجلد ـ ٢ .

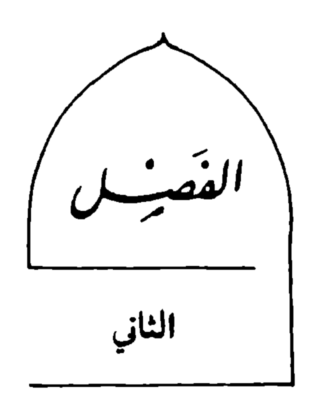
وتقول بعض المرويات ايضاً أنه خرج عبيد بن ثعلبة من بني حنيفة منتجعاً باهله وماله وغلمانه يتتبع مواقع القطر . فنزل موضعاً يقال له (قارات الحُبل) وهو من حجر على يوم وليلة ، فخرج راعي عبيد حتى اتى قاع حجر فرأى القصور والنخل وارضاً عرف ان لها شأناً وهي التي كانت ديار طسم وجديس .

رجع الراعي حتى اتى عبيد فقال : والله اني رأيت آطاماً طوالاً واشجاراً حساناً هذا حمله ، واتى بالتمر معه مما وجده منتثراً تحت النخل . فتناوله منه عبيد وأكل وقال : هذا والله طعام طيب .

ثم ركب عبيد فرسه واردف الغلام خلفه واخذ رمحه حتى اتى حجراً ، فلما رآها لم يحل عنها ، فوضع رمحه في الأرض ثم دفع الفرس ، واحتجر ثلاثين قصراً وثلاثين حديقة وسماها (حجراً) ، وكانت تسمى (اليمامة) . وقال في ذلك شعراً :

حللنا بدار كان فيها انيسها فبادوا وخلوا ذات شيد حصونها
فصاروا قطيناً للفلاة بغـربة رميماً وصرنا في الديار قطينها
فسوف يليها بعدنا من يحلها ويسكن ارضا سهلها وحزونها

وعلى هذا تكون (الحجر) منازل ثمود . واما (حجر اليمامة) فهي منازل طسم وجديس . تلك القبائل العربية ذات الحضارة العريقة في التاريخ السحيق والتي لو لم يأت القرآن على ذكرها لم يعرف الناس عنها شيئاً .



الفَصل الثاني

العرب العاربة

اما الطبقة الثانية من طبقات العرب بعد البائدة ، فهي (العرب العاربة) على اقوال النسابين ، وهم من ابناء قحطان واسلاف القحطانيين المنافسين للعرب العدنانيين .

وعن تاريخ العرب قبل الإسلام « أولد قحطان بن هود اربعة وعشرين رجلا ، وهم يعرب ، والسلف الكبرى ، ويشجب ، وأزال ، وهو الذي بنى صنعاء . ويمن وبه سميت اليمن »[1] .

ونسب البعض الى يعرب بن قحطان نشوء العربية ، وأنه أول من اعرب في لسانه . فنسبت هذه اللغة الى اسمه فسميت العربية .

وولد ليعرب يشجب ، وولد ليشجب سبأ ، وقيل أنه أول من سبى السبي .

وعن المسعودي : « ان لسبأ عشرة اولاد ، تشاءم منهم اربعة ، وتيامن منهم ستة . فالذين تشاءموا : لخم ـ وجذام ـ وعاملة ـ وغسان . والذين تيامنوا ـ حمير ـ والازد ـ ومذحج ـ وكنانة ـ والاشعريون ـ وانمار الذين هم بجيلة ، وخثعم » .

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي.

وقد انتشر القحطانيون في شبه الجزيرة العربية ، خصوصاً في الشمال والجنوب حيث أثاروا الأرض وعمروها ، ورفعوا السدود ، ونظموا الري ، وانشأوا المزارع ، وشيدوا المدن ، وبنوا القصور ، واسسوا ممالك وحضارات لا تزال آثارها تدل على رقي وتمدن وعلم وفن خصوصاً في الجنوب .

ذكر بعض ممالك العرب قبل الاسلام

الدولة المعينية

الدولة المعينية من اقدم الدول التي بلغنا خبرها ، ولا تزال آثارها كثيرة في جوف اليمن . وهي بلاد ذات مياه وخصب ، وكانت نهاية هذه الدول قبل الميلاد بفترة اختلف العلماء في تحديدها .

ومن آلهتها التي كانت تعبدها (وَدّ) الذى ظلت عبادته معروفة الى ظهور الإسلام حيث ذكره القرآن الكريم في سورة نوح .

مملكة حضرموت

من الدول الجنوبية المعاصرة لحكومة معين . مملكة حضرموت كانت ذات روابط تجارية مع جوارها من فارس ، وتدمر ، وقريش ، ومع الهند .

مملكة سبأ

هي من الدول الكبيرة التي سكنت جنوب الجزيرة ومارس اهلها الزراعة والتجارة وبنوا السدود البعيدة وبرعوا في فن الري والاستفادة من الامطار ، وجر المياه في القنوات وايصالها الى المدن والامكنة النائية .

واشادوا المدن منها مدينة مأرب والسدود ومنها سد مأرب الذي ورد ذكره في القرآن . وقد ورد ذكر سبأ في القرآن وجعل لها شأناً عظيماً على لسان الهدهد في قوله تعالى : ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين - اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم** ﴾[1] . ثم على لسان وجوه مملكة سبأ حين وصلتهم رسالة سليمان (عليه السلام) : « قالت يا أيها الملأ إني ألقي الي كتاب كريم - إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم - ألّا تعلوا علي واتوني مسلمين - قالت يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون - قالوا نحن اولوا قوة واولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين »[2] . وهذا دليل على مدنية وازدهار عظيمين ، وقوة وبأس شديدين شمل اليمن ابان حكم سبأ .

ومن ذكر القرآن حكاية الملكة ذكر المفسرون أن اسمها (بلقيس) . من هذا يمكن ان نفهم أن مملكة سبأ كانت على رأس الالف الأول قبل الميلاد ، لمعاصرتها لحكم النبي سليمان الحكيم (عليه السلام) . كما ورد في الكتابات والنصوص الأشورية هدايا تسلمها سرجون الثاني - وسنحاريب من ملوك سبأ . مما يدل على علاقات تجارية واسعة وسياسية للمملكة بالعالم الخارجي . زيادة على سد مأرب الذي هو اعجوبة الفن بهندسته وضخامة بنائه على ما ذكره المؤرخون .

---

(١) سورة النمل . آية - ٢٢ - ٢٣ .
(٢) سورة النمل - آية - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - .

مملكة حمير

لا بد لنا ونحن في صدد الكتابة في سيرة اهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من المرور ولو قليلاً استطراداً لبعض احوال العرب في الجزيرة العربية ، وذلك من باب التمهيد او المقدمة للكتاب المذكور . ليتضح للقاريء مدى تأثير الإسلام ودور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واهل بيته الكرام (عليه السلام) على الأمة العربية بل على العالم اجمع .

وان من جملة من كانوا في الجزيرة العربية ونالوا حظاً وافراً من الحضارة والمدنية (حمير) الذين اسسوا مملكة حمير التي هي من اعظم الممالك التي نشأت في الجنوب وكان لها شأن ذكره مؤرخو العالم . حكمها التبابعة متخذين مدينة ظفار عاصمة لهم حيث بنوا قصر ريدان الذي ضاهى بعظمته قصر غمدان عند السبئيين وعن المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام .

ان بعض الباحثين ذكر أن السنة المقابلة لسنة ١١٥ ـ أو ١٠٩ قبل الميلاد ، وهي السنة الأولى من سني التقويم العربي الجنوبي ، هي سنة نشوء مملكة حمير وظهورها الى الوجود بصورة فعلية . ولهذا صار الحميريون يؤرخون بها لما لها من اهمية في الناحية السياسية عندهم وقد زعم اهل الاخبار أن للتبابعة ملكاً عظيماً حيث جعلوهم يسيطرون على فارس ـ والهند ـ والصين ـ والحبشة ـ وارمينية ـ ومصر .

ونتيجة لغزوات الحميريين لحضرموت بنى هؤلاء سوراً منيعاً ليس

له الا باب واحد يحرسه حراس اشداء . مما يدل على صراع عنيف كان يقوم بين الممالك العربية الجنوبية .

وفي هذه الفترة استعملت الخيل بشكل واسع مما ادى الى تفاقم عمليات الغزو خصوصاً لدى الاعراب الذين يغيرون على الحضر ينهبون اموالها . وكنوزها واصبح يحسب لهم الحساب في الحروب وفي التعديلات السياسية .

وذكر اهل الاخبار أن بعض ملوك حمير (تنصروا) . وان بعضهم (تهودوا) ويذكرون منهم « ذا نواس » الذي تسمى بيوسف وكان شديداً على النصارى ، وهو آخر ملوك حمير ، وكانت نهايته عام ـ ٥٢٥م ـ حين احتل الاحباش اليمن .

وحمير كانت ذات حضارة ومدنية سنت القوانين في مختلف المجالات وبرعت في النقش ، والرسم ، والزخرفة . ولهم لغة خاصة من لغات العرب . من ابرز خصائصها : ابدال لام التعريف ميماً . وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : انه قال على لغة حمير : ليس من امبر امصيام في امسفر . واشمام الضم في المبني للمجهول المعتل الوسط مثل : بيع ـ وقيل .

مملكة النبط

النبط قوم من العرب سكنوا شرقي الاردن . واسسوا مملكة قوية ، واصبحوا من اغنى العرب نتيجة لكون بلادهم واقعة على شريان التجارة العالمية آنذاك . ففرضوا المكوس والضرائب ، وقاموا بانفسهم بالوساطة

التجارية بين الحجاز والشام ، ومصر وفارس . فدَّرت عليهم ارباحاً طائلة .

كذلك سيطروا على الحركة التجارية في البحر الاحمر الى قيام دولة البطالسة في مصر .

والنبط قوم يحبون الحرية ويقدسونها ، لا يخضعون لأي حاكم اجنبي ، ويرجع الفضل في ذلك الى طبيعة بلادهم الصحراوية وبداوة معيشتهم وحياتهم ، فقد حاولت الدول المجاورة من الكلدان ـ والاشوريين والفرس ـ والروم وملوك المقدونيين من اليونان اخضاعهم بارسال جيوش قوية مجهزة . فكان الانباط يفرون الى الصحراء التي تعودوا عليها بخلاف غيرهم ، ثم يعودون الى مهاجمة الجيوش المهاجمة فيكون لهم الفوز وقوة الارادة والاستقلال .

لقد اشتغلوا بالزراعة والصناعة ، وبتعدين المعادن واستخدامها في اغراضهم الحياتية ، والرعي ، والتجارة خصوصاً منتوجات البخور ـ والعطور ـ والطيب .

وكان لهم اسطول يجوب البحر الاحمر . عاصمتهم القديمة (البتراء) ومن مدنهم الحجر .

مملكة تدمر

التدمريون قوم من الاعراب سكنوا شمال شبه الجزيرة على الطرف الشمالي من بادية الشام . كانت تدمر مدينة صغيرة خاضعة للنفوذ الروماني ثم صارت في زمن حكم أذينة قوة يحسب لها حساب . حيث

نظمها أذينة ، وجعل لها قوة حربية ضاربة . هزم الفرس ، واستولى على حمص وشمال سورية . وبهزيمته للفرس تغيرت نظرة الرومان تجاه التدمريين . ـ فهم ليسوا الآن مجرد حراس للجهة الشرقية من الامبراطورية الرومانية يدفعون عنها غارات مملكة ـ البرث ـ الفارسية . وغارات الاعراب المجاورين ـ بل هم اهل مدنية وحضارة ـ وقوة ـ وبأس .

وعلى هذا الاساس اعطى الرومان (اذينة) لقب رئيس الشرق . ويقول بعض المؤرخين بانه (أي اذينة) اعطي لقب قيصر ، فصار للامبراطورية قيصران .

كان لأذينة اصلاحات ادارية مهمة ، فقد نظم شؤون التجارة ، والجباية ، وضبط امن الدولة ، واعطى النصارى حريتهم في اقامة شعائرهم وبناء الكنائس .

وخلف اذينة في الحكم ابنه (وهب اللات) وكان قاصراً . فتولت الوصاية عليه امه (الزباء) ويسميها الغربيون (زنوبيا) وفي عهدها بلغت تدمر أوج عظمتها وحضارتها وكذلك دمارها ونهايتها

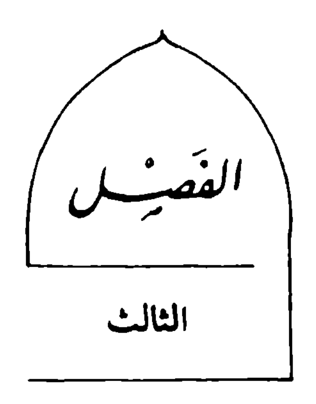
لقد احتلت زنوبيا سوريا ، ومصر ، واتجهت نحو القسطنطينية . وبدأت تفكر في احتلال روما نفسها . وغدت تبدو القوة الثالثة في العالم . حيث كانت مستقلة تماماً فارضةهيبتها على كل المنطقة . جامعة حولها كل القوى التي كانت تريد التحرر من نير الحكم الروماني .

ولكن الدهر انقلب على تدمر . وزحف الرومان بقيادة قيصرهم على مصر ، فانطاكية ، فحمص . ثم قضوا على تدمر بعد ان ابرزت

ملكتها (الزباء) براعة وشجاعة في ادارة الجيوش والمعارك ، واخذت اسيرة الى روما . هذا على رواية المؤرخ (زوسيموس) .

واما اهل الروايات التاريخية : فيقولون في رواية طويلة ملئت بالامثال ـ والحكايات ما مضمونه : ان الزباء قتلت جذيمة الابرش والي الحيرة ، وانتقم منها قصير بدهائه حيث قتلها عمر بن عدي خليفة جذيمة في قصرها .

وكانت نهاية الزباء ومملكة تدمر في سنة ٢٧٣ للميلاد . بعد ان تركت اسمها في التاريخ كملكة للشرق ولدولة ذات عمران وبناء شامخ ، ومدنية وحضارة .


الفَصل
الثالث

حياة العرب الاجتماعية قبل الاسلام

العرب مع الفرس ـ والروم

كان الحكم قبل الاسلام في غالبيته في يد كل من الفرس والروم وهما الدولتان العظيمتان قد فرضتا سيطرتهما على اغلب المعمور من الأرض وكانت كل دولة يحيط بها دول كثيرة تابعة لها تسير على منوالها وتقلدها في افعالها وتتزلف لها في أقوالها رغبة بالحظوة عندها وعلو الشأن لديها . وكانت الدول الصغيرة آلة صماء لأن الدول الكبرى هي التي تسن القوانين وتخطط للحروب وتفعل ما يروق لها آمرة ناهية بعكس الدويلات فليس لها سوى بعض القضايا الداخلية بحسب مصلحتها وقوة النفوذ فيما بينها .

كان الفرس ـ او الروم هم الذين يعينون الامراء او الملوك على البلدان المستعمرة لهم حسب مصالحهم وليس للشعوب الضعيفة اي حل أو ربط بل عليها تنفيذ اوامر المسيطر صاغرة بدون اعتراض .

وكان الفرس ـ او الروم ايضاً : يسعون جاهدين لتمزيق البلاد الصغيرة وتفريق شعوبها الى دويلات (فرق تسد) وذلك لتسهيل فرض السيطرة عليها ، شأن الدول الكبرى في عصرنا الحاضر .

وعلى هذا الاساس نشأت الدول الصغرى وظهرت ملوك الطوائف

في البلاد (والاحزاب بين العباد) وخاصة في البلاد العربية .

فالبلاد العربية بعد سيطرة الفرس والروم عليها لم يبق لها أي شأن يذكر ، وكانت كل ناحية او مقاطعة يحكمها ملك او امير كما ذكرنا حتى تدنت حالهم فكان لكل قبيلة ملك يضع التاج على رأسه وليس من همه إلا السيطرة على افراد عشيرته غير مبال بمصلحة احد .

اسماء مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

هذا هو الواقع ولا نتعداه فالعرب كانوا قبل الاسلام غارقين في دياجي الفوضى والغوغاء ، يتنافسون على تقاليدهم الموروثة كالفروسية والشعر في مدح وهجاء وتفاخر في الانساب والكرم والسخاء وحفظ الجوار الى غير ذلك من بعض الصفات .

وعلى هذا ظهرت الفروسية فيما بينهم وتغنت الشعراء فيها امثال عنترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، وجساس ، وكليب وغيرهم وكثيراً ما كان ينشأ بين القبائل حروب ومشاحنات تهرق الدماء ، وتستباح الاعراض والاموال لتقاليد تافهة كما في حرب داحس والغبراء ، لأجل فرسين في رهان خاص ، وحرب البسوس التي استمرت اربعون سنة حيث كلت السيوف وازهقت الارواح .

إن شجاعة الاعراب كانت تجر عليهم الويلات في اكثر الاحيان . وربما يهبون لنجدة من يستنجد بهم ـ أو يستصرخهم من دون روية أو تحقيق بل لأجل العصبية والنخوة الجاهلية كما قيل :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

ملوك الحيرة

الحيرة : وتسمى الحيرة البيضاء وذلك لحسن عمارتها ، واما وجه تسميتها (بالحيرة) ففيه اقوال . ففي بعض الاخبار أن تبع الاكبر لما جاء من اليمن ، قاصداً أرض خراسان ترك ضعف جنده بموضع الحيرة وقال لهم : حيِّروا به (اي اقيموا به) وقيل انها سميت الحيرة لأن تبعا لما اقبل بجيوشه موضع الحيرة ضل دليله . وتحير فسميت الحيرة .

وفي معجم البلدان : « ان الله عز وجل اوحى الى يوحنا من ولد يهوذا بن يعقوب ان ائتِ بخت نصَّر فمره ان يغزو العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم ولا ابواب ، وان يطأ بلادهم بالجنود فيقتل مقاتليهم ويستبيح أموالهم واعلمهم كفرهم بي واتخاذهم آلهة دوني وتكذيبهم انبيائي ورسلي ، فاقبل يوحنا من نجران حتى قدم على بخت نصر وهو ببابل فاخبره بما اوحي اليه وذلك في زمن معد بن عدنان ، قال : فوثب بخت نصر على من كان في بلاده من تجار العرب فجمع من ظفر به منهم وبنى لهم حيراً على النجف وحصنه ثم جعلهم فيه ، ووكل بهم حرساً وحفظة ثم نادى في الناس بالغزو ، فتأهبوا لذلك وانتشر الخبر فيمن يليهم من العرب ، فخرجت اليه طوائف منهم مسالمين مستأمنين ، فاستشار بخت نصر فيهم يوحنا فقال : خروجهم اليك من بلدهم قبل نهوضهم اليك رجوع منهم عما كانوا عليه ، فاقبل منهم واحسن اليهم . وخلىً عن اهل الحيرة فابتنوا في موضعه وسموها الحيرة » .[1] .

---

(١) معجم البلدان ياقوت الحموي.

وقد سكن الحيرة الحميريون ، والتنوخيون ، واللخميون وأول من اتخذ الحيرة عاصمة لملكه عمرو بن عدي بن نصر اللخمي وهو اول ملوك هذا البيت من آل نصر .

وعمرت الحيرة وصارت مركز الثقل في بلاد العرب ففيها القصور والانهار والاشجار وازدهرت واصبحت قبلة الانظار لحضارتها وعمرانها وازدهارها . ويدل على هذا قول الشريف الرضي حينما اجتاز بالحيرة ووقف على اطلالها يرثي آل المنذر بن ماء السماء بقوله :

اين بانوك ايها الحيرة البيضا ء والموطؤن منك الديارا
والأُلى شققوا ثراك من العشـ ـب واجروا خلالك الانهارا
المهيبون بالضيوف اذا هبت شمالاً والموقدون النارا
كلما باخ ضؤها أقضموها بالقبيبات منديلاً وغارا
ربطوا حولك الجياد وشقوا لك من مفرق العوالي عذارا
وحموا ارضك الحوافر حتى لقبوا أرضها خدود العذارى
لم يدع منك حادث الدهر إلا عبراً للعيون واستعبارا
وبقايا من دارسات طلول خبرتنا عن اهلها الاخبارا
عبقات الثرى كأن عليها لطميين ينفضون العطارا
وقباب كانما رفعوا منهـ ـا لمسترشد الظلام منارا
عقدوا بينها وبين نجوم الافـ ـق من سالف الليالي جوارا
ابن عقبانك الخواطف خلفـ ـن وابقين عندك الاوكارا
ورجال مثل الاسود مشـ ـوا فيك تداعوا قوائما وشفارا
حبذا اهلك المحلون اهلا يوم بانوا وحبذا الدار دارا
لم يكونوا إلا كركب تأنى برهة في مناخه ثم سارا

هذه القصيدة من الشريف الرضي (رحمه الله) توضح لنا ما كان عليه ملوك الحيرة من السؤدد والمجد نسبياً بين العرب حتى كانوا من اعز الناس وكان اكاسرة الفرس يحترمونهم ويقدرونهم اجمالاً ولا يتدخلون بشؤونهم الداخلية (الاستقلال الذاتي) .

ومن ملوك الحيرة النعمان بن المنذر الذي بنى قصر الخورنق الشهير[1] وكان ذا سطوة وبطش وقوة يقول ابن الاثير في تاريخه : « جلس النعمان يوماً في مجلسه من الخورنق ، فاشرف منه على النجف وما يليه من البساتين والانهار في يوم من ايام الربيع ، فاعجبه ذلك ، فقال لوزيره : هل رأيت مثل هذا المنطرقط ؟ قال : لا لو كان يدوم ، قال : فما الذي يدوم ؟ قال : ما عند الله في الآخرة ، قال : فبما ينال ذلك ؟ قال : بتركك الدنيا وعبادة الله . فترك ملكه من ليلته ولبس المسوح ، وخرج هارباً لا يعلم به ، فاصبح الناس فلم يروه . والى ذلك يشير عدي بن زيد العبادي :

وتفكر رب الخورنق اذا اشـ ـرف يوماً وللهدى تبصير
سره حاله وكثرة ما يمـ ـلك والبحر معرض والسدير
فارعوى قلبه فقال وما غبـ ـطة حي الى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والامـ ـة وارتهم هناك القبور

---

(١) وكان الذي بنى الخورنق رجل اسمه سنمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا منه ، فقال لو علمت انكم توفوني اجري لعملته يدور مع الشمس فقال النعمان : وانك لتقدر على ما هو افضل منه ؟ ! ثم أمر به فالقي من رأس الخورنق فهلك فضربت العرب بجزائه المثل (جزاء سنمار) .

ثم اضحوا كأنهم ورق جـ ـف فالوت به الصبا والدبور[1]

وقعة ذي قار واسبابها.

لا بد لنا ونحن نستعرض بعض احوال العرب قبل الاسلام من ذكر ونعة ذي قار التي حصلت بين العرب والفرس في العراق بسبب قتل كسرى ابرويز للنعمان بن المنذر ملك الحيرة وطلب كسرى الودائع التي اودعها النعمان عند هانيء الشيباني .

ذكر المؤرخون ما ملخصه : ان كسرى ملك الفرس طلب من النعمان ابنته حرقة[2] بتحريض من عدي بن زيد كاتب كسرى والمقرب

---

(١) الكامل في التاريخ- لابن الاثير. ج -١- ص ٢٣٤ .

(٢) وفي مروج الذهب للمسعودي -ج - ٢ - ص - ١٠٢ (وكانت حرقة بنت النعمان بن المنذر اذا خرجت الى بيعتها يفرش لها طريقها بالحرير والديباج مغشى بالخز والوشي ، ثم تقبل في جواريها حتى تصل الى بيعتها ، وترجع الى منزلها ، فلما هلك النعمان نكبها الزمان ، فانزلها من الرفعة الى الذله ، ولما وفد سعد بن ابي وقاص القادسية أميراً عليها لما هزم الله الفرس وقُتل رستم . فاتت حرقة بنت النعمان في حفدة من قومها وجواريها وهن في زيها عليهن المسوح والمقطعات السود، مترهبات تطلب صلته . فلما وقفن بين يديه انكرهن سعد ، فقال : افيكن حرقة ؟ قالت : ها أنا ذه ، قال انت حرقة ؟ قالت نعم ، فما تكرارك في استفهامي ؟ ثم قالت : ان الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على جال ، تنتقل باهلها انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ، كنا ملوك هذا المصر يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا اهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الامر وانقضى صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد انه ليس يأتي قوماً بمسرة إلآ ويعقبهم بحسرة ثم انشأت تقول : =

من العرب لديه . لأن النعمان كان قد قتل والد عدي لاسباب لا مجال لذكرها . فحسَّن عدي لكسرى ابرويز أن يتزوج ابنة النعمان . وذلك لاعتقاد عدي بان النعمان لا يزوج ابنته العربية ذات الحسب الرفيع لكسرى ملك الفرس (اباء منه وانفة) وعند ذلك يغضب كسرى ويقتل النعمان وينفذ عدي مكيدته ويثأر لأبيه .

وكان كما اراد عدي فارسل كسرى يطلب من النعمان ابنته (حرقة) فغضب النعمان وقال للرسول ـ ما في عين السواد[1] ما تبلغون حاجتكم . . . ولم يستجب لطلب كسرى .

ولما رجع الرسول واخبر كسرى بمقالة النعمان غضب عليه وقتله . بعد ان حبسه قيل انه مات بالطاعون في محبسه وقيل : بل طرحه بين ارجل الفيلة فداسته حتى مات .

وكان النعمان قد اودع سلاحه وامواله وعائلته عند هاني بن قبيصة الشيباني ، فارسل كسرى يطلب ودائع النعمان من هاني قائلاً له : ان ودائع عبدي النعمان عندك فابعث بها الي . اجاب هانيء هي امانة عندي ولست مرسلها لك (وامتنع وابى ان يخفر الذمة) .

عند ذلك غضب كسرى وارسل الجيوش من العرب والعجم لمقاتلة هانيء ومن معه من العرب والتقوا في موضع يقال له (ذي قار) وكانت الغلبة للعرب على العجم .

= فبينا نسوس الناس والامر أمرنا   اذا نحن فينا سوقة ليس نعرف
فافٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها   تقلب تارات بنا وتصرف

(١) عين السواد ـ اي البقر.

يقول ابن الاثير في تاريخه : « ذكروا عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال لما بلغه ما كان من ظفر ربيعة بجيش كسرى ، هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا ، فحفظ ذلك منه وكان يوم الوقعة[1] .

مملكة الغساسنة

من جملة الممالك العربية قبل الاسلام مملكة الغساسنة الذين كانوا في نواحي الشام .

ذكر ياقوت في معجمه : غسان ـ هو اسم ماء نزل عليه بنو مازن بن الازد بن الغوث ، وبنو جفنة ، وخزاعة فسمّوا به .

اول ملوكهم الحارث بن عمرو وآخرهم جبلة بن الأيهم وهو الذي اسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود في قصة طويلة لسنا بصددها .

ذكر المسعودي في مروج الذهب مملكة الغساسنة وذكر عدد ملوكهم احد عشر ملكاً وكانوا تابعين لقياصرة الروم كما أن اللخميين كانوا تابعين لاكاسرة الفرس وقد وقعت بين الغساسنة واللخميين حروب كثيرة . لا لمصلحة العرب كما اسلفنا ولكن دفاعاً عن اسيادهم من الروم والفرس .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير ـ ج ١ ص ٢٨٥ .

كان ملوك الغساسنة ايضاً اصحاب نفوذ وسيطرة على النواحي التي كانوا فيها من بلاد الشام ولكن لم يعرف لهم مقر عاصمة لملكهم على التأكيد ولم يكن تاريخهم واضح كتاريخ ملوك الحيرة ويشير الى هذا احمد امين في (فجر الإسلام) بقوله: « وقد امتد حكمهم تقريباً على مقاطعتي حوران والبلقاء . ويظهر أنه لم يكن لهم مقر ملك ثابت ، فاحياناً يفهم من قول الشعراء ان الجولان والجابية عاصمتهم ، واحياناً يذكرون جلق بالقرب من دمشق على انها هي العاصمة . وعلى العموم فتاريخ الغسانيين في الشام من الأمور الغامضة في تاريخ العرب » .

كان الغسانيون على دين النصرانية تابعين لملوك الروم في عقائدهم وتقاليدهم الاجتماعية .

وكانوا ايضاً اهل شجاعة وسخاء ونجدة وغير ذلك من الشمائل العربية وقد ذكرتهم الشعراء فمن ذلك قول بعضهم :

يا بنت آل معاذ انني رجل   من معشر لهم في المجد بنيان
شم الانوف لهم عز ومكرمة   كانت لهم من جبال الطور اركان
اما سألت فانا معشر نجب   الازد نسبتنا والماء غسان

ملاحظة وتنبيه

قبل ان نختتم الكلام من ذكر بعض الممالك العربية وآثارها وملوكها ، لا بد من التنبيه على ان العرب كانوا خلال القرون البعيدة قبل الإسلام على احسن ما يرام من العزة والكرامة والمجد والسؤدد وكل ما يمت الى الرفعة وعلو الشأن بصلة .

ان الممالك العربية كما اسلفنا القول كانت ممالك عظيمة خلال العهود القديمة من تاريخ البشرية امم وحضارات سادت ثم بادت . ومن اراد تتبع الاثار والاخبار فعليه بكتب التاريخ المطولة فانها لم تترك شاردة ولا واردة الا ذكرتها كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا فسلوا بعدنا عن الآثار

لكن انحطاط معنويات العرب وتفرقهم وتمزقهم الى دويلات انما كان ذلك قبل ظهور الإسلام بمدة غير طويلة وهو العصر الجاهلي . لأنه كان عصر تفكك العرب . وهذا شأن جميع الشعوب على وجه الأرض القديمة منها والحديثة تمر بفترات وهي رفيعة الشأن عالية الذكر ذات نفوذ وسلطان لا يسبر غورها . ثم اذا وصلت الى القمة تأخذ في الانحطاط شأن الدول الكبيرة التي ذكرها لنا التاريخ كدولتي الفرس والروم فيما قبل الاسلام ، ودولتي الامويين والعباسيين، ودولة العثمانيين التي انقرضت من عهد قريب بعد الاسلام .

وقبيل ظهور الاسلام في العصر الجاهلي عندما بلغت الامة العربية اقصى درجات الانهيار ، وآل امرها الى انحطاط مكارم الاخلاق من عبادة الاصنام وانتهاك الحرمات واستباحة الاعراض بواسطة الغزوات وافعال المنكرات ووأد البنات كما جاء في القرآن الكريم ﴿ **وإذا الموؤدة سُئلت ـ باي ذنب قتلت** ﴾[1] انحط شأنها .

فلما جاء الإسلام بنور تعاليمه انقذ الامة العربية وانتشلها من تخوم الأرض الى عنان السماء ، حتى طبقت الدنيا بفتوحاتها وعدلها .

ان الاسلام بفضل قوانينه العظيمة ضرب بجرانه على اكثر انحاء المعمور وعمت مكارم اخلاقه جميع نواحي الحياة ، وهذا شيء بديهي لكل من تصفح كتب التاريخ كما ذكرنا .

والآن ونحن في وقتنا الحاضر بما نعانيه من التفكك والانحلال وتشتت الكلمة ، صرنا اشياعا واتباعا لكل متسلط او مستعمر ، دويلات متناثرة في المشرق والمغرب ليس لها اي شأن يذكر ، ممالك وسلاطين . . . ورؤساء ودولا . . . ووزراء وغير ذلك كما قيل :

اسماء مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صورة الاسد

عندما تفشت الانانية ، وطغت المادة على البشرية ، وانصرف الناس الى امر دنياهم تاركين امور دينهم معرضين عن قوانين الاسلام وتعاليم رسوله العظيم، ساءت احوال الأمة العربية الإسلامية واصبح الناس

---

(١) سورة التكوير ـ آية ـ ٨ ـ ٩ .

فـرقاً واشيـاعاً ﴿ من عمـل صالحـاً فلنفسه ومن اساء فعليها ومـا ربـك بظلام للعبيد ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾[2] .

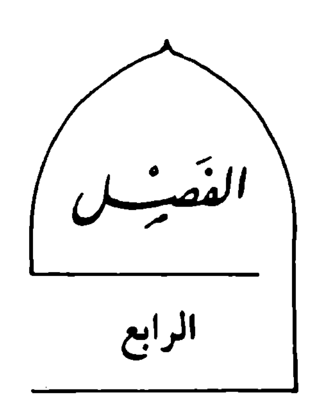
اقول وقلبي يعتصر أسى ، ليت شعري هل يلتفت العرب والمسلمون الى آثار اسلافهم العظيمة ؟! ومجدهم التليد . الذي قام بفضل الإسلام وتعاليم الاسلام . وبفضل المجاهدين الأول الذي باعوا انفسهم لأجـل الإسلام ، ولأجـل الإنسان وكـرامته وعـزتـه فيـرجعـون اليه .

لكن لما ترك المسلمون تعاليم دينهم تسلط عليهم من لا يرحمهم (اشرار الناس وحثالة البشر) وكل طامع ومستعمر فذاقوا الذل والقسوة والهوان . اقول بكل ألم وتحسر :

علي عزيز يا بلادي ان ارى	عـدوك يمشي ظافـراً بربـاك
ألم تذكري الماضي المجيد ومن بنوا	وشادوا بحد المرهفات بنـاك
وقد كنت قبل اليوم حصنا ومعقلا	بعـزهم واليـوم ديس حمـاك
مصـائب شتى والبـلايـا عـديـدة	تـوالت عليـك والـزمـان رمـاك
ألا ايها الاطلال نوحي على الأُلى	مغـاوير اسـد حجّبوا بثـراك

(١) سورة حم ـ السجدة ـ آية ـ ٤٦

(٢) سورة التوبة ـ آية ـ ٧٠.



الفصل الرابع

النفسية والعقلية العربية

درج الكثيرون من الباحثين على دراسة عقليات الامم . فجعلها بعضهم متقومة بالدم والعنصر بحيث تسيطر على الفرد من العنصر في اي مكان من العالم حتى لو انتقل من موطنه الاصلي . فقالوا : العقلية السامية ، والعقلية الآرية ، وهكذا .

وآخرون جعلوها من آثار البيئة الطبيعية . وسبب نشوئها وجميع مظاهرها . وبعض جعلها من آثار امرين مجتمعين : البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية ، ويعنون بالاخيرة ما يحيط بالمرء من حكومة ودين ونظام اسرة وغيرها .

وعندي ان الدم والعنصر والجنس ليس له أي دخل في عقلية المرء ، والدليل على ذلك واضح . ﴿ فكلكم من آدم وآدم من تراب ﴾ .

واذا كان الجميع من آدم وآدم من تراب فمن أين بدأ الافتراق بين العقليات ؟ واذا قيل بانه قد بدأ من سام وحام ؟ فنقول : لماذا اختلفت عقليتهما مع أنهما من عنصر واحد ، فهما ابنا نوح (عليه السلام) فلا بد ان يكون إختلاف عقليتهما لأمر آخر .

والظاهر أن السبب في تكوين العقلية امران :

اولاً : ـ البيئة الطبيعية : ونعني بها ما يحيط بالمرء من جبال ووديان ، وصحاري ، وانهار ، وبحار ، وفضاء ، واشجار ، وبساتين وحر ، وبرد ، وامطار ، ورياح ، وغيرها .

ثانياً : ـ البيئة الاجتماعية : ونعني بها معتقدات المرء ونظامه الاجتماعي وما يحيط به من شعوب ، وعلاقته بها ، ومن جيران وصداقته معهم أو عداوته لهم . والموقع الاستراتيجي لموطنه ، ان كان يجعله في عزلة او ذا انفتاح على العالم .

وسنتكلم عن كل من الامرين واثرهما في العقلية العربية :

ـ البيئة الطبيعية ـ والتأثر الاخلاقي :

تتأثر النفس تأثراً بالغاً بالطبيعة التي حولها فالجبال القاسية في انحدارها تزيد مساكنيها الذين تعودوا قهرها ، صلابة وقوة ارادة وتحملاً للمشقات ، ومن يعش بين السهول الخصبة تعطف وتحنو عليه الطبيعة وتجود بخيراتها وينجو من الصراع الدائم معها ، تنزع نفسه للاستقرار والهدوء والسكينة ، ويتفرغ للترف الفكري من علوم وفنون .

اما الذي منتجعه في الصحراء ، تصهره الشمس ، ويلتحف السماء وتسف عليه الرياح الرملية ، لا يجد مأوى إلا حيث يوجد الماء القليل ، المتناثر في انحاء الصحراء في واحات هي منتجعة ، فيجد نفسه وجهاً لوجه ، امام الطبيعة القاسية ، يصارعها وحده ، فصار ينتقل من مكان الى آخر بحرية تامة ، تعود الاتكال على نفسه ، وصار يحب الحرية ويقدسها ، ولا يطيق التقيد .

فالحرية الشخصية بكل صورها ومظاهرها ، جعلت ابن الصحراء عصبي المزاج ، يثور ويهيج لأدنى سبب واتفه أمر . وكأنه الحيوان الهائج ، فاذا اخضعه احد وانس من نفسه قوة ثار عليه وان وجد نفسه ضعيفاً استكان وكان مع القوي . لا يوجد قانون يخضع له ، ويجد خضوعه له عاراً . قليل الايمان بدين . وانما يؤمن بتقاليد قبيلته .

وهذا بعكس اهل السهول الخصبة ، والمياه العذبة ، فقد استقروا في مكان ، ووجدوا الطبيعة معهم لا عليهم . فانسوا بها ، واستقروا . وتعودوا الخضوع للسلطان وألفوا القوانين الصارمة ، ولم يجدوا عاراً في متابعتها .

الانانية

ان وقوف الانسان وحده امام الطبيعة البخيلة الصحراوية القاسية جعلته يبحث بشكل مرهق عن مقومات الحياة . عن المياه ـ والاشجار ـ والدفء ـ واتقاء أشعة الشمس الحارقة ولكنها قليلة يسيرة في البادية . فاضحى ذاتياً انانياً ، يفضل نفسه على كل شيء وكل احد . حتى لقد روي : ان احد الاعراب كان يصلي مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فدعا قائلاً : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا احدا . فلم يكتف هذا الأعرابي بالدعاء بعدم الرحمة لاحد ، بل قدم نفسه على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

حتى ان الاعراب كانوا اذا حاربوا مع امير ووجدوا منه ضعفاً ، انقلبوا عليه ، وكانوا له اول السالبين . معللين ذلك بان صاحب الامير اولى باملاكه ونهبه وسلبه من اعدائه .

وتقول بعض المرويات : ان فاطمة بنت الحسين (عليها السلام) كانت واقفة في طف كربلاء بعد مقتل ابيها الحسين (عليه السلام) وانصاره هجم عليها احد الاعراب واخذ يسلبها حليها وهو يبكي . فقالت له : ويلك يا هذا . اتسلبني وتبكي ؟! قال لها : انما ابكي لحالكم ولكن اسلبك خوفاً من أن يأتي احد غيري فيسلبك .

الكرم . . . والضيافة

لقد ظنت الصحراء على الاعرابي بالماء ، الذي هو شريان الحياة كما في قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون** ﴾[1] فاجبرته على الانتقال والارتحال مسافات بعيدة بحثا عن الماء والكلاء . وقد يموت عطشا ، أو جوعاً قبل الوصول الى واحته المنشودة .

فاذا أصاب الاعرابي الظمأ الشديد اضطر لأن يأوي الى بعض منازل العرب أو يمر على خباء في وسط البادية ، علّهم يجودون عليه بالماء والغذاء انقاذاً لحياته . قال بعض الشعراء :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما	يقاتل اهوال السرى وتقاتله
دعا يائساً شبه الجنون وما به	جنون ولكن كيد امر يحاوله
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه	بصوت كريم الجد حلو شمائله
فابرزت ناري ثم اثقبت ضوءها	وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله
فلما رآني كبّر الله وحده	وبشر قلباً كان جماً بلابله
فقلت له اهلا وسهلاً ومرحباً	رُشدت ولم أقعد اليه اسائله

(١) سورة الانبياء ـ آية ـ ٣٠ ـ.

وقمت الى برك هجان اعده   لوجبة حق نازل انا فاعله[1]

ومن هنا تطور الكرم عند العرب حتى صار رأس كل المكارم ، وزينة لصاحبه . وصارت الضيافة من الاعمال التي يمدح عليها صاحبها وتجعله سيداً في قومه .

ومن هنا كانت الضيافة من شروط رئيس القبيلة ، وعليه أن يفتح بيته للغادي والبادي ، يطعم الطعام ، ويسقي الشراب . ليحرز المدح وجميل الاحدوثة بعد وفاته . ومن ذلك قول حاتم الطائي يخاطب امرأته ماوية بنت عبد الله بن مالك :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك   ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
اذا ما صنعت الزاد فالتمسي له   اكيلا فاني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً او جار بيت فانني   اخاف مذمات الاحاديث من بعدي
واني لعبد الضيف ما دام ثاوياً   وما فيَّ الا تلك من شيمة العبد[2]

(١) ومعنى هذه الابيات :ـ ورب مناد نادى لمن يؤويه ويطعمه بعد سكون الليل ونوم الناس وهو في اشد حال حتى كأنه يتقاتل مع السُرى نادى وهو في هذه الحالة التي تشبه الجنون وما كان به جنون وانما فعل ذلك رجاء أن يشفقَّ عليه من يسمعه فيخلصه مما هو فيه وحينما سمعت أنا صوته ناديت جهته بصوت رجل كريم الاصل طيب الاخلاق ، واستعملت جميع الاسباب التي توصله الى بيتي ، بان اضرمت النار زيادة ليشتد نورها ، فيراني بسببه واخرجت الكلب لينبح فيسمع صوته فيهتدي الي . فاتى وهمومه كثيرة فقلت له وجدت اهلا وسهلا وقمت الى (برك) أي كريمة من كرائم الابل كنت ادخرتها لما يجب علي من حق النازلين بي من الاضياف . ونحرتها واطعمته . وهذا واجب الضيافة عند العرب .

(٢) ماوية هي زوجة خاتم الطائي وابنة عبد الله بن مالك .والمراد بذي البردين=

الصناعات . . . والحرف

ان حياة الاعرابي من حيث ارتحاله من مكان الى مكان وعدم استقراره تقضي بان لا تقوم الصناعة ولا تنشأ الزراعة ، لأنهما بحاجة الى استقرار دائم ، فتركهما البدوي ، ولم يمتهن المهن معتمداً في حاجاته على اهل الحواضر . ولما لم يستطع اقامتهما ، احتقرهما ، مدعياً أنهما للعبيد والخدم ، وبنى حياته على رعي الابل والمواشي ، وجعلهما عماد حياته ، خصوصاً الابل وهي اصبر الحيوانات على العطش والجوع فتناسب حياة الحل والارتحال . ولذا كان لهذا الحيوان الصبور اهمية عند العرب حتى سموه بالمال . فبه تقدر الدية ، وبه تقدر الاسعار .

وبعكس ذلك اهل السهول الفسيحة ، والمياه الوافرة فكان لهم ذوق رفيع . بنوا المدن ، واسسوا الدول ، وبرعوا في الزراعة والصناعة والفنون وتشييد القصور التي تحدث عنها التاريخ .

= عامر بن احيمر بن بهد له اعطاه المنذر بن ماء السماء بردين حين سأله عن حقيقته فوجده من اشرف العرب واشجعهم . والوَرد من الخيل بين الكميت والاشقر ـ ديوان الحماسة لابي تمام ـ شرح العلامة التبريزي .

الحياة الفكرية عند العرب

ان حياة الاستقرار تنتج الترف الفكري ، فمجتمع اليمن مثلا مجتمع حضري استغل الأرض واعمل عقله في كيفية جعلها وسيلة لاسعاده في دنياه ، فزرع ، وبنى السدود من اجل حصر المياه واستغلالها متى شاء ، فنشأت البساتين والغياض ، حتى سميت اليمن باليمن السعيدة ، واستغل معادن الأرض من اجل صنع آلات اقامت له الابنية والاسوار والقصور ، مثل قصر غمدان[1] .

---

(١) جاء في معجم البلد ان لياقوت الحموي قال : ان ليشرح بن يحصب اراد اتخاذ قصر بين صنعاء وطيوة فاحضر البنائين لذلك فبنى قصراً على اربعة اوجه ، وجه ابيض ووجه احمر ، ووجه اصفر، ووجه اخضر وبنى في داخله قصراً على سبعة سقوف بين كل سقفين منها اربعون ذراعاً ، وكان ظله اذا طلعت الشمس يرى على (غيات) وهو هضبة جبل احد بالمدينة ، وبينهما ثلاثة اميال وجعل في اعلاه مجلساً بناه بالرخام الملون ، وجعل سقفه رخامة واحدة ، وصيّر على كل ركن من اركانه تمثال اسد من شبه كاعظم ما يكون من الاسد. فكانت الريح اذا هبت الى ناحية تمثال من تلك التماثيل من دبره وخرجت من فيه فيسمع له زئير كزئير السباع . وكان يأمر بالمصابيح فتسرج في ذلك البيت ليلا، فكان سائر القصر يلمع من ظاهره كما يلمع البرق ، فاذا أشرف عليه الانسان من بعض الطرق ظنه برقا أو مطراً ولا يعلم أن ذلك ضوء المصابيح =

وعلى هذا الاساس بنى الانسان الحضري حياة رفاهية وحضارة ومدنية عظيمة لا مثيل لها في بلاد العرب .

وتفنن اهل الحضر فعبروا عن احاسيسهم في كتابات نقشت على المرمر والخشب والاحجار والمعادن . وبرعوا في ما يحتاج الى فكر وذوق وبراعة انامل ، كالسيوف والاثواب والبرود والبسط والصياغة والعطور ، حتى ذاع صيتها واشتهرت في جميع انحاء العالم .

واما البدوي في وسط الجزيرة ، ساكن الصحراء القاحلة المتنقل في فقر وفاقة وشظف عيش ، ترك العلوم والمهن ، وهو يحمل ذهنية وقادة وذكاء حاداً ، فوجهها نحو اللغة وعلومها ، من امثال وشعر وقصص وحكم .

وتطورت على ايديهم اللغة العربية . وبلغت رتبة راقية عندهم ، بعكس بقية الشعوب العربية ، وتباروا وتفننوا بالتعبير والبيان حتى عرفوا طرقاً من المجاز والكناية لم يعرفها غيرهم .

= وفي غمدان وملوك اليمن يقول دعبل بن علي الخزاعي .

منازل الحي من غمدان فالنضد فمأرب فظفار الملك فالجند
ارض التبابع والاقيال من يمن اهل الجياد واهل البيض والزرد
لم يدخلوا قرية الا وقد كتبوا بها كتابا فلم يدرس ولم يبد
بالقيروان وباب الصين قد زبروا وباب مرو وباب الهند والصغد

وقيل في بناء قصر غمدان غير ذلك والله العالم .

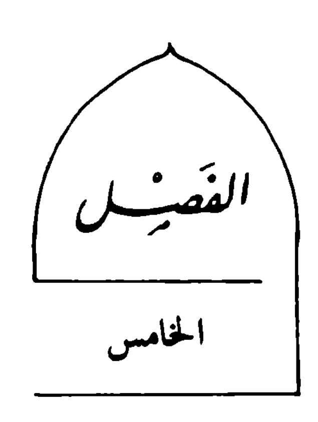
ورد في البيت الثالث في الاصل (ما دخلوا قرية) ولكن بختل وزن الشعر ولهذا صححناها بـ (لم يدخلوا قرية الى آخره) .

وجعلوا للشعر اسواقاً ونواد يتبارون فيها . وجعلوا للشاعر مرتبة عظيمة ، فهو لسان حال القبيلة والمدافع عنها ، والذاكر لامجادها . وقصيدة واحدة قد ترفع قبيلة وتخفض أخرى . وكانوا يقصدون نوادي الشعر ليشنفوا آذانهم بسماعه من اماكن بعيدة ، لا يبالون بكل ما يلاقون من صعوبات الطريق تجاه غايتهم المقصودة .

لقد اخذ منهم كل مأخذ ودخل في اعماقهم، وقدَّسوه حتى كادوا يعبدونه ، وبلغوا من تقديسهم اياه أن عُلِّقت قصائدهم على استار الكعبة . وهي البيت الحرام .

ولهذا السبب جاءت معجزة القرآن الكريم في البيان . فأبهرهم جاء بما يقدسونه ويعيشونه ويجعلونه اقصى ابداعهم وابتكارهم العقلي والفكري ، فقهرهم به لمايحتوي عليه من بلاغة واعجاز .

ولعل كون قريش اكثر القبائل اهتماماً باللغة ، وكون لهجتها هي اكثر اللهجات تطوراً ونموا ورقيا . نزل القرآن بلغتها دون غيرها .



الفصل الخامس

العصبية

في زماننا هذا عصبية الانسان دولته ، له ما لابنائها وعليه ما عليهم ، فاليها ينتسب ، وهي تحمية ، اذ لا يستطيع الانسان ان يقاوم وحده قساوة الدهر ، فيلجأ الى من يحميه ويعينه .

وانسان المدن ، يلجأ الى مدينته ودولته ، لوجود رجال الأمن فيها والشرطة والجيش .

اما انسان البادية ، حيث لا شرطة ولا رجال أمن ولا جيش ، التجأ الى قبيلته وجعلها عصبيته فله ما لها وعليه ما عليها كقول بعضهم : .

وما انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

ان القبيلة لانسان البادية هي عزته وكرامته وحياته ومن هنا اشتد اهتمام العرب بالانساب ، لأنها هي التي تثبت انتسابه لهذه القبيلة او تلك .

واما بعض الحواضر التي كانت موجودة في وسط الجزيرة مثل مكة ويثرب ، فقد قويت فيها العصبية القبلية نتيجة لعلاقتها القوية مع البدو والأعراب .

لقد كان المجتمع الجاهلي يعتمد على محور العشيرة والقبيلة ، ويجب

على الفرد ان ينصر اخاه ، والأخ هو كل فرد من افراد القبيلة .

حتى لقد قيل فيهم :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

ولعله لهذا السبب اخبر القرآن بعدم اسلام ابي لهب دون غيره كأبي جهل واضرابه .

ذلك ان من معجزات القرآن الاخبار بالمغيبات ، ومن جملة الاخبار بالمغيبات الاخبار بان ابا لهب لن يسلم وسيدخل النار . ﴿ **تبت يدا ابي لهب وتب** ﴾[1] . وهو أمر مستغرب جداً في عقلية الجاهليين ، الذين كانوا يتناصرون على اساس النسب والعشائرية ، لا على اساس الحق والواقع . فلم يكن متوقعا ان يستمر ابو لهب في عدائه لابن اخيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بخلاف غيره من بقية العشائر . فيكون الاخبار بامر مستقبلي مستغرب وغير متوقع ابلغ في الاعجاز من غيره .

---

(١) سورة ـ اللهب ـ آية ـ ١ .

القبلية

عاش الناس في شبه الجزيرة العربية في مجموعات ضخمة تسمى القبيلة ترتفع كلها الى جد واحد . وقد رتب علماء الانساب قبائل العرب على مراتب هي : شعب . . . ثم قبيلة . . . ثم عمارة . . . ثم بطن . . . ثم فخذ . . . ثم فصيلة .

فالشعب ذو النسب الابعد مثل عدنان وقحطان .

والقبيلة : مثل : ربيعة ومضر .

والعمارة : مثل : قريش وكنانة .

والبطن : مثل : بني عبد مناف وبني مخزوم ، ومثل بني هاشم وبني امية .

والفصيلة : مثل : بني ابي طالب وبني العباس[1] .

وترتفع القبائل العربية الى جدين رئيسيين هما : قحطان وعدنان .

وتفرع من قحطان قبائل كثيرة منها ـ طيء ـ وهمدان ـ ومذحج ـ وعاملة ـ وجذام ـ ولخم ـ وغسان ـ وتنوخ ـ وقضاعة ـ وكلب ـ وعذرة .

---

(١) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه الاندلسي ـ ج ـ٣ـ ص ٢٨٣ فما بعدها.

وتفرع من عدنان قبائل اخرى منها : قيس عيلان ـ وبكر ـ ووائل ـ وكنانة ، ومنها قريش ـ وتميم ـ وهذيل وغيرها .

وكانت القبائل كما ذكرنا سابقاً في تناحر وقتال مستمر يغزوا بعضهم بعضا ، اما للسيطرة كما في الجنوب من الجزيرة العربية ، واما للبحث عن الماء والكلأ ، فاذا نضب ماء قبيلة أو قل ، فاما ان يهاجر قسم منها ، واما أن تغزوا قبيلة اخرى تسكن منطقة يتوافر فيها الماء والكلأ .

ولذا كانت القبائل مضطرة لحمل السلاح دائماً فالقبيلة القوية تحمي نفسها ، والضعيفة تضطر للتحالف مع قبائل اخرى ، او لطلب الجوار من قبيلة قوية مرهوبة الجانب .

وانتقل التشاحن والتناحر عبر السنين الى الابناء . وعبر الاجيال صار العداء مستحكماً ، حتى اشتهرت بعض القبائل للعداء بينها .

وابرز هذا العداء ما جرى بين النسبين العظيمين العدنانيين والقحطانيين ، وكانا يتفاخران حتى أدى ذلك الى تشويه التاريخ ، واختلاق الانساب ، فكل من الفريقين يحاول أن يجعل اجداده من المجد والعظمة بمكان . حتى جعل القحطانيون بعض الانبياء من سلالة يعرب بن قحطان . وذلك لما افتخر العدنانيون بانتساب النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم .

ومنها العداء بين ربيعة ومضر الذي استغله الامويون فيما بعد .

ومنها العداء بين قيس وذبيان وهما فرعا غطفان ، الذي أدى الى الحرب الضروس بينهما : حرب داحس والغبراء . . . ومنها . . . الى غير ذلك من العداء .

وقد استغلت هذه العصبيات أسوأ استغلال من عدة اطراف في الإسلام . خصوصاً بين ربيعة ومضر ، وبين قيس واليمن ، وغُذِّيت . . . وقُوِّيت ، بعد ان حاول الإسلام اخفاتها .

يقول الدكتور جواد علي : « الحق أن ما نسميه قحطانية أو عدنانية ، انما هو صفحة من صفحات النزاع الحزبي عند العرب في الإسلام ، شاء اصحابه ومثيروه رجعه الى الماضي البعيد ، ووضع تاريخ قديم له ، فجعلوا له اصولاً زعموا أنها ترجع الى ما قبل الإسلام بكثير ، ورووا في ذلك شعراً لا يخرج في نظرنا عن هذا الشعر الذي يحفظه الرواة على لسان آدم ، وهابيل ، وقابيل والجن »[١] .

اقول لقد حاول الإسلام بشتى الطرق ابطال هذه العصبية المتوارثة التي لا تعود على بني الانسان الا بالحرب والدمار .

لقد آخى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بين المهاجرين والأنصار . ونهى عن احلاف الجاهلية وامر بالاستعاضة عنها بالعصبية الاسلامية ، وذلك لما نتج عن الاحلاف من فتن وغارات كما اسلفنا ، وما ينتج عن العصبية الاسلامية من تكتل وائتلاف ، وتناس للاحقاد .

كما عدَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) التعرب بعد الهجرة من الكبائر[٢] لقوله تعالى : ﴿ **الاعراب اشد كفراً ونفاقاً واجدر ألا يعلموا**

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي ـ ج ـ ١ ـ ص ٤٩٣ .

(٢) التعرب : اي ان يعود المرء الى البادية ويقيم مع الاعراب.

حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾[1] .

وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : المسلم اخو المسلم احب ذلك ام كره . وجعل (صلى الله عليه وآله وسلم) تقوى الله مناط الرفعة والسمو ـ لا الانساب .

ولكن هيهات فمع كل ما نادى به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وامر به الإسلام ، لم يمكن غسل آثار الجاهلية ، ولم يستطع من طمس معالم الاحلاف . . . والانساب والروح القبلية ، فقد كان يوقدها ذوي المصالح والاهواء والاغراض ، المستفيدين من هذه النعرات ضاربين بأوامر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبمصلحة الإسلام عرض الحائط ، عندما يجدون في اثارة الفتن ادنى مصلحة لسلطانهم . . . وما اكثر هؤلاء في العصور الاسلامية ، بل في كل عصر ومصر . . .

---

(١) سورة التوبة ـ آية ـ ٩٨ . يقول صاحب مجمع البيان في تفسيره : (وانما كان كفرهم اشد لأنهم اقسى واجفى من اهل المدن ، وهم ايضاً ابعد من سماع التنزيل وانذار الرسل عن الزجاج ، ومعناه ان سكان البوادي اذا كانوا كفاراً او منافقين ، فهم اشد كفراً من اهل الحضر لبعدهم عن مواضع العلم واستماع الحجج ، ومشاهدة المعجزات وبركات الوحي وهم احرى واولى بأن لا يعلموا حدود الله في الفرائض والسنن والحلال والحرام).
ويقول آية الله السيد الخوئي في مسائله المنتخبة في باب شرائط امام الجماعة : (ان لا يكون اعرابياً ـ أي من سكان البوادي ـ ولا ممن جرى عليه الحد الشرعي على الاحوط)

مقابلة الانسان للطبيعة بدون حاجز ، يقابل السمـاء بكل صفائها ، يمتد نظره عبر الصحراء المنبسطة ، يعيش بساطة الحياة ، يلاقي قسوة البرد الشديد ، وحر الهجير . كل هذا يجعله اكثر ايماناً بالمغيبات والارواح وغير الملموس والمحسوس . ـ فلذا انتشرت الكهانة ـ والعرافة ـ والقيافة ـ والزجر ـ والسانح ـ والبارح الى غير ذلك بين العرب .

لذلك نرى ان ابن البادية قليل الايمان ، قليل اليقين ،لا يثبت على شيء ، يصنع صنماً من التمر فاذا جاع اكله . ومن هنا وصفهم القرآن الكريم بقوله ﴿ **الاعراب اشد كفراً ونفاقاً** ﴾[1] يواكبون القوي ، ويكونون الى جانبه قال تعالى : ﴿ **قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئاً ان الله غفور رحيم** ﴾[2] .

---

(١) سورة التوبة ـ آية ـ ٩٨ .

(٢) سورة الحجرات ـ آية ـ ١٤ ذكرها صاحب مجمع البيان في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا** ﴾ اي انقدنا واستسلمنا مخافة السبي والقتل. قال الزجاج : الاسلام اظهار الخضوع والقبول لما اتى به الرسول وبذلك يحقن الدم فان كان مع ذلك الاظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الايمان ،وصاحبه=

وهذا بخلاف اهل الحواضر الذين يكونون اقل ايماناً بالارواح والغيبيات ، ولكنهم اكثر ثباتاً في عقيدتهم وايمانهم .

وجاء الاسلام . . . واضاء الكون بنور تعاليمه السامية ، وقوانينه ونظمه ، فجعل من اولئك الاعراب قادة عظماء ، وساسة حكماء ، اصحاب حضارة ومدنية سادت الشرق والغرب وتضاءلت امامها جميع الحضارات .

فاهل الحواضر اجمالاً اصح عقيدة واكثر ثباتاً كما أسلفنا ، لذلك نرى الكثير من البلاد العربية قبل الاسلام ومبعث صاحب الرسالة العظيم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) - قد ابتلي اهلها بابتلاآت عديدة وقد ثبتوا على عقيدتهم وايمانهم رغم الاضطهاد والتعذيب ولم يتلفتوا الى ما يحيط بهم من البلاء .

وكان الطغاة من الملوك المتجبرين يذيقون اهل الايمان والعقيدةانواع العذاب لحملهم على الكفر والرجوع عن عقيدتهم كما فعل - يوسف بن ذي نواس - التبعي الحميري مع المؤمنين الذين احرقهم بالنار . وقد

= المؤمن المسلم حقا . فأما من اظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق وقد اخرج هؤلاء من الايمان بقوله : ﴿ ولما يدخل الايمان في قلوبكم ﴾لم تصدقوا بعدما اسلمتم تعوذاً من القتل فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر والمسلم التام الاسلام مظهر للطاعة وهو مع ذلك مؤمن بها والذي اظهر الاسلام تعوذاً من القتل غير مؤمن في الحقيقة الا أن حكمه في الظاهر حكم المسلمين . روى أنس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الاسلام علانية والايمان في القلب وأشار الى صدره .

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله : ﴿ قتل اصحاب الاخدود ـ النار ذات الوقود ـ اذ هم عليها قعود ـ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ـ وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد ـ الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾[1] .

---

(١) سورة البروج ـ آية ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠

قصة اصحاب الاخدود

ذكر صاحب الميزان في تفسيره عن تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ قتل اصحاب الاخدود ﴾ قال : « كان سببه ان الذي هيج الحبشة على غزوة اليمن ـ ذو نواس ـ وهو آخر من ملك من حمير ، تهود ، واجتمعت معه حمير على اليهودية ، وسمى نفسه يوسف واقام على ذلك حيناً من الدهر .

ثم أُخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية ، وكانوا على دين عيسى وحكم الانجيل ، ورأس ذلك الدين ـ عبد الله بن بريامن ـ فحمله اهل دينه على أن يسير اليهم ويحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها فسار حتى قدم نجران فجمع من كان بها على دين النصرانية ، ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها ، فابوا عليه ، فجادلهم وعرض عليهم . وحرص الحرص كله فابوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل .

فاتخذ لهم أُخدوداً ، وجمع فيه الحطب واشعل فيه النار ، فمنهم من أُحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف ومثل بهم كل مثلة ، فبلغ عدد من قتل واحرق بالنار عشرين الفا . وافلت منهم رجل يدعى دوش ذو ثعلبان على فرس له ركضة ، واتبعوه حتى اعجزهم في الرمل ، ورجع ذو

نواس الى صنيعه في جنوده فقال الله ﴿ **قتل اصحاب الاخدود ـ الى قوله ـ العزيز الحميد** ﴾[1] .

وفي الميزان ايضاً : « عن تفسير العياشي بآسناده عن جابر عن ابي جعفر (عليه اسلام) قال : ارسل علي (عليه السلام) الى اسقف نجران يسأله عن اصحاب الاخدود فاخبره بشيء فقال (عليه السلام) : ليس كما ذكرت ولكن سأخبرك عنهم :

ان الله بعث رجلاً حبشياً نبياً وهم حبشية فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فاسروه واسروا أصحابه ، ثم بنوا له حيراً ثم ملؤوه ناراً ، ثم جمعوا الناس فقالوا : من كان على ديننا وامرنا فليعتزل ، ومن كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار . فجعل اصحابه يتهافتون في النار ، فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر ، فلما هجمت هابت ورقت على ابنها فنادى الصبي : لا تهابي وارميني ونفسك في النار . فان هذا والله في الله قليل ، فرمت بنفسها في النار وصبيها ، وكان ممن تكلم في المهد »[2] .

وفي لسان العرب : « في تفسير قوله تعالى : ﴿ **قتل اصحاب الاخدود** ﴾ انهم كانوا قوماً يعبدون صنماً ، وكان معهم قوم يعبدون الله عز وجل ويوحدونه ويكتمون ايمانهم ، فعلموا بهم فخدوا لهم اخدوداً وملأوه ناراً وقذفوا بهم في تلك النار ، فتقحموها ولم يرتدوا عن دينهم ثبوتاً على الاسلام ، ويقيناً أنهم يصيرون الى الجنة ، فجاء في التفسير ان

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ـ للطباطبائي .
(٢) الميزان في تفسير القرآن ـ للطباطبائي .

آخر من القي في النار منهم امرأة معها صبي رضيع ، فلما رأت النار صدت بوجهها واعرضت فقال لها : يا أماه قفي ولا تنافقي ! وقيل : انه قال لها : ما هي الا غميضة فصبرت ، فالقيت في النار ، فكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا ذكر اصحاب الاخدود تعوذ بالله من جهد البلاء »[1] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور.

لمحة عن بعض أديان العرب قبل الاسلام

لقد ذهب العرب قبل الاسلام باتجاهاتهم الدينية مذاهب شتى ، يعملون ما يحلو لهم ويوافق امزجتهم ، بدون تعقل او روية. غير ملتفتين لما يفعلون من صحيح او فاسد .

ذكر اليعقوبي في تاريخه : « وكانت اديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال الى البلدان والانتجاعات ، فكانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين ابراهيم يحجون البيت ، ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ، ويعظمون الاشهر الحرم ، وينكرون الفواحش ، والتقاطع ، والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم .

فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة البيت وكان آخر من قام بولاية البيت الحرام من ولد معد ثعلبة بن اياد بن نزار بن معد .

فلما خرجت اياد وليت خزاعة حجابة البيت ، فغيروا ما كان عليه الأمر في المناسك حتى كانوا يفيضون من عرفات قبل الغروب ومن جمع بعد أن تطلع الشمس .

وخرج عمرو بن لحي - واسم لحى ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر - الى ارض الشام وبها قوم من العمالقة يعبدون الاصنام فقال لهم : ما هذه الاوثان التي اراكم تعبدون ، قالوا : هذه اصنام نعبدها

نستنصرها فتنصرنا ونستسقي بها فنسقى فقال الا تعطوني منها صنماً فاسير به الى ارض العرب عند بيت الله الذي تفد اليه العرب . فاعطوه صنماً يقال له (هبل) فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة فكان اول صنم وضع بمكة . ثم وضعوا به (اساف ـ ونائلة) كل واحد منهما على ركن من اركان البيت . فكان الطائف إذا طاف بدأ باساف فقبله وختم به .

ونصبوا ايضاً على الصفا صنماً يقال له (مجاور الريح) وعلى المروة صنماً يقال له (مطعم الطير) فكانت العرب اذا حجت البيت فرأت تلك الاصنام سألت قريشاً وخزاعة فيقولون : نعبدها لتقربنا الى الله زلفىٰ ، فلما رأت العرب ذلك اتخذت اصناماً فجعلت كل قبيلة لها صنماً يصلون لها ، تقرباً الى الله فيما يقولون .

فكانت لكلب بن وبرة واحياء قضاعة (ودّ) منصوباً بدومة الجندل بحرش . وكان لحمير وهمدان (نسر) منصوباً بصنعاء . وكان لكنانة (سواع) . وكان لغطفان (العزى) . وكان لهند وبجيلة وخثعم (ذو الخلصة) . وكان لطيء الفلس . وكان لربيعة واياد (ذو الكعبات) بسنداد من ارض العراق. وكان لثقيف (اللات) منصوباً بالطائف. وكان للأوس والخزرج (مناة) منصوبا بفدك مما يلي ساحل البحر. وكان لدوس صنم يقال له (ذو الكفين). ولبني بكر بن كنانة صنم يقال له (سعد) . وكان لقوم من عذرة صنم يقال (شمس) وكان للازد صنم يقال له (رآم) . . . الى آخره.

ودخل قوم من العرب في دين اليهود وفارقوا هذا الدين . ودخل آخرون في النصرانية . وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية .

فاما من تهود منهم ، فاليمن باسرها ، كان (تبع) حمل حبرين من

احبار اليهود الى اليمن ، فابطل الاوثان وتهود من باليمن . وتهود قوم من الأوس ـ والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر ، وقريظة ، والنضير . وتهود قوم من بني الحارث بن كعب ، وقوم من غسان ، وقوم من جذام .

واما من تنصر من احياء العرب فقوم من قريش من بني اسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن اسد بن عبد العزى ـ وورقة بن نوفل بن اسد . ومن بني تميم بنو امريء القيس بن زيد مناة . ومن ربيعة بنو تغلب . ومن اليمن طيء ـ ومذحج ـ وبهراء ـ وسليح ـ وتنوخ ـ وغسان ـ ولخم .

وتزندق حجر بن عمرو الكندي وغيره »[1] .

هذه لمحة اوردتها باختصار عن بعض ديانات العرب قبل الاسلام . وهي توضح لنا كيف كان العرب يتأثرون سريعاً باديان وعادات وتقاليد من يجاورونه . وليس عندهم ثبات يفعلون ما يروق لهم ويحلو . وذلك لأنهم يستقون دياناتهم التي يعتنقونها على غير هدى . ينحتون الصنم بايديهم ويعبدونه وربما صنعوا صنماً من التمر فاذا جاعوا اكلوه كما اسلفنا .

اقــول :

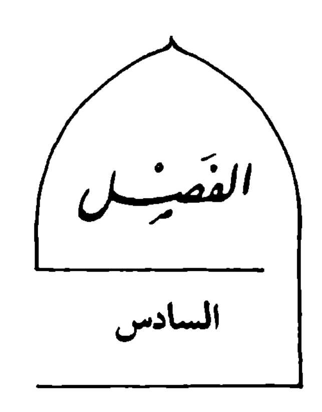
عبدوا الاصنام لكن ما دروا   ليس فيها أي نفع أو ضرر

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج ـ ١ ـ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

هـــذه افـعـــالهم تـبـــاً لهـــم قدّسوا الاخشاب طوراً والحجر

ولا يخفى أنه كان قبل الاسلام الكثير من العرب من يعبد الطبيعة او الشمس او الكواكب الى آخر ما هو مذكوز في كتب التواريخ .


الفَصْل
السادس

نظرة حول مكة المكرمة قبل الاسلام

قبل الخوض والبحث في سيرة الرسول وخلفائه (عليهم السلام) لا بد لنا من استعراض تاريخ مكة ، وأحوالها ، وديانتها وأشهر القبائل التي كانت فيها ، وما رافقها من احداث بالاضافة الى ما كانت تتمتع به قريش من المزايا ذات الصلة ببحثنا وذكر ارومة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى الاخص بني هاشم ، وما كان لهذا الفرع الاصيل من أيادٍ على العرب مضافاً الى الاخلاق السامية التي كان يتمتع بها هذا البيت من الكرم والسخاء وحفظ الجوار وايواء الفقراء والمساكين واطعام الطعام . . . الخ علاوة على الزعامة الدينية والدنيوية المتأصلة فيه من لدن ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) الى قصي ، الى عبد مناف ، الى هاشم ، الى عبد المطلب ، الى النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، « ذرية بعضها من بعض » .

لقد كانت مكة المكرمة تستأثر بقسط وافر من العزة ، والمنعة ، والرفعة ، خصوصاً بعد وقعة الفيل وهلاك جيش ابرهة الحبشي ـ الذي زاد من علو شأنها في نفوس العرب وفرض احترامها عليهم حتى كان اهلها يتمتعون بحصانة عظيمة يجوبون البلاد المجاورة لهم وغيرها في تجاراتهم الواسعة كما سنبين ذلك ونشرح في الصفحات المقبلة .

مكة المكرمة وبعض اسمائها

لقد جاء ذكر مكة المكرمة في القرآن الكريم بعدة اسماء : منها :

مكة : ـ قال تعالى : ﴿ وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾[1] .

بكة : ـ قال تعالى : ﴿ إن اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾[2] .

ام القرى : ـ قال تعالى : ﴿ وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر أُم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾[4] .

البلد : ـ قال تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ـ وانت حل بهذا البلد ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق اهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾[6] .

---

(١) سورة الفتح ـ آية ـ ٢٤ .
(٢) سورة آل عمران ـ آية ـ ٩٨ .
(٣) سورة الانعام ـ آية ـ ٩٢.
(٤) سورة الشورى ـ آية ـ ٧.
(٥) سورة البلد ـ آية ـ ١ ـ ٢ .
(٦) سورة البقرة ـ آية ـ ١٢٦.

البلد الأمين : ـ قال تعالى : ﴿ والتين والزيتون ـ وطور سنين ـ وهذا البلد الامين ﴾[1] .

الحرم الآمن : ـ قال تعالى : ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[3] .

الى غير ذلك من الآيات الكريمة التي لا مجال لذكرها إذ اكتفينا بذكر ما جاء في القرآن من بعض اسمائها .

ومن الاسماء التي تطلق على مكة المكرمة : ـ البيت العتيق ـ او البيت الحرام ـ بيت الله ـ الكعبة ـ والبلد الحرام . الى غير ذلك من الاسماء والنعوت .

وقد اختلف اهل اللغة واصحاب التاريخ في اسم مكة واشتقاقها ووجه تسميتها يقول ابن منظور : « ومكة : معروفة ، البلد الحرام ، قيل : سُميت بذلك لقلة مائها ، وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها أي يستخرجونه ، وقيل : سميت مكة لانها كانت تمك من ظلم فيها وألحد أي تهلكه »[4] .

---

(١) سورة التين ـ آيـة ـ ١ ـ ٢ ـ ٣
(٢) سورة القصص ـ آية ـ ٥٧.
(٣) سورة العنكبوت ـ آية ـ ٦٧ .
(٤) لسان العرب لابن منظور.

يقول الزبيدي في تاج العروس : « مكة شرفها الله تعالى اسم للبلد الحرام ، واختلف في وجه تسميتها فقيل : لأنها تنقص الذنوب أو تفنيها ـ أو لأنها تهلك من ظلم فيها وألحد ؛ وفي كتاب تلبية اهل الجاهلية ، كانت تلبية عك ومذحج جميعاً .

يا مكة الفاجر مكي مكا ولا تمكي مذحجاً وعكا
فنترك البيت الحرام دكا جئنا الى ربك لا نشكا

وقيل ايضاً لقلة ماءها وذلك أنهم كانوا يمتكون الماء فيها أي يستخرجونه . وقيل : لجذب الناس اليها ، والملك ـ الجذب »[1] .

وذكر ياقوت في معجمه : « مكة بيت الله الحرام ، أما اشتقاقها ففيه اقوال ، قال ابو بكر بن الانباري : سُميت مكة لأنها تمك الجبارين اي تذهب نخوتهم ، ويقال انما سُميت مكة لازدحام الناس بها من قولهم : قد امتك الفصيل ضرع أُمه اذا مصه مصاً شديداً .

قال الشرقي بن القطامي : انما سُميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة ، اي نصفر صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم اذا طافوا بها »[2] .

وقد ذمهم الله سبحانه وتعالى بقوله عزَّ من قائل : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾[3] .

---

(١) تاج العروس للزبيدي .
(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي .
(٣) سورة الانفال ـ آية ـ ٣٥ .

وفي مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي : « قال ابن عباس كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون ، وصلاتهم معناه دعاؤهم ، اي يقيمون المكاء والتصدية مكان الدعاء والتسبيح ، وقيل أراد ليس لهم صلاة ولا عبادة ، وانما يحصل منهم ما هو ضرب من اللهو واللعب » .

ابراهيم خليل الرحمن

لما كان البحث في سيرة رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الاطهار (عليهم السلام) لا بد لنا من ذكر ابي الانبياء ابراهيم خليل الرحمن (عليه السلام) وما لاقى هذا النبي الكريم من الاذى عندما دعى قومه المشركين الى الايمان بالله تعالى وترك عبادة الاصنام . وقد ذكر الله عز وجل قصة ابراهيم في القرآن الكريم في كثير من الايات والسور فابراهيم (عليه السلام) هو ابو الانبياء ، وثاني اولي العزم ، وخليل الرحمن والانبياء ينسبون الى دينه . وقد قال الله جل وعلا : ﴿ **ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾[1] .

وعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما اتخذ الله ابراهيم خليلاً الا لاطعامه الطعام ، وصلاته بالليل والناس نيام .

---

(١) سورة آل عمران ـ آية ـ ٦٧ .

« عن الصادق (عليه السلام) [تفسير العياشي] قال : ان الله تبارك وتعالى اتخذ ابراهيم (عليه السلام) عبداً قبل ان يتخذه نبياً ، وان الله تعالى اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً ، وان الله تعالى اتخذه رسولاً قبل ان يتخذه خليلاً ، وان الله تعالى اتخذه خليلاً قبل ان يجعله اماماً ، فلما جمع له الاشياء قال : ﴿ اني جاعلك للناس اماماً ﴾ قال : فمن عظمها في عين ابراهيم قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين) قال : لا يكون السفيه امام التقي »[1] .

نسب ابراهيم (عليه السلام)

اتفق اكثر اهل التاريخ واصحاب السير على نسب ابراهيم (عليه السلام) من أنه هو ابراهيم خليل الرحمن بن تارخ بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاذ بن سام بن نوح (عليه السلام) .

وقد اختلف المفسرون في اسم ابي ابراهيم ـ اهو تارخ ام آزر ؟ ـ جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : **﴿ واذ قال ابراهيم لابيه آزر اتتخذ اصناماً آلهة اني اراك وقومك في ضلال مبين ﴾**[2] .

يقول الطبرسي في تفسيره : « ان اسم ابي ابراهيم تارخ ، قال

(١) قصص الانبياء للجزائري .
(٢) سورة الانعام ـ آية ـ ٧٤.

الزجاج : ليس بين النسّابين اختلاف ان اسم ابي ابراهيم تارخ . والذي في القرآن يدل على ان اسمه آزر ، وقيل آزر عندهم ذم في لغتهم ، كأنه قال : واذ قال ابراهيم لأبيه يا مخطيء ، فاذا كان كذلك فالاختيار الرفع ، وجائز أن يكون وصفاً له ، كأنه قال لأبيه ـ المخطيء . وقيل آزر اسم صنم عن سعيد بن المسيب ومجاهد .

قال الزجاج : فاذا كان كذلك فموضعه نصب على اضمار الفعل ، كأنه قال واذ قال ابراهيم لأبيه اتتخذ آزر ـ وجعل اصناماً بدلاً من آزر واشباهه ، فقال بعد أن قال أتتخذ آزر الهاً اتتخذ اصناماً آلهة ، وهذا الذي قاله الزجاج يقوي ما قاله اصحابنا أن آزر كان جد ابراهيم لامه ، او كان عمه من حيث صح عندهم أن آباء النبي الى آدم كلهم موحدون ، واجتمعت الطائفة على ذلك .

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : لم يزل ينقلني الله من اصلاب الطاهرين الى ارحام المطهرات حتى اخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية ، ولو كان في آبائه كافر لم يصف جميعهم بالطهارة مع قوله تعالى : ﴿ انما المشركين نجس ﴾[1] .

ذكر الزبيدي : « آزر صنم كان تارخ ابو ابراهيم (عليه السلام) سادناً له ، كذا قاله بعض المفسرين . وروي عن مجاهد في قوله تعالى آزر أتتخذ اصناماً قال : لم يكن بابيه ولكن آزر اسم صنم فموضعه نصب على اضمار الفعل في التلاوة كأنه قال : واذ قال ابراهيم اتتخذ آزر الهاً أي اتتخذ اصناماً آلهة الخ .

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ـ للطبرسي .

او آزر كلمة ذم في بعض اللغات . أي يا اعرج قاله السهيلي . وفي التكملة يا اعرج أو كأنه قال : وإذ قال ابراهيم لأبيه الخاطيء . وفي التكملة يا مخطيء يا خرف . وقيل معناه يا شيخ أو هي كلمة زجر ونهي عن الباطل .

وقيل هو اسم عم ابراهيم عليه وعلى محمد افضل الصلاة والسلام في الآية المذكورة . وانما سمي العم اباً وجرى عليه القرآن العظيم على عادة العرب في ذلك لأنهم كثيراً ما يطلقون الأب على العم »[1] .

وقال بعض المفسرين ايضاً : ان آزر عم ابراهيم والعم بمنزلة الأب لقوله تعالى : **﴿ ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك وآله آبآئك ابراهيم واسماعيل واسحق الهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾**[2] .

« ذكر الطبرسي قدم ذكر اسماعيل على اسحاق لأنه اكبر منه ، واسماعيل كان عم يعقوب وجعله اباً له لأن العرب تسمي العم أباً كما تسمي الجد أباً ، وذلك لأنه يجب تعظيمها كتعظيم الأب . ولهذا قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ردوا علي أبي يعني العباس عمه[3] .

قصة ابراهيم ودعوة قومه الى الايمان

لقد دوّن اهل التاريخ واصحاب السير حياة ابراهيم (عليه

---

(١) تاج العروس ـ للزبيدي ـ ج ـ ٣ ـ ص ١٢ .
(٢) سورة البقرة ـ آية ـ ١٣٣ .
(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن ـ للطبرسي .

السلام) ، ونشأته ، والمكان الذي كان فيه ، ونهيه لأبيه عن عبادة الاوثان ، وتذكير قومه بان الله واحد احد لا شريك له . وأن الاصنـــام التي ينحتـونها ويعبدونها هي من صنع ايديهم ، لا تضر ولا تنفع .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة ابراهيم (عليه السلام) في القرآن الكريم من أنه دعى قومه الى الايمان بالله . . . وقصته مع النمرود ومحاولة النمرود احراق ابراهيم بالنار . . . الخ وكتاب الله هو الصحيح الذي لا يأتيه الباطل ولا يتطرق اليه الشك ـ هو القول الحق ـ

وتتلخص قصة ابراهيم (عليه السلام) ، من أنه كان فتى من اهل « فدان آرام» بالعراق . وكان قومه اهل أوثان ، وكان ابوه نجاراً ينحت الاصنام ويبيعها . وان ابراهيم (عليه السلام) كان قد انار الله سبحانه وتعالى بصيرته وهداه الى الرشد ، فعلم ان الاصنام ما هي إلا جماد لا تنفع ولا تضر وليس لها أي قدرة على شيء مع علمه بان اباه هو الذي يصنعها .

قال تعالى : ﴿ **واذ قال ابراهيم لابيه آزر أتتخذ اصناماً آلهة اني اراك وقومك في ضلال مبين ـ وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ـ فلما جن (عليه الليل) رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا احب الآفلين ـ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ـ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ـ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين ـ وحاجه قومه قال اتحاجونّي في الله وقد هد ان فلا اخاف**

ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً افلا تتذكرون ﴾[1] .

قال الطبرسي في تفسيره : « واختلف في تفسير هذه الآيات على أقوال :

احداها : ان ابراهيم (عليه السلام) انما قال ذلك عند كمال عقله في زمان مهلة النظر وخطور الخاطر الموجب عليه النـظر يقلبه ، لأنه (عليه السلام) لما اكمل الله عقله وحرك دواعيه على الفكر والتأمر[2] رأى الكوكب فاعظمه واعجبه نوره وحسنه وقد كان قومه يعبدون الكواكب فقال هذا ربي على سبيل الفكر ، فلما افل علم أن الافول لا يجوز على الإله فاستدل بذلك على أنه محدث مخلوق ، وكذلك كانت حاله في رؤ ية القمر والشمس ، فانه لما رأى افولها قطع على حدوثها واستحالة الهيتها ، وقال في آخر كلامه ، يا قوم إني بريء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض . الخ ، وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله تعالى وعلمه بان صفات المحدثين لا تجوز عليه ، وهذا اختيار ابي القاسم البلخي وغيره قال : وزمان مهلة النظر هي اكثر من ساعة واقل من شهر ولا يعلم ما بينهما الا الله تعالى .

وثانيها : انه انما قال ذلك قبل بلوغه ، ولما قارب كمال العقل حركته الخواطر فيما شاهده من هذه الحوادث . فلما رأى الكوكب ونوره واشراقه وزهوه ظن أنه ربه ، فلما افل وانتقل من حال الى حال قال : لا

---

(١) سورة الانعام ـ آية ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ

(٢) هكذا ورد في الاصل ـ والظاهر ـ والتأمل.

احب الآفلين ﴿ **فلما رأى القمر بازغاً** ﴾ عند طلوعه ورأى كبره واشراقه وانبساط نوره وضياءه في الدنيا ﴿ **قال هذا ربي فلما افل** ﴾ وصار مثل الكوكب في الافول والغيبوبة وعلم أنه لا يجوز ان يكون ذلك صفة الاله ﴿ **قال لئن لم يهدني ربي** ﴾ الى رشدي ولم يوفقني ويلطف بي في اصابة الحق من توحيده ﴿ **لأكونن من القوم الضالين** ﴾ بعبادة هذه الحوادث ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة** ﴾ أي طالعة وقد ملأت الدنيا نوراً ورأى عظمها وكبرها ﴿ **قال هذا ربي هذا اكبر** ﴾ من الكوكب والقمر ﴿ **فلما افلت قال** ﴾ حينئذ لقومه ﴿ **يا قوم اني بريء مما تشركون** ﴾ مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم ، فلما اكمل الله عقله وضبط بفكره النظر في حدوث الاجسام بان وجدها غير منفكة من المعاني المحدثة وأنه لا بد لها من محدث ، قال حينئذٍ لقومه ﴿ **اني وجهت وجهي** ﴾ اي نفسي ﴿ **للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً** ﴾ اي مخلصاً مائلاً عن الشرك الى الاخلاص وما انا من المشركين[1] .

وقال بعض الشعراء يصف حال ابراهيم حينما نظر الى الشمس :

نظر ابراهيم فيها نظرة	فاوري الشك وما ضل اليقين
قال ذا ربي فلما افلت	قال اني لا أُحب الآفلين
ودعا القوم الى خالقها	واتى القوم بسلطان مبين
رب ان القوم ضلوا وغووا	ورأوا في الشمس رأي الخاسرين
خشعت ابصارهم لما بدت	والى الاذقان خروا ساجدين
نظروا بدر الدجى مرآتها	تتجلى فيه حيناً بعد حين

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ الطبرسي.

ثم قالوا كيف لا نعبدها هل لها فيها ترى العين قرين؟
هي أم الأرض في نسبتها هي ام الكون والكون جنين
هي موت وحياة للورى وضلال - وهدى للغابرين
صدقوا لكنهم ما علموا أنها خلق سيبلى بالسنين
أإله لم ينزه ذاته عن كسوف بئس زعم الجاهلين
إنما الشمس وما في آيها من معان لمعت للعارفين
حكمة بالغة قد مثلت قدرة الله لقوم عاقلين

ان ابراهيم (عليه السلام) قد انار الله سبحانه وتعالى بصيرته وهداه الى الرشد كما أسلفنا قد حاور اباه وقومه لعلهم يهتدون ويرجعون عن ضلالهم وكفرهم قال تعالى: ﴿ **ولقد أتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ـ اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ـ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ـ قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين ـ قالوا أجئتنا بالحق أم انت من اللاعبين ـ قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين** ﴾[1].

لقد اخذ ابراهيم (عليه السلام) طريق البرهان والحجة الدامغة لاقناع قومه لعلهم يفقهون وابتدأ بأبيه حيث قال: ﴿ **اتتخذ اصناماً آلهة** ﴾ الخ ... فما كان جواب ابيه الا القسوة والعنف والتهديد كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ **قال أراغب انت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم**

---

(١) سورة الانبياء ـ آية ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ

تنته لأرجمنك واهجرني مليا[1] ﴾ فاجاب ابراهيم (عليه السلام) اباه بكل لطف ولين ﴿ **قال سلام عليك سأستغفر لك ربي أنه كان بي حفياً ـ واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا اكون بدعاء ربي شقياً** ﴾[2] .

ابراهيم (عليه السلام) . . . والنمرود

لا يخفى على كل ذي بصيرة ان ابراهيم (عليه السلام) بذل الجهد الكبير في سبيل هداية قومه الى الايمان وعبادة الرحمن وتحمَّل العذاب والاضطهاد عندما حاول ان يقنعهم بشتى الطرق من الحجج البالغة والبراهين الساطعة .

ولما لم يتمكن (عليه السلام) من هدايتهم وانتهره ابوه بقوله : (لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا) وما كانت هذه القسوة والغلظة والجفاء من ابي ابراهيم الا عندما قال له كما ورد في قوله تعالى : ﴿ **إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ـ يا ابت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطاً سوياً ـ يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمان عصيا ـ يا ابت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان ولياً** ﴾[3] .

وعندما اخفق ابراهيم في هداية ابيه توجه الى قومه وهو يريد لهم الهداية والارشاد لعلهم يهتدون ويتعظون .

---

(١) سورة مريم ـ آية ـ ٤٦ ـ.

(٢) سورة مريم ـ آية ـ ٤٧ ـ ٤٨ .

(٣) سورة مريم ـ آية ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ.

ولكن ويا للاسف لقد اخفق ابراهيم مرة ثانية في هداية قومه فوجد منهم قلوباً غلفاً قاسية متحجرة وآذاناً صماء ، وبصيرة عمياء .

ولما لم ير من قومه قلوباً واعية ، وآذاناً سامعة ، ولم تنفع معهم موعظة أو برهان للعدول عن عبادة الاصنام ، اضمر في نفسه الكيد واقسم أن يلحق الاذى بالتماثيل التي هم عليها عاكفون .

لقد اراد ابراهيم (عليه السلام) أن يفهم قومه ببرهان عملي ، وحجة فعلية ، لأن قومه لم يفقهوا الادلة العقلية . ولأنه وجد البرهان العملي اوقع في النفس . وربما تقبله قومه اكثر من البرهان العقلي وهذا شيء طبيعي لأنه لا يتقبل البراهين العقلية او المنطقية الا صاحب الفكر والعقل والبصيرة وأنى لقوم ابراهيم الضالين من أن يفقهوا .

وقد تؤثر البراهين العملية عند عامة الناس اكثر من البراهين العقلية . وهذا كما يجري الآن في زماننا الحاضر من استعمال المسرحيات ـ والروايات التمثيلية فانها أرجى لاحراز القبول عند العامة من الخطابات الكلامية .

وان ابراهيم (عليه السلام) نوى الاذى في نفسه للاصنام التي جد قومه على عبادتها وأصروا عليها فاقسم أن يلحق بها الأذى فقال : كما جاء في القرآن الكريم : **﴿ وتالله لأكيدن اصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ـ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون ـ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ـ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾**[1] .

---

(١) سورة الانبياء ـ آية ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ .

ويستفاد من الآيات الكريمة ان ابراهيم (عليه اسلام) عندما نوى الشر في نفسه للكيد في الاصنام ، انتظر قومه حتى خرجوا الى عيد لهم ، فحينئذٍ أخذ فأساً وكسر أصنامهم وجعلها قطعاً وترك الصنم الاكبر على حاله ، وعلق الفأس في عنقه . خرج وهو على يقين بانهم عندما يرجعون سينكرون فعل ابراهيم بآلهتهم ويسألونه لم ؟ كسر الأصنام ؟ . . . عند ذلك يرد عليهم ـ أن كبيرهم هو الذي فعل هذا . واذا سألوا الصنم ولم يجبهم ، لأنه جماد لا ينطق ، عند ذلك يعلمون جهل ما اتخذوه إلها وأنه لا ينفع ولا يضر .

محاكمة النمرود وقومه لأبراهيم (عليه السلام)

كانت مواقف ابراهيم (عليه السلام) كثيرة ومتعددة ، فنراه تارة يحاور أباه لعله يهديه . وطوراً يجادل الجمهور من قومه ، ويجادلونه . وتارة يكسر اصنامهم ليريهم أنهم ليسوا بآلهة لا يستطيعون نفعاً ولا ضراً . وقد ذكرنا محاورة ابراهيم لأبيه وقومه .

وتارة يحاج ابراهيم ملك قومه النمرود وهو احد الطغاة المتجبرين في عصره اذ صار يضرب به المثل بالظلم ـ والجور ـ والتعسف ـ والبطش ـ والقتل ـ والفتك . . . الخ حتى أن الناس كانوا وما زالوا إذا ارادوا أن يصفوا رجلاً بانه كافر ، وطاغية ، وجبار . . . ينعتونه بـ (نمرود) .

يحدثنا التاريخ ان قوم ابراهيم بعد رجوعهم من عيدهم وقد وجدوا اصنامهم محطمة ، وعلموا أنها فعلة ابراهيم . اخذهم الغضب فارادوا محاكمته وتنفيذ الحكم عليه امام اعين الناس ـ باحراقه بالنار ، انتقاماً منه وانتصاراً لآلهتهم .

ولكن حاشا لله جل جلاله أن يتخلى عن أوليائه . فكلمة الله هي العليا وارادة سبحانه وتعالى هي النافذة لا مردَّ لها .

لقد انقذ الله تعالى ابراهيم من النار وباء قّومه بغضب الجبار واللعنة عليهم على مر السنين .

وقد اخبر الله عز وجل في كتابه المجيد بقوله : ﴿ **قالوا فأتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون ـ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ـ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ـ فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ـ ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ـ قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ـ أف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون ـ قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ـ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ـ وارادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين** ﴾[1] .

ولما انجاه الله عز وجل من نار النمرود ، خرج من العراق مع من آمن به وما آمن به الا القليل ـ منهم زوجته سارة ، وابن اخيه لوط .

وتوجه الى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، وكانت ارض الكنعانيين واقام في شكيم (وهي مدينة نابلس) .

وحدث جدب في الأرض فانتقل ابراهيم الى مصر وذلك في عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ، ويسميهم الرومان (هكسوس)

---

(١) سورة الانبياء ـ آية ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٣ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ .

تقول المرويات قصصاً طويلة عما جرى لابراهيم وسارة مع فرعون مصر . ثم تقول ان فرعون هذا قد اهدى لسارة جارية اسمها (هاجر) . وكانت سارة عاقراً حتى ذلك الحين . فلم تلد لابراهيم ولداً وكانت هاجر جارية سارة فوهبتها لزوجها ابراهيم قائلة له : لعل الله يرزقك منها ولداً .

يقول الخليلي في موسوعته : « وخرج ابراهيم من مصر ونزل ارض فلسطين (بيت المقدس) وهي بلاد الكنعانيين ، وقد وسع الله عليه وبسط له في الرزق والمال والخدم ، وهنا ولد اسماعيل من هاجر ، فهاج ذلك غيرة (سارة) وغاظها أن ترى جاريتها تلد ولداً وهي لا تلد ، فغضبت عليها واخرجتها ثم اعادتها ، وليس من شك ان نزاعاً حاداً كان قد جرى بينهما ، وربما طال امد هذا النزاع فاضطر ابراهيم للهجرة بهاجر وابنها اسماعيل . وقد اختلفت الاخبار في سن اسماعيل عند الهجرة وقال البعض أنه كان رضيعاً ، والراجح أنه كان في سنٍ اكبر وفوق سن الرضاعة فقد ورد في الاسباب التي حملت سارة على ان تفرض على ابراهيم الهجرة بهاجر وابنها اسماعيل في قولها : (لا تساكني هاجر في بلد) هو ان سارة قد حملت هي الاخرى باسحاق فلما ولدته وكبر اقتتل هو واسماعيل . فلم تطق سارة بعد ذلك ان تحتمل هاجر وابنها اكثر مما احتملته .

وقد رووا أنه لما ولد لأبراهيم اسحاق من سارة وبلغ ثلاث سنين اقبل اسماعيل على اسحاق وهو في حجر ابراهيم فنحاه وجلس في مجلسه فبصرت به سارة فقالت : يا ابراهيم أينحي ابن هاجر ابني من حجرك ويجلس هو في مكانه ؟ لا والله لا تجاورني هاجر وابنها في بلاد أبداً

فنحهما عني ، وكان ابراهيم مكرماً لسارة يعزها ويعرف حقها وذلك لأنها كانت من ولد الأنبياء وبنت خالته » .

قصة الفداء

لما كنا في صدد الكتابة عن الرسول واهل البيت (عليهم السلام)، وتقدم الكلام في ذكر بعض احوال ابراهيم (عليه السلام) جد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا بد من المرور ولو بلمحة يسيرة بقصة الرؤ يا التي رآها ابراهيم من ذبح ولده كما في قوله تعالى : **﴿ فلما بلَغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين ـ فلما اسلما وتله للجبين ـ وناديناه انْ يا ابراهيم ـ قد صدَّقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ـ ان هذا لهو البلاء المبين ـ وفديناه بذبح عظيم ﴾**[1] .

قد اختلف العلماء في الذبيح من هو ـ اهو اسماعيل ؟ أم اسحاق ؟ وورد في ذلك روايات كثيرة بعضها تقول ان الذبيح اسماعيل ـ وبعضها تقول ان الذبيح هو اسحاق الا ان الاظهر في الروايات ان الذبيح اسماعيل ، ويعضده قوله سبحانه وتعالى بعد قصة الذبح : **﴿ وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين ﴾** . ومعناه ان اسحاق ولد لأبراهيم بعد قصة الذبح .

ذكر الطبرسي في تفسيره : « عن النبي (صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة الصافات ـ آية ـ ١٠٢ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٧

وسلم) أنه قال : انا ابن الذبيحين . ولا خلاف انه من ولد اسماعيل والذبيح الآخر هو عبد الله ابوه »[1] .

وذكر الطباطبائي في تفسيره : عن ابن اسحاق ان ابراهيم كان اذا زار اسماعيل وهاجر حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ، ويروح من مكة فيبيت عند اهله بالشام حتى اذا بلغ معه السعي رأى في المنام أن يذبحه فقال له : يا بني خذ الحبل والمدية ثم انطلق بنا الى هذا الشعب لنحتطب .

فلما خلا ابراهيم بابنه في شعب ثبير اخبره بما قد ذكره الله عنه فقال : يا ابت اشدد رباطي حتى لا اضطرب واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح من دمي شيئاً فتراه امي ، واشحذ شفرتك ، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون اهون علي فان الموت شديد ، فقال له ابراهيم : نعم العون انت يابني على امر الله .

ثم ساق القصة وفيها ثم انحنى اليه بالمدية وقلب جبرائيل المدية على قفاها واجتر الكبش من قبل ثبير ، واجتر الغلام من تحته ، ووضع الكبش مكان الغلام ، ونودي من ميسرة مسجد الخيف : يا ابراهيم قد صدقت الرؤ يا »[2] .

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي .
(٢) تفسير الميزان ـ للطباطبائي .



الفصل السابع

بناء البيت المعظم في مكة المكرمة

قال سبحانه وتعالى : ﴿ واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ﴾[1] .

ذكر الطبرسي في تفسيره : « عن ابن عباس وعطاء قالا : قد كان آدم (عليه السلام) بناه ـ أي البيت ـ ثم عفا أثره فجدده ابراهيم (عليه السلام) وهذا هو المروي عن أئمتنا (عليهم السلام) .

وروي عن الباقر أنه قال : ان الله تعالى وضع تحت العرش اربع اساطين ، وسماه الضراح[2] وهو البيت المعمور ، وقال للملائكة طوفوا به ، ثم بعث ملائكة فقال ابنوا في الأرض بيتا بمثاله وقدره ، وأمر من في الأرض ان يطوفوا بالبيت »[3] .

ذكر الطبري في تفسيره : « واذ يرفعن ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ـ وقواعد البيت اساسه ثم اختلف اهل التأويل في القواعد التي رفعها ابراهيم واسماعيل من البيت . . . اهما احدثا ذلك أم هي قواعد كانت له قبلهما . فقال قوم : هي قواعد بيت كان بناه آدم ابو البشر بامر الله اياه بذلك ، ثم درس مكانه وتعفى اثره بعده حتى بوأه

---

(١) سورة البقرة ـ آية ـ ١٢٧ .

(٢) الضراح ـ هكذا دردت في الاصل.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي.

الله ابراهيم (عليه السلام) فبناه »[1] .

وذكر الشيخ الطوسي في تبيانه : « روي عن محمد بن علي الباقر (عليهما السلام) أنه قال : ان الله تعالى وضع تحت العرش اربع اساطين وسماه الصراح وهو البيت المعمور وقال للملائكة طوفوا به ثم بعث ملائكة فقال : ابنوا في الأرض بيتاً بمثاله وقدره ، وامر من في الأرض ان يطوفوا بالبيت .

وقال ابو جعفر : اسماعيل أول من شق لسانه بالعربية ، وكان ابوه يقول : وهما يبنيان البيت : ـ يا اسماعيل ـ هابي ابن[2] اي اعطني حجراً ، فيقول له اسماعيل بالعربية : ـ يا ابي هاك حجراً ـ وابراهيم يبني واسماعيل يناوله الحجارة . وروي لما اهبط الله آدم من الجنة قال : اني منزل معك ـ أو مهبط معك ـ بيتاً تطوف حوله كما يطاف حول عرشي ، وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي ، ولما كان زمن الطوفان رفع وكانت الانبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه حتى بوأه الله لابراهيم فاعلمه مكانه ، فبناه من خمسة اجبل : من حراء ، وثبير ، ولبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخمر[3] قال الطبري وهو جبل بدمشق »[4] .

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري .
(٢) هابي ابن : في العبرانية معناه أعطني حجراً ـ هاتلي ابن ـ.
(٣) جبل الخمر : جبل ببيت المقدس سمي بذلك لكثرة كرومه .
(٤) التبيان في تفسير القرآن ـ الشيخ الطوسي.

قصة هاجر ... وولدها اسماعيل (عليه السلام)

لما كان نبي الله اسماعيل (عليه السلام) وهو جد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو اول من سكن وادي مكة المكرمة مع امه هاجر حيث اشار الله سبحانه وتعالى على لسان ابراهيم (عليه السلام) بقوله : ﴿ **ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[1] .

ذكر الطباطبائي في ميزانه : « في تفسير القمي ، عن الصادق (عليه السلام) قال : ان ابراهيم كان نازلاً ، في بادية الشام فلما ولد له من هاجر اسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً ، لأنه لم يكن لها ولد ، وكانت تؤذي ابراهيم في هاجر وتغمه ، فشكى ابراهيم ذلك الى الله عز وجل ، فاوحى الله اليه : « مثل المرأة مثل الضلع العوجاء ، إن تركتها استمتعت بها ، وان أقمتها كسرتها » ثم أمره : ان يخرج اسماعيل وأُمه ، فقال : يا رب الى أي مكان ؟ فقال : الى حرمي وأمني ، وأول بقعة خلقتها من الأرض ، وهي مكة فانزل الله عليه جبرائيل بالبراق فحمل هاجر واسماعيل وابراهيم وكان ابراهيم لا يمر

---

(١) سورة ابراهيم - آية - ٣٧.

بموضع حسن فيه شجر وزرع ونخل الا وقال ابراهيم : يا جبرائيل الى ها هنا ، الى ها هنا ، فيقول جبرئيل : لا ، امض ، امض ، حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت ، وقد كان ابراهيم عاهد سارة حتى يرجع اليها ، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر فالقت هاجر على ذلك الشجر كساءً كان معها ، فاستظلوا تحته ، فلما سرحهم ابراهيم ووضعهم اراد الانصراف عنهم الى سارة ، قالت له هاجر : يا ابراهيم اتدعنا في موضع ليس فيه انيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال ابراهيم : الله الذي أمرني ، أن أضعكم في هذا المكان هو يكفيكم . ثم انصرف عنهم ، فلما بلغ ـ كداء ـ (وهو جبل بذي طوى) التفت ابراهيم ، فقال : ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع ، عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

ثم مضى وبقيت هاجر ، فلما ارتفع النهار عطش اسماعيل فقامت هاجر في موضع السعي فصعدت على الصفاء ، ولمع لها السراب في الوادي ، فظنت أنه ماء ، فنزلت في بطن الوادي ، وسعت فلما بلغت المروة غاب عنها اسماعيل ، عادت حتى بلغت الصفاء ، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات ، فلما كانت في الشوط السابع وهي على المروة نظرت الى اسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه فعادت حتى جمعت حوله رملاً ، فانه كان سائلاً ، فزمته بماجعلت حوله ، فلذلك سُميت ـ زمزم ـ .

وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات ، فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء ، فنظرت الى تعكف الطير والوحش على

ذلك المكان فاتبعتها ، حتى نظروا الى امرأة وصبي نازلين في ذلك الموضع ، قد استظلا بشجرة ، وقد ظهر الماء لهما ، فقالوا لهاجر : من انت ـ وما شأنك وشأن هذا الصبي ؟ قالت : انا ام ولد ابراهيم خليل الرحمن ، وهذا ابنه ، أمره الله ان ينزلنا ها هنا ، فقالوا لها : تأذنين لنا أن نكون بالقرب منكم ؟ فقالت لهم : حتى يأتي ابراهيم ، فلما زارهم ابراهيم في اليوم الثالث قالت هاجر : يا خليل الله إن هيهنا قوم من جرهم يسألونك ان تأذن لهم ، حتى يكونوا بالقرب منا ، أفتأذن لهم في ذلك ؟ قال ابراهيم : نعم . . . فاذنت لهم هاجر ، فنزلوا بالقرب منهم ، وضربوا خيامهم ، فانست هاجر واسماعيل بهم .

فلما زارهم ابراهيم في المرة الثانية نظر الى كثرة الناس حولهم فسر بذلك سروراًشديداً ، فلما تحرك اسماعيل وكانت جرهم قد وهبوا لاسماعيل كل واحد منهم شاة ، وشاتين . فكانت هاجر واسماعيل يعيشان بها .

فلما بلغ اسماعيل مبلغ الرجال ، امر الله ابراهيم ان يبني البيت الى أن قال : فلما أمر الله ابراهيم ان يبني البيت لم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث الله جبرائيل ، وخط له موضع البيت . الى ان قال : فبنى ابراهيم البيت ، ونقل اسماعيل من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع ، ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه ابراهيم ، ووضعه في موضعه الذي هو فيه الآن ، فلما بنى (البيت) جعل له بابين باباً الى الشرق ، وباباً الى الغرب ، والباب الذي الى الغرب ، يسمى المستجار ، ثم القى عليه الشجر والاذخر ، والقت هاجر على بابها كساءً كان معها وكانوا يكونون تحته ، فلما بنى وفرغ منه ، حج ابراهيم واسماعيل ، ونزل

عليهما جبرئيل يوم التروية، لثمان من ذي الحجة، فقال: يا ابراهيم قم وارتو من الماء، لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسميت التروية لذلك. ثم اخرجه الى منى، فبات بها. ففعل به ما فعل بآدم.

فقال ابراهيم لما فرغ من بناء البيت: «رب اجعل هذا بلداً آمناً، وارزق اهله من الثمرات، من آمن منهم الآية» قال (عليه السلام): من ثمرات القلوب، أي حببهم الى الناس، ليستأنسوا بهم، ويعودوا اليهم»[1].

وروى الطبري في تاريخه عن ابن عباس قال: «ان أول من سعى بين الصفا والمروة لأم اسماعيل، وان اول من احدث من نساء العرب جر الذيول لأم اسماعيل. قال: لما فرت من سارة ارخت ذيلها لتعفي اثرها، فجاء بها ابراهيم ومعها اسماعيل حتى انتهى بهما الى موضع البيت، فوضعهما ثم رجع، فاتبعته فقالت: الى أي شيء تكلنا؟!... الى طعام تكلنا؟!... الى شراب تكلنا؟... لا يرد عليها شيئاً، فقالت: الله امرك بهذا؟...

قال: نعم، قالت: اذاً لا يضيعنا، قال: فرجعت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء، اقبل على الوادي فقال: ﴿ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم...﴾ الآية.

قال: ومع الانسانة[2] شنة فيها ماء، فعطشت فانقطع لبنها،

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ـ للطباطبائي ـ الجزء لاول ـ ص ٢٨٨.
(٢) اي هاجر.

وعطش الصبي ، فنظرت : اي الجبال ادنى الى الأرض ، فصعدت الصفا فتسمعت . . هل تسمع صوتاً . . أو ترى انيساً ؟ فلم تسمع شيئاً فانحدرت ، فلما اتت على الوادي سعت ـ وما تريد السعي ـ كالانسان المجهود الذي يسعى وما يريد السعي ، فنظرت أي الجبال أدنى الى الأرض ، فصعدت المروى فتسمعت . . هل تسمع صوتاً . . . أو ترى انيساً ؟ فسمعت صوتاً ، فقالت كالانسان الذي يكذب سمعه : صه ! . . حتى استيقنت ، فقالت : قد اسمعتني صوتك فاغثني ، فقد هلكت وهلك من معي ، فجاء الملك بها حتى انتهى بها الى موضع زمزم ، فضرب بقدمه ففارت عيناً فعجلت[1] الانسانة تفرغ في شنتها[2] . فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « رحم الله ام اسماعيل لولا انها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً » .

قال : ومرت رفقة من جرهم تريد الشام ، فرأوا الطير على الجبل ، فقالوا : ان هذا الطير لعائف[3] على ماء ، فهل علمتم بهذا الوادي من ماء ؟ فقالوا : لا ، فاشرفوا فاذا هم بالانسانة ، فاتوها وطلبوا اليها ان ينزلوا معها ، فأذنت لهم »[4] .

---

(١) والاصح ـ فجعلت.

(٢) والشن والشنة ـ القربة.

(٣) العائف هنا : الذي يتردد على الماء ويحوم ولا يمضي.

(٤) تاريخ الطبري ـ ج ـ ١ ـ ص ـ ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

عرض وتحليل

أقول يظهر من الروايات التي جاءت في قصة ابراهيم واسماعيل وهاجر وهي كثيرة وعلى اوجه مختلفة ولكن اكثرها تقول ان مكة كانت ارضاً قفراء لا ماء فيها ولا كلاء وان اختلف اهل التاريخ فيما بينهم ، هل انه كان يوجد في وادي مكة بناء ام لا ؟ واعود فاقول الذي يظهر والذي عليه المعول انه لم يكن فيها شيء من ذلك .

وربما يقال : كيف أن ابراهيم (عليه السلام) وهو خليل الرحمن يضع زوجته وولده في ارض قفراء خالية من السكان وحدهما بالعراء ؟ . .

اقول : أنه من غير المعقول ان ابراهيم الخليل وهو النبي المعصوم صاحب العقل والرأي والتفكير ، ان يضع زوجته وولده ويطوح بهما في مكان اقفر لا يؤمن عليهم من الغوائل . . .

والذي يمكن القول فيه ان ابراهيم (عليه السلام) انما جاء بزوجته هاجر وولده اسماعيل الى وادي مكة المكرمة قد كان ذلك بامر من الله تعالى ليظهر البيت المعظم على يده بعد أن عفا أثره طوفان نوح (عليه السلام) ولم يبق منه الا اكمة حمراء على ما تقول بعض الروايات .

وعلى هذا كان ما فعله ابراهيم اطاعة لامر الله عز وجل وحكمة

بالغة لمصلحة عباد الله ليطوفوا بالبيت العتيق ليغفر ذنوبهم ويهديهم الى سلوك الصراط المستقيم . والله سبحانه وتعالى يعلم أنه سيكون هذا المكان مأوى لعباده الصالحين وملاذا للنبيين وملجأ للتائبين. يحجون اليه من كل مكان ومن كل فج عميق كما جاء في قوله تعالى ﴿ **وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق - ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام - الآية** ﴾[1] .

---

(١) سورة الحج - آية - ٢٧ - ٢٨ .

القبائل التي سكنت مكة

ان عدداً من رواة التاريخ يقولون ان العمالقة هم اول من استوطن مكة . ولكن اكثر المصادر التاريخية تقول : ان ابراهيم (عليه السلام) لما اسكن زوجته هاجر وولدها اسماعيل (عليه السلام) بمكة واتجه بدعائه متضرعاً للباري عز وجل بقوله كما جاء في القرآن الكريم : **﴿ ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾**[1] .

اتت جرهم ونزلت مكة بعد أن استأذنت من هاجر في النزول واذنت لهم كما اسلفنا .

حديث جرهم وبني اسماعيل (عليه السلام)

ان اسماعيل (عليه السلام) نشأ مع قبيلة جرهم ، وتزوج منهم ، وتكلم العربية لغتهم ، وولد له اولاد تولوا الحكم ، منهم قيدار ـ ونابت[2] .

---

(١) سورة ابراهيم ـ آية ـ ٣٧.

(٢) ولد لاسماعيل بن ابراهيم (عليهما السلام) من زوجته السيدة رعلة بنت=

يقول الازرقي : « وكان من حديث جرهم وبني اسماعيل ـ أن اسماعيل لما توفي دفن مع امه في الحجر . وزعموا أن فيه دفنت حين ماتت . فولي البيت نابت بن اسماعيل ما شاء الله ان يليه ، ثم توفي نابت بن اسماعيل ، فولي البيت بعده مضاض بن عمرو الجرهمي ـ وهو جد نابت بن اسماعيل ـ ابو امه . وضم بني نابت بن اسماعيل ، وبني اسماعيل اليه . فصاروا مع جدهم ابي أمهم مضاض بن عمرو ومع أخوالهم من جرهم ، وجرهم وقطورا يومئذٍ اهل مكة ـ وعلى جرهم مضاض بن عمرو ملكاً عليهم وعلى قطورا رجل منهم يقال له السميدع ملكاً عليهم »[1] .

وتقول اكثر المرويات ان جرهما ـ وقطورا ، اختلفوا فيما بينهم على ولاية الأمر في مكة وولاية البيت . ونشبت الحرب بينهم فكان بنو نابت وبنو اسماعيل مع مضاض بن عمرو الجرهمي . وكانت قطورا مع ملكهم السميدع وقُتل السميدع وصار امر مكة الى مضاض والى هذا

= مضاض بن عمرو الجرهمي اثنا عشر رجلا. وهم ـ نابت ـ وقيدار ـ وواصل. ومياس . وآزر ـ وطيما ـ ويطور ـ ونبش وقيدما ــ الى آخره وكان عمر اسماعيل فيما يذكرون ثلاثين وماية سنة . فمن نابت بن اسماعيل وقيدار نشر الله العرب.

ملاحظة : ان في الطبري ـ وابن هشام ـ والروض الأنف يوجد اختلاف بسيط في اسماء اولاد اسماعيل ـ على أنه يوجد في بعض الروايات ـ ان اسماء بقية اولاد اسماعيل هم ، حداد ـ ودومة والهميسع ـ والله العالم.

(١) اخبار مكة ـ للازرقي.

يشير بقوله في ابيات من الشعر يذكر فيها السميدع وقتله، وبغيه والتماسه ما ليس له :

ونحن قتلنا سيد الحي عنوة فاصبح فيها وهو حيران موجع
وما كان يبغي ان يكون سواءنا بها ملكا حتى اتانا السميدع
فضاق وبالاً حين حاول ملكنا وعالج منا غصة تتجرع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته نحامي عنه من اتانا وندفع
وما كان يبغي ان يلي ذاك غيرنا ولم يك حي[1] قبلنا ثم يمنع
وكنا ملوكاً في الدهور التي مضت ورثنا ملوكاً لا ترام فتوضع

وفي موسوعة العتبات المقدسة : « يبدو أن خزاعة وجدت الفرصة سانحة للسيطرة على ما تسيطر عليه قبيلة جرهم ، ووردت بعض الاخبار التاريخية التي تشير الى ان قبيلة جرهم بغوا بمكة ، واستحلوا خلالاً من الحرمة ، فظلموا من دخلها من غير اهلها ، واكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها ،فرقّ أمرهم ، فلما رأت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وغبشان من خزاعة ذلك ، اجمعوا لحربهم واخراجهم من مكة . فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا . فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة[2] .

ويذكر ابن هشام في سيرته : « قال ابن اسحاق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي بغزالي الكعبة ، وبحجر الركن فدفنها في زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم الى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً . فقال عمرو بن الحارث بن

(١) كذا في الاصل
(٢) موسوعة العتبات المقدسة- الخليلي.

عمرو بن مضاض في ذلك شعراً[1] .

وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... انيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا اهلها فازالنا ... صروف الليالي والجد ود العواثر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت ... بعزّ فما يحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعزَّزنا فاعظم بملكنا ... فليس لحي غيرنا ثمَّ فاخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته[2] ... فابناؤه منا ونحن الأصاهر
فان تنثني الدنيا علينا بحالها ... فان لها حالاً وفيها التشاجر
فاخرجنا منها المليك بقدرة ... كذلك يا للناس تجري المقادر
اقول اذا نام الخلي ولم أنم ... اذا العرش لا يبعد سهيل وعامر[3]
وبُدِّلت منها اوجهاً لا أُحبها ... قبائل منها حمير ويحابر[4]
وصرنا احاديثاً وكنا بغبطة ... بذلك عضتنا السنون الغوابر
فسحت دموع العين تبكي لبلدة ... بها حرم أمن وفيها المشاعر[5]

---

(١) وهذا ليس بمضاض الاكبر.

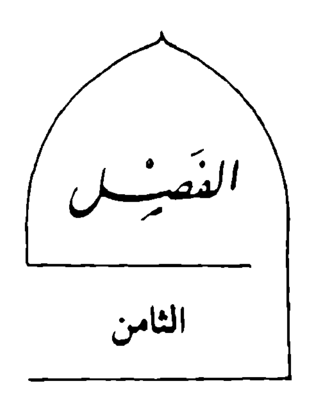
(٢) يعني : اسماعيل (عليه السلام) ، وذلك أنه نكح امرأة من جرهم . ورواية هذا الشطر في الطبري : ـ وصاهرنا من اكرم الناس والدا ـ.

(٣) وفي بعض الروايات ـ اقول اذا نام الخلي ولم أنم مدى الليل لا يبقى سهيل وعامر.

(٤) حمير ويحابر : ـ من قبائل اليمن . ويقال : ان يحابر هي مراد.

(٥) المشاعر : المواضع المشهورة في الحج التي يتعبد بها .

ملاحظة : قد ورد ذكر هذه القصيدة في كتب الادب والتاريخ باختلاف في الترتيب والالفاظ ـ والزيادة فليرجع اليها من شاء .



الفصل الثامن

قصي جد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

ان قصي بن كلاب هو الجد الخامس للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو اول رجل من بني كنانة اصاب ملكاً واطاع له به قومه .

وقصي هذا هو الذي انتزع ولاية البيت وامر مكة من خزاعة بعد قتال عنيف كما يروي ذلك المؤرخون .

وكانت خزاعة قد حكمت مكة وتولت امر البيت مدة ثلاثمائة سنة وهي صاحبة الأمر والنهي .

ويذكر الحلبي في سيرته : « ويسمى قصي زيدا - ويدعى مجمعاً أيضاً ، وقيل له قصي لأنه قصي أي بعد عن عشيرته الى اخواله بني كلب في ناديهم . وقيل بعد الى قضاعة مع امه لأنها كانت منهم .

ويذكر الحلبي أيضاً : وقيل له قصي لأنه بعد مع أمه الى الشام لأن امه تزوجت بعد موت ابيه وهو فطيم بشخص يقال ربيعة بن حرام فرحل بها الى الشام . وكان قصي لا يعرف له أباً الا زوج امه المذكور ، فلما كبر وقع بينه وبين آل زوج أمه شر ، فانه ناضل رجلاً منهم فنضله قصي - أي غلبه - فغضب ذلك الرجل وعير قصياً بالغربة ، وقال له : ألا تلحق بقومك وببلادك فانك لست منا - وفي لفظ : لما قيل له ذلك قال : ممن انا ؟ قيل له : سل امك ؟ . . .

فشكا ذلك الى امه فقالت له : بلادك خير من بلادهم ، وقومك خير من قومهم ، أنت أكرم اباً منهم ، انت ابن كلاب بن مره ، وقومك بمكة عند البيت الحرام ، تفد اليه العرب ، وقدْ قالت لي كاهنة رأتك صغيراً ، انك تلي امراً جليلاً .

فلما اراد قصي الخروج الى مكة قالت له امه : لا تعجل حتى يدخل الشهر الحرام فتخرج مع حجاج قضاعة ،فاني اخاف عليك . فشخص مع الحجاج .

فقدم قصي مكة على قومه مع حجاج قضاعة ، فعرفوا له فضله وشرفه فاكرموه وقدموه عليهم ، فساد فيهم ثم تزوج بنت خليل الخزاعي ، وكان امر مكة والبيت اليه ، وهو آخر من ولي امر البيت والحكم بمكة من خزاعة . فجاء منها باولاده الآتي ذكرهم .

فلما انتشر ولده وكثر ماله وعُلم شرفه ، مات حُليل فرأى قصي أنه أولى بامر مكة من خزاعة - لأن قريشاً اقرب الى اسماعيل من خزاعة - فدعا قريشاً وبني كنانة الى اخراج خزاعة من مكة فاجابوه الى ذلك . وانضم له قضاعة جاء بهم اخو قصي لأمه فأزاح قصي يد خزاعة وولي أمر مكة .

وقيل أن خليل جعل امر البيت لقصي ، ولا منافاة لجواز ان تكون خزاعة لم ترض بما فعله حُليل من أن يكون امر البيت لقصي ، فحاربهم واخرجهم من مكة[1] .

---

(١) انسان العيون - لبرهان الدين الحلبي - المعروفة بالسيرة الحلبية .

ذكر الطبري في تاريخه : « قدم قصي على اخيه زهرة[1] وقومه ، فلم يلبث ان ساد ، وكانت خزاعة بمكة اكثر من بني النضر ، فاستنجد قصي اخاه رزاحاً[2] وله ثلاثة اخوة من أبيه من امرأة اخرى ، فاقبل بهم وبمن اجابه من احياء قضاعة ، ومع قصي قومه بني النضر ، فنفوا خزاعة .

ذكر ابن هشام في سيرته : « قال ابن اسحاق : وانحازت خزاعة وبنو بكر عن قصي ، وعرفوا انه سيمنعهم كما منع صوفة[3] وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة . فلما انحازوا عنه باداهم[4] واجمع لحربهم ـ وثبت معه اخوه رزاح بن ربيعة بمن معه من قومه من قضاعة ـ .

---

(١) زهرة هو اخو قصي لأمه وابيه ـ وكان لا يزال مع قومه بمكة .

(٢) رزاح بن ربيعة ـ وهو اخو قصي لأمه .

(٣) صوفة : هو الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر كان يلي الاجازة للناس بالحج من عرفة وولده من بعده . وكان يقال له ولولده (صوفة) وانما سمي ذلك لأن امه كانت امرأة من جرهم ، وكانت لا تلد فنذرت لله ان هي ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبداً لها يخدمها ، ويقوم عليها . فولدت الغوث فكان يقوم على الكعبة في الدهر الاول مع اخواله من جرهم فولي الاجازة بالناس من عرفة لمكانه الذي كان به من الكعبة . فقال (ابوه) مر بن أُد لوفاء نذر أُمه :

اني جعلت ربِّ من بنيه ربيطة بمكة العليه
فباركن لي بها أليَّه واجعله لي من صالح البريه

وألأليه في الأصل اليمين اشارة الى النذر الذي نذرته امه .

(٤) باداهم ـ كاشفهم .

وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا ، فاقتتلوا قتالاً شديداً - بالابطح -، حتى كثرت القتلى في الفريقين جميعاً، ثم انهم تداعوا الى الصلح والى ان يحكموا بينهم رجلا من العرب، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . فقضى بينهم بان قصياً اولى بالكعبة وامر مكة من خزاعة ، وأن كل دم اصابه قصي من خزاعة وبني بكر موضوع يشدخه[1] تحت قدميه . وان ما اصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة . وان يخلى بين قصي وبين الكعبة ومكة . . . الخ .

وفي سيرة ابن هشام ايضاً : قال ابن اسحاق : فلما فرغ قصي من حربه ، انصرف اخوه رزاح بن ربيعة الى بلاده . بمن معه من قومه ، وقال رزاح في اجابته قصياً : ابياتا من الشعر منها :

لما اتى من قصي رسول	فقال الرسول اجيبوا الخليلا
نهضنا اليه نقود الجياد	ونطرح عنا الملول الثقيلا
نسير بها الليل حتى الصباح	ونكمي[2] النهار لئلا نزولا
فهن سراع كورد[3] القطا	يجبن بنا من قصي رسولا
فلما انتهينا الى مكة	ابحنا الرجال قبيلا قبيلا
نعاورهم ثمَّ حد السيوف	وفي كل أوب خلسن العقولا[4]

---

(١) يشدخه: يكسره ويريد أنه ابطل تلك الدماء ولم يجعل لها حظاً ولذلك قيل تحت قدميه .

(٢) نكمي : نكمن - ونستتر .

(٣) الورد : الواردة.

(٤) نعاورهم : نداولهم مرة بعد مرة . - والأوب : الرجوع .

نخبّـزهم بصـلاب النسـو ر خبز القويّ العزيز الذليلا[1]
قتلنـا خـزاعـة في دارهـا وبكـراً قتلنـا وجيـلا فجيـلا
نفينـاهم من بـلاد المليـك كما لا يحلون ارضاً سهـولا
فـاصبح سبيهم في الحـديد ومن كل حي شفينا الغليلا

وقال قصي بن كلاب :

انا ابن العاصمين[2] بني لؤي بمكـة منـزلي وبهـا ربيت
الى البطحاء قد علمت معد ومـروتها رضيت بهـا رضيت
فلست لغالب ان لم تأثل[3] بهـا اولاد قيـذر والنبيت[4]
رزاح نـاصري وبـه اسـامي فلستُ اخاف ضيماً ما حييتُ

ويذكر الطبري في تاريخه :

تزوج قصي (حبى) بنت حليل بن حبشية من خزاعة ، فولدت له اولاده الأربعة ، وكان حليل آخر من ولي البيت ، فلما ثقل جعل ولاية البيت الى ابنته حُبًى فقالت : قـد علمت أنى لا اقـدر على فتح الباب واغلاقه ، قال : فاني اجعل الفتح والاغلاق الى رجل يقوم لك به ، فجعله الى ابي غبشان .

---

(١) نخبّزهم : نسوقهم سوقا سديدا . ـ وصلاب النسور : الخيل والنسور : جمع نسر ـ وهو اللحم اليابس الذي في باطن الحافر.
(٢) العاصمين : يريد أنهم يعصمون الناس ويمنعونهم ، لكونهم اهل البيت والحرم .
(٣) يقال تأثل فلان بالمكان : أي اذا اقام به واستقر ولم يبرح.
(٤) اولاد قيدر والنبيت : يعني بهم اولاد اسماعيل (عليه السلام).

فاشترى قصي ولاية البيت منه بزق خمر وبعود[1] فلما رأت ذلك، خزاعة كثروا على قصي ، فاستنصر اخاه ، فقاتل خزاعة فبلغنا ـ والله اعلم ـ ان خزاعة اخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم ، فلما رأت ذلك جلت عن مكة ، فمنهم من وهب مسكنه ، ومنهم من باع . ومنهم من أسكن . فولي قصي البيت وامر مكة والحكم بها ، وجمع قبائل قريش فانزلهم أبطح مكة . وكان بعضهم في الشعاب ورؤ وس جبال مكة فقسم منازلهم بينهم ، فسمي مجمعاً .

وله يقول مطرود ـ وقيل : أن قائله حذافة بن غانم :

ابوكم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهر[2]

ويقول هيكل : « وذهب البعض الى أن مكةلم يكن بها بناء غير الكعبة الى أن تولى قصي امرها . ويعللون ذلك بان خزاعة وجرهماً قبلها لم يريدوا ان يكون الى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم بل يذهبون الى الحل .

ويضيف هذا البعض ان قصياً لما تم له أمر مكة جمع قريشاً وأمرهم ان يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء اهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا في امور بلدهم .

---

(١) العود ـ المسن من الابل ـ رواية شراء البيت بزق خمر وعود لم يذكرها الا بعض الرواة . ولعل قصيا لما رأى ابا غبشان وفسقه وفجوره احتال عليه بانتزاع البيت .

(٢) تاريخ الطبري ـ ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٦ .

فقد كان من عاداتهم ألا يتم أمر الا باتفاقهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل الا في هذه الدار .

وبنت قريش بامر قصي حول الكعبة دورها ، وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه الى المطاف .

وكان عبد الدار اكبر ابناء قصي ولكن اخاه عبد مناف قد تقدم عليه امام الناس وقد شرف فيه .

فلما كبر قصي وضعف بدنه ولم يبق قادراً على تولي امور مكة ، جعل الحجابة لعبد الدار وسلم اليه مفتاح البيت ، كما اعطاه السقاية ـ واللواء ـ والرفادة .

وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من اموالها فتدفعه الى قصي ليصنع منه في موسم الحج طعاماً ينال منه الحاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد .

وكان قصي اول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتزّ بهم ، واخرج واياهم خزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم : « يا معشر قريش ! انكم جيران الله واهل بيته واهل حرمه ، وان الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم احق الاضياف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً ايام الحج حتى يصدروا عنكم »[1] .

---

(١) حياة محمد ـ محمد حسين هيكل.

قصي اول ملك من كنانة

ذكر الحلبي في سيرته : « كان قصي اول رجل من بني كنانة اصاب ملكا ، ولما حضر الحج قال لقريش ، قد حضر الحج ، وقد سمعت العرب بما صنعتم وهم لكم معظمون ، ولا اعلم مكرمة عند العرب اعظم من الطعام ، فليخرج كل انسان منكم من ماله خرجا . ففعلوا فجمع من ذلك شيئاً كثيراً .

فلما جاء أوائل الحج نحر في كل طريق من طرق مكة جزوراً ، ونحر بمكة ، وجعل الثريد واللحم ، وسقى الماء المحلى بالزبيب ، وسقى اللبن . وهو أول من اوقد النار بمزدلفة ليراها الناس من عرفة ليلة النفر .

ومما يؤثر عن قصي قوله : من اكرم لئيماً أشركه في لؤمه ، ومن استحسن قبيحاً نزل الى قبحه ، ومن لم تصلحه الكرامة اصلحه الهوان ، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان ، والحسود العدو الخفي .

ولما احتضر قصي قال لاولاده : اجتنبوا الخمرة فانها لا تصلح الأبدان ، وتفسد الاذهان .

وحاز قصي شرف مكة كله ، فكان بيده السقاية ، والرفادة ،

والحجابة ، والندوة ، واللواء ، والقيادة »[1] .

جاء في طبقات ابن سعد : « فلما كبر قصي ورق ، وكان عبد الدار بكره واكبر ولده ، وكان ضعيفاً ، وكان اخوته قد شرفوا عليه ، فقال له قصي : اما والله يا بني لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك .

فاعطاه دار الندروة ، وحجابة البيت ، واللواء ، والسقاية ، والرفادة ، وخصه بذلك ليلحقه بسائر اخوته[2] .

لما مات قصي ، دفن بالحجون[3] وقد كان الناس يـزورون قبره ويعظمونه لما كان له من التقدير والاحترام في نفوسهم ولا عماله الجليلة وخدماته الكثيرة .

وقد رثته ابنته ـ مخمر ـ[4] بابيات من الشعر :

طرق النعي بعيد نوم الهجد فنعى قصياً ذا الندى والسؤدد
فنعى المهذب من لؤي كلها فانهل دمعي كالجمان المفرد
فأرقت من حزن وهم داخل ارق السليم لـوجده المتفقـد

---

(١) السيرة الحلبية ـ علي بن برهان الدين الحلبي .
(٢) الطبقات لابن سعد ـ ج ١ ـ ص ٤٣ .
(٣) الحجون جبل باعلى مكة كان اهل مكة يدفنون موتاهم فيه . فعليه مقبرة جاهلية من مقابر مكة القديمة .
(٤) ـ مخمر ـ هكذا ورد في الأصل .

عبد مناف

ذكر اليعقوبي في تاريخه : « مات قصي ودفن بالحجون ، ورأس عبد مناف بن قصي وجلَّ قدره وعظم شرفه ، ولما كبر أمر عبد مناف بن قصي جاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به ، فعقد بينهم الحلف الذي يقال له حلف الاحابيش[١] . وكان مدبِّر بني كنانة الذي سأل عبد مناف عقد الحلف ـ عمرو بن هلل بن معيص بن عامر ـ وكان تحالف الاحابيش على الركن ، يقوم رجل من قريش والآخر من الاحابيش فيضعان أيديهما على الركن فيحلفان بالله القاتل وحرمة هذا البيت والمقام ـ والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها . وعلى التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ، ما بل بحر صوفه[٢] وما قام حر أوشبير ، وما طلعت شمس من مشرقها الى يوم

(١) ـ قيل انما سُموا بالاحابيش لانهم تحالفوا في جبل حبشي الذي باسفل مكة على ستة اميال منها ، فسُموا باسم الجبل . وقال ابن اسحاق : « الاحابيش هم بنو الهون وبنو الحرث من كنانة ، وبنو المصطلق من خزاعة تحبشوا : أي تجمعوا فسُموا بذلك .

(٢) ما بل بحر صوفة ـ يريد الى الأبد . وصوف البحر : شيء على شكل الصوف الحيواني ، واحدة : صوفة . يقال : لا آتيك ما بل بحر صوفة . أو ما بل البحر صوفة . يريد لا آتيك ابداً . راجع لسان العرب مادة صوف .

القيامة ، فسمي حلف الاحابيش »[1] .

جاء في نهاية الارب قوله : « واما عبد مناف بن قصي فكنيته ابو عبد شمس ، واسمه ـ المغيرة ـ وعبد مناف لقبه[2] .

وقال المفضل : الانافة ـ الاشراف والزيادة ، وبه سُمي عبد مناف لطوله ، ومنه تقول : مائة ونيف ، أي شيء زائد على المائة .

وقال محمد بن سعد : اخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن ابيه قال : لما هلك قصي بن كلاب قام عبد مناف بن قصي على أمر قصي بعده ، وامر قريش اليه . واختط بمكة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه »[3] .

يقول ابن سعد في طبقاته : « ولَدَ عبد مناف بن قصي ستة نفر وست نسوة ، المطلب بن عبد مناف وكان اكبرهم ، وهو الذي عقد الحلف لقريش من النجاشي في متجرها الى ارضه . وهاشم بن عبد مناف ـ واسمه عمرو ـ وهو الذي عقد الحلف لقريش من هرقل لان تختلف الى الشام آمنة . وعبد شمس بن عبد مناف . وتماضر بنت عبد مناف ، وحنة ، وقلابة ، وبرَّة ، وهالة بنات عبد مناف وأُمهم عاتكة

---

(١) تاريخ اليعقوبي ـ ج ـ ١ ـ ص ٢١٢ .

(٢) تكملة يقتضيها السياق ـ وعبد مناف لقبه.

(٣) نهاية الارب في فنون الادب ـ النويري ـ ج ـ ١٦ ـ ص ٣١ ـ ٣٢ .

الكبرى بنت مرة ، ونوفل بن عبد مناف ، وهو الذي عقد الحلف لقريش من كسرى الى العراق . وابا عمرو ابن عبد مناف ، وابا عبيد درج وامهم واقدة بنت ابي عدي ، وريطة بنت عبد مناف وامها الثقفية »[1] .

وفي عبد مناف يقول الشاعر :

اذا اجتمعت يوما قريشٌ لمفخر   فعبـد مناف سـرها وصميمها

وقال آخر :

كانت قريش بيضـة فتفلقت   فـالمخ خـالصها لعبـد مناف

(١) الطبقات الكبرى ـ لابن سعد ـ ج ١ ـ ص ٤٣ .

لمحة عن حلف المطيبين ـ وحلف الاحلاف

لما كان قصي قد أعطى عبد الدار وهو اكبر اولاده دار الندوة ، والحجابة ، والسقاية ـ واللواء ، والرفادة ، ليقوي من معنوياته لأنه كان ضعيفاً من حيث الادارة وكان عبد مناف بن قصي قد سبق اخاه عبد الدار الى الذروة وشرف عليه. ولما كثر بنو عبد مناف وقلّ عدد بنو عبد الدار رأى بنو عبد مناف ان من المصلحة العامة انتزاع الحجابة وغيرها من ابناء عمومتهم لحفظ كيان قريش ، ولأنهم اقدر على ادارة الشؤون المكية واقوى على تحمل المسؤولية .

يقول الدكتور جواد علي : « ان آل عبد مناف قد كثروا ، وقل آل عبد الدار ، فارادوا انتزاع الحجابة من بني عبد الدار ، فاختلفت في ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بني عبد الدار ، وطائفة مع بني عبد مناف . فاخرجت (ام حكيم البيضاء) توأمة ابي رسول الله ، جفنة فيها طيب ، فوضعتها في الحجر ، فقالت: من كان منا فليدخل يده في هذا الطيب .

فادخلت عبد مناف أيديها ، وبنو اسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، وبنو الحارث بن فهر ، فسموا المطيبين .

فعمدت بنو سهم بن عمرو ، فنحرت جزوراً وقالوا : من كان منا ، فليدخل يده في هذه الجزور ، فادخلت أيديها عبد الدار ،

وسهم ، وجمح ، ومخزوم ، وعدي ، فسميت الاحلاف .

وقام الاسود بن حارثة بن نضلة فادخل يده في الدم ، ثم لعقها ، فلعقت بنو عدي كلها بايديها ، فسموا لعقة الدم .

ويقول الدكتور جواد علي ايضا : وتعبأوا للقتال ، ثم تداعوا الى الصلح ، على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، فرضوا بذلك ، وتحاجز الناس عن الحرب ، واقترعوا عليها ، فصارت لهاشم بن عبد مناف[١] .

---

(١) المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي .

هاشم بن عبد مناف

كان هاشم بن عبد مناف زعيم قريش في عصره تولى رئاسة مكة المكرمة بعد ابيه وكان المفضل والشريف في قومه وبلاده وقد حباه الله بمزايا عديدة وخصال حميدة كالمهابة والجلال ، والجمال ، وكرم الاخلاق ، والسخاء وحسن التدبير مع الرأي السديد . وهو الجد للهاشميين واليه ينتسبون .

ذكر ابن سعد في طبقاته : « عن ابن عباس قال : كان اسم هاشم (عمرواً) ، وكان صاحب ايلاف قريش ، وايلاف قريش[1] دأب قريش ـ . وكان اول من سنَّ الرحلتين لقريش ترحل احداهما في الشتاء الى اليمن ، والى الحبشة ، الى النجاشي فيكرمه ويحبوه .

ورحلة في الصيف الى الشام ، الى غزة ، وربما بلغ انقرة ، فيدخل على قيصر فيكرمه ويحبوه .

فاصابت قريشاً سنوات ذهبن بالاموال ، فخرج هاشم الى الشام ، فامر بخبز كثير فخُبز له ، فحمله في الغرائر على الابل ، حتى وافى مكة . فهشم ذلك الخبز ، يعني كسره وثرده . ونحر تلك الابل ،

---

(١) الايلاف يعني العهد.

ثم امر الطهاة ، فطبخوا . ثم كفأ القدور على الجفان ، فاشبع اهل مكة ، فكان ذلك اول الحيا بعد السنة التي اصابتهم فسُمِّي بذلك هاشماً »[1] .

وفي هاشم يقول الشاعر .

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف
نسبوا إليه الرحلتين كليهما عند الشتاء ورحلة الاصياف

جاء في تاريخ ابن الاثير : « ان عبد شمس وهاشماً توأمان ، وأن احدهما ولد قبل الآخر ، واصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه ، فنُحيت فسال الدم ، فقيل : يكون بينهما دم .

وولي هاشم بعد ابيه عبد مناف ما كان اليه من السقاية والرفادة ، فحسده أُمية بن عبد شمس على رئاسته واطعامه . فتكلف أن يصنع صنيع هاشم ، فعجز عنه ، فشمتت به ناس من قريش ، فغضب ونال من هاشم ، ودعاه الى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لسنّه وقدره ، فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضي أُمية . وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وهو جد عمرو بن الحمق ومنزله بعسفان[2] .

---

(١) طبقات ابن سعد ـ ج ١ ـ ص ٤٣ .
(٢) اقول ان ما فعله معاوية مع عمر بن الحمق الخزاعي ، وقتله اياه ما هو الا انتقاما منه لان جده الكاهن الخزاعي كان قد حكم لهاشم بالرئاسة ، وحكم على امية بالنفي الى الشام لمدة عشر سنوات وسيأتي الكلام عنه .

وكان مع أُمية همهمة بن عبد العزى الفهري ، وكانت ابنته عند أُمية ، فقال الكاهن : والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أُمية الى المآثر ، أول منه وآخر ، وابو همهمة بذلك خابر . فقضى لهاشم بالغلبة . واخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها ، وغاب أُمية عن مكة بالشام عشر سنين[1] .

فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأُمية . وكان يقال لهاشم والمطلب[2] البدران . لجمالهما »[3] .

نبذة من مآثر هاشم بن عبد مناف

يقول اليعقوبي : « شرف هاشم بعد ابيه وجلَّ أمره ، واصطلحت قريش على أن يولى هاشم بن عبد مناف الرآسة ، والسقاية ، والرفادة ، فكان اذا حضر الحج قام في قريش خطيباً فقال : (يا معشر قريش انكم جيران الله واهل بيته الحرام ، وانه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم اضياف الله ، واحق الضيف بالكرامة

---

(١) كان مقام أُمية في سنين النفي ـ او الجلاء بصفورية : كعمورية بلدة من الاردن . بذلك العهد.

(٢) هاشم اكبر ولد عبد مناف والمطلب اصغرهم .

(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الاثير ـ ج ٢ ـ ص ١٠ .

ضيفه ، وقد خيركم الله بذلك واكرمكم به ، ثم حفظ منكم افضل ما حفظ جار من جاره ، فاكرموا ضيفه وزواره فانهم يأتون شعثاً ، غبراً ، من كل بلد على ضوامر كالقداح وقد أعيوا ، وتفّلوا[1] وقملوا وأرملوا ، فاقروهم وأغنوهم) .

فكانت قريش ترافد على ذلك ، وكان هاشم يخرج مالاً كثيراً ويأمر بحياض من أدم فتجعل في موضع زمزم ، ثم يسقى فيها من الآبار التي بمكة فيشرب منها الحاج . وكان يطعمهم بمكة ، ومنى ، وعرفة ، وجمع ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن ، والسويق ، ويحمل لهم المياه حتى يتفرق الناس الى بلادهم ، فسُمي هاشماً .

وكان أول من سن الرحلتين ، رحلة الشتاء الى الشام ، ورحلة الصيف الى الحبشة الى النجاشي ، وذلك ان تجارة قريش لا تعدوا مكة ، فكانوا في ضيق حتى ركب هاشم الى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح في كل يوم شاة ويضع جفنة بين يديه ويدعو من حواليه . وكان من احسن الناس واجملهم ، فذكر لقيصر فارسل اليه . فلما رآه وسمع كلامه أعجبه وجعل يرسل اليه . فقال هاشم : أيها الملك لي قوم وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجارتهم ، حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز ، وثيابه . ففعل قيصر ذلك .

وانصرف هاشم فجعل كلما مر بحي من العرب اخذ من اشرافهم الايلاف ، ان يأمنوا عندهم وفي أرضهم . فاخذ الايلاف من

---

(١) يقال تفل الرجل ـ انتن ريحه لترك الطيب والادهان .

مكة والشام قال الاسود بن شعر الكلبي : كنت عسيفاً لعقيلة من عقائل الحي أركب الصبة والذلول لا اليق مطرحا من البلاد ارتجي فيه ربحا من الاموال ان لا يرغب اليه من الشام بخرثيه[1] واثاثه اريد كبة[2] العرب ، فعدت ودهم الموسم فدفعت اليها مسدفا فحبست الركاب حتى انجلى عني قميص الليل ، واذا جُزر تنحروا واخرى تساق ،واكلة وحسة على الطهاة . . . ألا عجلوا . فبهرني ما رأيت فتقدمت اريد عميدهم ، وعرف رجل شأني فقال : أمامك ـ فدنوت فاذا رجل على عرش سام تحته نمرقة ، قد كار عمامة سوداء واخرج من ملاثمها جمة فينانة[3] كأن الشعرى تطلع من جبينه وفي يده مخصرة وحوله مشيخة جلة منكسوا الاذقان ما منهم احد يفيض بكلمة ، ودونهم خدم مشمرون الى انصاف . واذا برجل مجهر على نشز من الأرض ينادي : يا وفد الله هلموا الى الغداء . وانسيان على طريق من طُعم يناديان : يا وفد الله من تغدى فليرجع الى العشاء . وقد نمي الي من حبر من احباراليهود ان النبي الامي هذا أو ان توكفه ، فقلت لا اعرف ماعنده: يا نبي الله ، فقال : مه وكان وقد له[4] فقلت لرجل كان الى جانبي من هذا ؟ فقال : ابو نضلة هاشم بن عبد مناف : فخرجت وانا اقول : هذا والله المجد لا مجد آل جفنة .

---

(١) الخرثه بضم الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة : أراداً المتاع وسقطه .
(٢) الكبة بفتح الكاف وتشديد الباء الموحدة : الجماعة من الناس.
(٣) الجمة بضم الجيم وتشديد الميم : مجتمع شعر الرأس . وفينانة طويله حسنة .
(٤) هكذا ورد في الأصل .

ومر مطرود بن كعب الخزاعي برجل مجاور في بني هاشم ، وبنات له وامرأة في سنة شديدة ، فخرج يحمل متاعه ورحله هو ولده ، وامرأته . لا يأويه احد . فقال مطرود الخزاعي :

يا ايها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك امك لوحللت بدارهم ضمنوك من جوع ومن اقراف
عمرو العلاء هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
نسبوا اليه الـرحلتين كليهـما عند الشتاء ورحلة الاصياف
الآخـذون العهد في افـاقهـا والـراحلون لـرحلة الايـلاف

وخرج هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام فجعل يمر باشراف العرب فيحمل لهم التجارات ولا يلزمهم لها مؤنة »[1] .

لقد كان هاشم عـلاوة على جلالة قدره وسخائه واطعامه الطعام للمحوجين والجائعين كما أسلفنا فقد قبض على ناصية التجارة ، وأمن طرق القوافل التجارية لأهل مكة حتى كانت تغدو الى الشام في الشتاء ، والى اليمن في الصيف مطمئنة على تجارتها وآمنة على حياتها .

وقد قام هاشم ايضاً زيادة على الادارة السياسية في قومه بمشاريع جليلة أهمها تأمين المياه للحاج لأنها كانت قليلة في مكة فحفر بئر (سجلة) وهي البئر التي يقال لها (بئر جبير بن مطعم)

.وفي هاشم يقول الشاعر :

---

(١) تاريخ اليعقوبي - ج ١ - ٢١٣ - ٢١٤ .

تحمل هاشم ما ضاق عنه   وأعيا أن يقوم به ابن بيض
اتـاهم بـالغـرائـر متـأقـاتٍ   من ارض الشام بالبر النفيض
فأوسع اهل مكة من هشيم   وشاب الخبز باللحم الفريض
فـظل القـوم بـين مكللات   من الشيزى وحائرها يفيض[1]

خبر زواج هاشم ـ ووفاته

ذكر ابن سعد في طبقاته : « كان هاشم رجلا شريفاً وهو الذي اخذ الحلف لقريش من قيصر ، وأما من على الطريق فالفهم على ان تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على اهل الطريق . فكتب له قيصر كتاباً وكتب الى النجاشي أن يدخل قريشاً ارضه وكانوا تجاراً . فخرج هاشم في عير لقريش فيها تجارات وكان طريقهم على المدينة ، فنزلوا بسوق النبط ، فصادفوا سوقاً تقوم فيها في السنة يحشدون لها . فباعوا واشتروا ، ونظروا الى امرأة على موضع مشرف من السوق فرأى إمرأة تأمر بما يشتري ويباع لها ، فرأى امرأة حازمة جلدة مع جمال ، فسأل هاشم عنها ، أأيِّم هي ام ذات زوج ؟ فقيل له أيِّم ، كانت تحت أُحيحة بن الجلاح ، فولدت له عمراً ومعبداً ثم فارقها . وكانت لا تنكح الرجال لشرفها في قومها حتى يشرطوا لها ان أمرها بيدها فاذا كرهت رجلاً فارقته . وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار .

---

(١) هكذا وردت في الاصل . والظاهر ـ بفيض

فخطبها هاشم فعرفت شرفه ونسبه ، فزوجته نفسها . ودخل بها وصنع طعاماً ، ودعا من هناك من اصحاب العير الذين كانوا معه ، وكانوا اربعين رجلاً من قريش فيهم رجالٌ من بني عبد مناف ، ومخزوم ، وسهم . ودعا من الخزرج رجالاً واقام باصحابه اياماً .

وعلقت سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شيبة فسمي (شيبة) .

وخرج هاشم في اصحابه الى الشام حتى بلغ غزة ، فاشتكى ، فاقاموا عليه حتى مات ، فدفنوه بغزة ورجعوا بتركته الى ولده .

وذكر ابن سعد ايضاً : اوصى هاشم بن عبد مناف الى اخيه المطلب بن عبد مناف ـ فبنوا هاشم ، وبنو المطلب يد واحدة الى اليوم .

وبنو عبد شمس ، وبنو نوفل ، ابناء عبد مناف يد واحدة الى اليوم .

وولد هاشم بن عبد مناف اربعة نفر ، وخمس نسوة . شيبة الحمد وهو عبد المطلب وكان سيد قريش حتى هلك ، وابا صيفي واسمه عمرو ، واسد بن هاشم ، ونضلة بن هاشم . والشفاء بنت هاشم ، وقبة، وخالدة ، والضعيفة ، وحنة »[1] .

ولما توفي هاشم رثاه ولده باشعار كثيرة . منها : ابنته خالدة حيث تقول :

---

(١) الطبقات ـ لابن سعد ـ ج١ ـ ص ٤٧ .

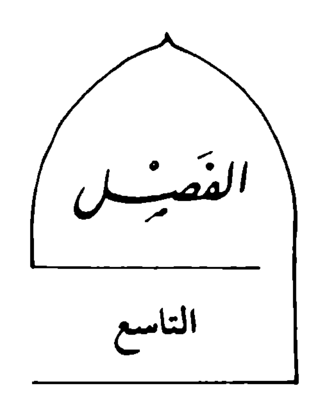
بكر النعيُّ بخير من وطيء الحصى ذي المكرمات وذي الفعال الفاضل
بالسيد الغمرالسميدع ذي النهى ماضي العزيمة غير نكس واغل
زين العشيرة كلها وربيعها في المطبقات وفي الزمان الماحل
باخي المكارم والفواضل والعلى عمرو بن عبد مناف غير الباطل
ان المهذب من لؤي كلها بالشام بين صفائح وجنادل
فابكي عليه ما بقيت بعولة فلقد رزئت اخاندى وفواضل
ولقد رزئت قريع فهر كلها ورئيسها في كل امر شامل

ورثته الشفاء ابنته ايضاً :

عين جودي بعبرة وسجوم واسفحي الدمع للجواد الكريم
عين واستعبري وسحي وجمي لابيك المسود المعلوم
هاشم الخير ذي الجلالة والمجـ ـد وذي الباع والندى والصميم
وربيع للمجدبين وحرز ولزاز لكل امر عظيم
شِمّري نماه للعز صقر شامخ البيت من سراة الاديم
شيظمي[1] مهذب ذي فضول أريحي مثل القناة وسيم
غالبي سميدع أحوذي باسق المجد مضرحي[2] حليم
صادق الناس في المواطن شهم ماجد الجد غير نكس ذميم[3]

---

(١) هكذا وردت في الأصل .
(٢) هكذا وردت في الأصل .
(٣) راجع طبقات ابن سعد ـ منشورات مؤسسة النصر ـ طهران .



الفصل التاسع

عبد المطلب بن هاشم ـ وما رافقه من احداث

يحدثنا التاريخ أن جد النبي الاعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو عبد المطلب ، واسمه (شيبة) وكنيته ابو الحارث ، وابو البطحاء ، وأمه سلمى بنت عمرو بن زيد ، وفي بعض الروايات ، سلمى بنت زيد بن عمرو .

كان عبد المطلب رجلاً حازماً سيداً في قومه ، وكان شجاعاً مقداماً . قضى في رئاسة قريش فكان السيد المطاع ، المسموع الكلمة ، المهاب الجانب . وكان يسمى الفيض لجوده وكرمه وكان جسيماً ابيض وسيما طُوالا فصيحا ما رآه احد قط إلا أحبه .

ويروي لنا اهل الاخبار أنه كان يستسقى بوجهه الغمام كما سيأتي . وهو الذي كفل النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد موت ابيه عبد الله . وقد جرت لعبد المطلب حوادث كثيرة كحفر بئر زمزم . . . وقصته مع ابرهة صاحب الفيل الى غيرهما من الحوادث التي سنوردها . وروى اهل التاريخ واصحاب السير سبب تسمية (شيبة الحمد)بـ (عبد المطلب) روايات كثيرة ، وباوجه عديدة من جملتها ما جاء عن ابن سعد في طبقاته .

« قدم ثابت بن المنذر بن حرام وهو ابو حسان بن ثابت الشاعر مكة معتمراً فلقي المطلب وكان له خليلا ، وكان المطلب قد تولى بعد

هاشم السقاية والرفادة . فقال له ثابت : لو رأيت ابن اخيك شيبة فينا ، لرأيت جمالاً وهيبة ، وشرفاً . لقد نظرت اليه وهو يناضل[1] فتياناً من اخواله ، فيدخل مرماتيه[2] جميعاً في مثل راحتي هذه ، ويقول كلما خسق[3] انا ابن عمرو العلى . فقال المطلب : لا أمسي حتى اخرج اليه فاقدم به .

فقال ثابت : ما أرى سلمى تدفعه اليك ، ولا أخواله . . . . هم اظن به من ذلك . وما عليك أن تدعه فيكون في اخواله ، حتى يكون هو الذي يقدم عليك ، الى ما ها ههنا راغباً فيك .

فقال المطلب : يا ابا اوس ما كنت لادعه هناك ويترك مآثر قومه ونسبه ، وشرفه في قومه ما قد علمت .

فخرج المطلب ، فورد المدينة ، فنزل في ناحية ، وجعل يسأل عنه حتى وجده يرمي في فتيان من اخواله .

فلما رآه عرف شبه ابيه فيه ، ففاضت عيناه ، وضمه إليه ، وكساه حلة يمانية وانشأ يقول :

عرفت شيبة والنجار قد حفلت ابناؤها حوله بالنبل تنتضل[4]
عرفت اجلاده[5] منا وشيمته ففاض مني عليه وابل سبل

---

(١) يناضل فتياناً : يباريهم في الرمي .
(٢) المرماتان : ـ سهمان يرمي بهما الرامي فيحرز سبقه .
(٣) خسق السهم : ـ اصاب الغرض.
(٤) ينتضلون : اي يستبقون في رمي الاغراض بالسهام .
(٥) اجلاد الانسان : جماعة شخصه ، ومن كلامهم ما اشبه اجلاده باجلاد ابيه اي شخصه وجسمه .

فارسلت سلمى الى المطلب ، فدعته الى النزول عليها ، فقال : شأني اخف من ذلك ، ما اريد أن أحلَّ عقدة حتى اقبض ابن اخي والحقه ببلده وقومه . فقالت : لست بمرسلته معك ، وغلظت عليه . فال المطلب لا تفعلي فاني غير منصرف حتى اخرج به معي . . . ابن اخي قد بلغ ، وهو غريب في غير قومه . ونحن اهل بيت شرف قومنا . والمقام ببلده خير له من المقام ها هنا وهو ابنك حيث كان . فلما رأت انه غير مقصر حتى يخرج به ، استنظرته ثلاثة أيام . وتحول اليهم فنزل عندهم فاقام ثلاثاً ثم احتمله وانطلقا جميعاً .

ودخل به المطلب مكة ظهرا ، فقالت قريش هذا عبد المطلب .

فقال : ويحكم انما هو ابن اخي شيبة بن عمرو .

فلم يزل عبد المطلب مقيماً بمكة حتى ادرك .

وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً الى ارض اليمن فهلك بردمان من ارض اليمن . فولي عبد المطلب بن هاشم بعده الرفادة ، والسقاية .

فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم في حياض من ادم بمكة ، فلما سُقي زمزم ترك السقي في الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها وكان يحمل الماء من زمزم الى عرفة فيسقيهم »[١] .

---

(١) طبقات ابن سعد ـ ج ١ ، ص ٤٩ .

قصة حفر بئر زمزم

جاء في سيرة ابن هشام في حديث رفع الى علي بن ابي طالب (عليه السلام) في قصة حفر بئر زمزم . قال ابن اسحاق : قال :

« قال عبد المطلب : اني لنائم في الحجر اذ أتاني آتٍ فقال : احفر طيبة[١] قال : قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عني . فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه ،فجاءني فقال احفر برة[٢] . قال : فقلت : وما برة ؟ قال : ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر المضنونة[٣] . قال : فقلت : وما المضنونة ؟ قال : ثم ذهب عني . فلما كان الغد رجعت الى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر زمزم .

قال : قلت : وما زمزم قال : لا تنزف[٤] ابداً ولا تذم[٥] ، تسقي الحجيج الاعظم ، وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الاعصم[٦] عند قرية النمل[٧] .

---

(١) قيل لزمزم طيبة ، لانها للطيبين والطيبات من ولد ابراهيم .
(٢) قيل لها برة ، لانها فاضت على الابرار ، وغاضت عن الفجار .
(٣) قيل لها مضنونة ، لانها ضُن بها على غير المؤمنين فلا يتضلع منها منافق .
(٤) لا تنزف : اي لا يفرغ ماؤها ولا يلحق قعرها .
(٥) لا تذم : أي لا توجد قليلة الماء ، تقول : أذمت البئر : اذا وجدتها قليلة الماء .
(٦) الاعصم من الغربان: الذي في جناحيه بياض ، وقيل غير ذلك .
(٧) اقول : انما خصت بهذه العلامات الثلاث لمعنى زمزم ومائها . فاما الفرث=

قال ابن اسحاق فلما بين له شأنها ، ودل على موضعها ، وعرف أنه قد صُدق ، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، ليس له يومئذٍ ولد غيره ، فحفر فيها .

فلما بدا لعبد المطلب الطي[1] كبر ، فعرفت قريش أنه قد ادرك حاجته ، فقاموا إليه وقالوا : يا عبد المطلب ، انها بئر ابينا اسماعيل ، وان لنا فيها حقاً فاشركنا معك فيها ، قال : ما أنا بفاعل ، ان هذا الامر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم . فقالوا له : فانصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم احاكمكم اليه .

قالوا : كاهنة بني سعد هذيم[2] قال : نعم .

قال : وكانت باشراف الشام[3] . فركب عبد المطلب ومعه نفر من

= والدم ، فان ماءها طعام طعم ، وشفاء سقم ، واما عن الغراب الاعصم . . . ففيه اشارة الى ما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم : « ليخربن الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » . واما قرية النمل ، ففيها من المشاكلة ايضاً والمناسبة ان زمزم هي عين مكة التي يردها الحجيج والعمار من كل جانب ، فيحملون اليها البر والشعير ، وغير ذلك ، وهي لا تحرث ولا تزرع ، وقرية النمل كذلك لا تحرث ولا تبذر وتجلب الحبوب الى قريتها من كل جانب . (راجع شرح سيرة ابن هشام) .

(١) الطي الحجارة التي طوي بها البئر .

(٢) هُذَيم وفي سائر الاصول سعد بن هذيم وهو تحريف « لأن هذيماً لم يكن اباه وانما كفله بعد ابيه فاضيف اليه . راجع السيرة ابن هشام ـ

(٣) اشراف الشام : أي ما ارتفع من ارضه .

بني ابيه من بني عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر . قال : والأرض اذ ذاك مفاوز قال : فخرجوا حتى اذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فني ماء عبد المطلب وأصحابه . فظمئوا حتى ايقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فابوا عليهم ، وقالوا : إنا بمفازة ، ونحن نخشى على انفسنا مثل ما اصابكم .

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه واصحابه ، قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأينا الا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت، قال: فاني أرى ان يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه اصحابه في حفرته ثم واروه . حتى يكون آخركم رجلاً واحدا ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً . قالوا : نعم ما امرت به .

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا ، ثم ان عبد المطلب قال لأصحابه : والله ان القاءنا بايدينا هكذا للموت ، لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا ، لعجز ، فعسى الله ان يرزقنا ماء ببعض البلاد ، إرتحلوا ، فارتحلوا . حتى اذا فرغوا . ومن معهم من قبائل قريش ينظرون اليهم ما هم فاعلون ، تقدم عبد المطلب الى راحلته فركبها . فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر اصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب اصحابه واستقوا حتى ملأوا اسقيتهم ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلم الى الماء ، فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا ، فجاءوا فشربوا واستقوا ثم قالوا : قد والله قضي لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا

نخاصمك في زمزم ابداً ، ان الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم . فارجع الى سقايتك راشداً . فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا الى الكاهنة وخلوا بينه وبينها .

قال ابن اسحاق : فهذا الذي بلغني من حديث علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) في زمزم ، وقد سمعت من يحدث عن عبد المطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم :

ثم ادع بالماء الروي[١] غير الكدر يسقي حجيج الله في كل مبر[٢]
ليس يخاف منه شيء ما عمر[٣]

فخرج عبد المطلب ، حين قيل له ذلك ، الى قريش فقال : تعلموا أني قد امرت ان احفر لكم زمزم . فقالوا : فهل بين لك اين هي ؟ قال : لا ، قالوا : فارجع الى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت ، فان يك حقاً من الله يبين لك ، وان يك من الشيطان فلن يعود اليك .

فرجع عبد المطلب الى مضجعه فنام فيه ،فاتي فقيل له : احفر زمزم انك ان حفرتها لم تندم ، وهي تراث من ابيك الاعظم ، لا تنزف ابداً ولا تذم ، تسقي الحجيج الاعظم ، مثل نعام جافل [٤] لم يقسم ، ينذر

---

(١) الروي بمعنى رواء ـ وهما بمعنى . فيقال : ماء روي ماء روي بالكسر والقصر ورواء بالفتح والمد : اي كثير.
(٢) مبر : يريد مناسك الحجج ومواضع الطاعة ، وهو مفعل من البر.
(٣) عمر : بقي ، أي ما عمر هذا الماء فانه لا يؤذي ولا يخاف منه .
(٤) الجافل : أي الكثير.

فيها ناذر لمنعم ، تكون ميراثاً وعقداً محكم ، ليست كبعض ما قد تعلم ، وهي بين الفرث والدم[1] .

قال ابن اسحاق : فزعموا أنه قيل له ذلك ، قال : وأين هي ؟ قيل له : عند قرية النمل ، حيث ينقر الغراب غدا . فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين : اساف ـ ونائلة ـ اللذين كانت تذبح قريش عندهما ذبائحها. فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث امر، فقامت اليه قريش حين رأوا جده فقالوا : والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

اقول : لقد غضبت قريش على عبد المطلب خوفاً على صنميها من الهدم والتلف ، والتحقير والاستهزاء . لأن عبد المطلب لم يكن يحترم الاصنام أو يعظمها كما كانت تفعل قريش . (فهو يعبد الله على دين جده ابراهيم الخليل (عليه السلام) وليس من المشركين . لذلك نراه مضى لأمر الله تعالى غير مبال لغضب قريش واستنكارها) .

يقول ابن هشام : فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذد عني حتى احفر ، فوالله لامضين لما أُمرت به . فلما عرفوا انه غير نازع[2] خلوا

---

(١) قال ابن هشام : هذا الكلام والكلام الذي قبله من حديث علي (رضوان الله عليه) في حفر زمزم من قوله : « لا تنزف ابداً ولا تذم » الى قوله : « عند قرية النمل » عندنا سجع وليس شعراً.

(٢) يقال : نزع عن الامر نزوعاً ـ اذا كف وانتهى.

بينه وبين الحفر وكفوا عنه ، فلم يحفر الا يسيراً حتى بدا له الطي فكبر وعرف انه صُدق .

فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب ، وهما الغزالان اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها اسيافا قلعية[1] وادراعا » .

قصة نذر عبد المطلب

ذكر الطبري في تاريخه : « قال : عبد المطلب بن هاشم ـ فيما يذكرون والله اعلم ـ قد نذر حين لقي من قريش في حفر زمزم ما لقي : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن احدهم لله عند الكعبة .

فلما توافى له بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعوه، جمعهم ثم اخبرهم بنذره الذي نذر ، ودعاهم الى الوفاء لله بذلك ، فاطاعوه .

ويقول الطبري أيضاً : ان امرأة نذرت ان تنحر ابنها عند الكعبة في أمر ان فعلته ، ففعلت ذلك الأمر ، فقدمت المدينة لتستفتي عن نذرها ، فجاءت عبد الله بن عمر ، فقال لها عبد الله بن عمر : لا اعلم

---

(١) قلعية : نسبة الى القلعة : قيل جبل بالشام . وقيل هي قلعة عظيمة في بلاد الهند من جهة الصين ، وفي هذه القلعة تضرب السيوف القلعية . وهي الهندية العتيقة .

الله امر في النذر الا الوفاء به ،فقالت المرأة : افأنحر ابني ؟ قال ابن عمر : قد نهاكم الله ان تقتلوا انفسكم ، فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك .

فجاءت عبد الله بن عباس فاستفته ، فقال : امر الله بوفاء النذر (والنذر دين) ، ونهاكم ان تقتلوا أنفسكم ـ وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر ان توافى له عشرة رهط ، ان ينحر أحدهم فلما توافى له عشرة ، اقرع بينهم . أيهم ينحر ؟ فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب ، وكان احب الناس الى عبد المطلب ، فقال عبد المطلب : اللهم هو او مائة من الابل ، ثم اقرع بينه وبين الابل ، فطارت القرعة على المائة من الابل .

فقال ابن عباس للمرأة : فارى ان تنحري مائة من الابل مكان ابنك »[1] .

قصة زواج عبد الله والد النبي (محمد صلى الله عليه وآله وسلم)

سبق منا القول في ذكر قصة فداء عبد الله بمائة من الابل ، وذلك انه حينما فداه بها ابوه عبد المطلب ليفي بنذر كان قد نذره .

فيا لعظمة الحق وجلال الايمان الذي كان يتجلى في عبد المطلب وولده عبد الله (ذرية بعضها من بعض) عندما نحر تلك الابل راضياً مرضياً ، وتركها لا يصد عنها انسانا ولا حيوانا .

لقد كان عبد الله احب اولاد عبد المطلب اليه ، واعزهم عليه ،

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٣٩، ٢٤٠ .

لأنه كان علاوة على ما يتحلى به من الاخلاق الحميدة ، والخصال المجيدة ، له هيبة وجمال ، وطلعة بهية ، وسمات روحانية . وكيف لا ، وقد اعده الله سبحانه وتعالى ليكون اباً لأكرم مولود ، واعظم نبي خاتم الرسل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . وتلك في عبد الله ملكة قدسية ، وارادة سماوية ، وهبة من الله سبحانه يهبها لمن يشاء من عباده الصالحين .

جاء في تاريخ ابن الاثير قوله : « لما فرغ عبد المطلب من الابل ، انصرف بابنه عبد الله وهو آخذ بيده ، فمرَّ على ام قتال ابنة نوفل ابن اسد اخت ورقة بن نوفل وهي عند البيت ، فقالت له : حين نظرت اليه والى وجهه : اين تذهب يا عبد الله ؟ فقال : مع ابي . قالت : لك عندي مثل الذي نحر عنك ابوك من الابل ، وقع علي الآن ، قال : ان معي ابي لا استطيع خلافه ، ولا فراقه . وقد كانت ام قتال تسمع من اخيها ورقة بن نوفل انه كائن بهذه الأمة نبي من بني اسماعيل .

فخرج عبد المطلب بابنه عبد الله حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ـ وهو سيد بني زهرة ـ فزوجه ابنته آمنة بنت وهب . فدخل عبد الله عليها حين ملكها مكانها ، فوقع عليها فحملت بسيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وقيل ان عبد المطلب خرج بابنه عبد الله ليزوجه ، فمر به على كاهنة من خشعم يقال لها فاطمة بنت مر مشهورة[١] من اهل تبالة[٢]

---

(١) في الاصول ـ مشهورة ـ أي كاهنة لها شهرة .

(٢) بلدة باليمن .

فرأت في وجهه نـورا ، وقالت لـه : يا فتى هل لك ان تقع علي الآن واعطيك مائة من الابل؟ فقال لها :

اما الحرام فالممات دونه والحل لاحل فاستبينه
فكيف بالامر الذي تبغينه؟ يحمي الكريم عرضه ودينه

ثم قال لها : انا مع ابي ولا اقدر ان افارقه ، فمضى ، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة . فاقام عندها ثلاثاً »[1] .

روى ابن سعد في طبقاته : « كان عبد المطلب اذا ورد اليمن نزل على عظيم من عظماء حمير ، فنزل عليه مرة ، فوجد عنده رجلا من اهل اليمن ، قد امهل له في العمر ، وقد قرأ الكتب . فقال له :يا عبد المطلب تأذن لي ان افتش مكاناً منك ؟ قال : ليس كل مكان مني آذن لك في تفتيشه .

قال انما هو منخريك[2] . قال : فدونك . .

قال : فنظر الى يار وهو الشعر في منخريه ، فقال : أرى نبوة ـ وارى ملكاً ، وارى احدهما في بني زهرة .

فرجع عبد المطلب ، فتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وزوج ابنه عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فولدت محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) فجعل الله في بني عبد

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الاثير، ج٢ ص ٤ .
(٢) كذا ورد في الاصل .

المطلب النبوة والخلافة والله اعلم حيث وضع ذلك[1] .

وفاة عبد الله بن عبد المطلب

عن طبقات ابن سعد ايضاً قال: «خرج عبد الله بن عبد المطلب الى الشام ، الى غزة ، في عير من عيرات قريش ، يحملون تجارات . ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا . فمروا بالمدينة ، وعبد الله بن عبد المطلب يومئذٍ مريض ، قال : انا اتخلف عند اخوالي بني عدي بن النجار . فاقام عندهم مريضاً شهـراً . ومضى اصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن عبد الله فقالوا : خلفناه عند اخواله بني عدي بن النجار ، وهو مريض .

فبعث اليه عبد المطلب اكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة ، وهو رجل من بني عدي بن النجار . واخبره اخواله بمرضه ، وبقيامهم عليه ، وماولوا من أمره . وأنهم قبروه .

فرجع الحارث الى ابيـه فاخبره، فوجد عليه عبد المـطلب، واخوته ، واخواته وجداً شديداً . ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يومئذٍ حمل . ولعبد الله يوم توفي خمس وعشرون سنة وقالت آمنة ترثي زوجها عبد الله بن عبد المطلب .

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم وجاور لحداً خارجاً في الغماغم
دعتـه المنايـا دعوة فـاجـابهـا وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

---

(١) طبقات ابن سعد ـ ج ١، ص ٥١ .

عشية راحوا يحملون سـريره تعاوره اصحابـه في التزاحم
فان يك غالته المنايا وريبها فقد كان معطاءً كثير التراحم[1]

الاستسقاء بوجه عبد المطلب

سبق منا الكلام في ذكر سيد قريش عبد المطلب بن هاشم ، وقصة حفره لبئر زمزم ، وما رافق ذلك من احداث . وقصة نذره وفداء ولده عبد الله بمائة من الابل .

ويذكر اهل الاخبار : ان عبد المطلب كان ذاهبية وجمال ، مع روحانية وجلال . اذا استجار به احد اجاره ، واذا دعا الله سبحانه وتعالى في حاجة استجاب دعاءه . وكان يسـقىٰ بوجهه الغمام .

روى ابن سعد في طبقاته أنه « تتابعت على قريش سنون ذهبن بالاموال ، واشفين على الانفس ، فقالت رقيقة بنت ابي صيفي ابن هاشم وكانت لدة عبد المطلب ، سمعت قائلا يقول في المنام ، يا معشر قريش ، ان هذا النبي المبعوث منكم ، وهذا ابّان خروجه ، وبه يأتيكم الحياة والخصب ، فانظروا رجلا من اوسطكم نسبا ، طوالا عظاما ، ابيض ، مقرون الحاجبين ، اهدب الاشفار ، جعداً ، سهل الخدين ، رقيق العرنين ، فليخرج هو وجميع ولده ، وليخرج منكم من كل بطن رجل ، فتطهروا وتطيبوا ، ثم استلموا الركن ، ثم ارقوا رأس ابي قبيس ، ثم يتـقـدم هذا الرجل فيستسقي ، وتؤمنون ، فانكم ستسقون .

---

(١) عن طبقات ابن سعد ، ج ١ ، ص٦١ ، ٦٢ .

فاصبحت فقصت رؤياها عليهم ، فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب . فاجتمعوا اليه وخرج من كل بطن منهم رجل ، ففعلوا ما امرتهم به ، ثم علوا على ابي قبيس . (ومعهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو غلام) .

فتقدم عبد المطلب وقال : اللهم هؤلاء عبيدك ، وبنو عبيدك ، واماؤك ، وبنات امائك ، وقد نزل بنا ما ترى وتتابعت علينا هذه السنون ، فذهبت بالظلف والخف ، واشفت على الانفس فاذهب عنّا الجدب ، وأتنا بالحيا والخصب . فما برحوا حتى سالت الأودية .

فقالت رقيقة بنت ابي صيفي بن هاشم بن عبد مناف :

بشيبة الحمد اسقى الله بلدتنا وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر[1]
فجاد بالماء جونيٌ[2] له سبل دان فعاشت به الانعام والشجر
منا من الله بالميمون طائره وخير من بشِّرت يوماً به مضر
مبارك الأمر يستسقى الغمام به ما في الانام له عدل ولا خطر[3]

استسقاء عبد المطلب لبني قيس عيلان وغيرهم

يروي اهل التاريخ واصحاب السير : ان بني قيس عيلان[4] وهذيل ، ومن معهم ، استسقوا بعبد المطلب بن هاشم ، فسقاهم الله

(١) اجلوذ : اجلواذاً ـ طال وامتد ـ والمطر امتد وقت تأخره .
(٢) الجون وهو من الالوان ـ ويقع على الاسود والابيض وقيل : الياء للمبالغة كما يقال في الاحمر أحمري .
(٣) عن طبقات ـ ابن سعد ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .
(٤) وفي رواية ـ غيلان.

واخضرت ارضهم ، وكثرت مياههم ، بعد ان اصابتهم سنة قحط شديد واجدبت أرضهم .

جاء في نهاية الأرب : « انه قحطت بلاد قيس عيلان ، واجدبت . فلم تصبهم سماء يعقد بها الثرى ، ولا ينبت بها الكلأ ، فذهب الشحم ، وذهب اللحم ، وتهافتوا ضراً وهزلاً .

فاجتمعوا للمشورة ، واجالة الرأي ، وقد عزموا على الرحلة وانتجاع البلاد ، فقالت فرقة منهم : انتجعوا بلاد سعد وبطن العشر[١] .

وقالت فرقة اخرى : ان تميماً عدد كثير ، لا يفضل منهم ما يكفيكم . وقالت فرقة اخرى : لينتجع كل ولدِ أب منكم ولدَ أب من غيركم ، واعقدوا معهم حلفاً تشركونهم به في ربعهم[٢] .

فقام رجل حسن الوجه ، مجتمع الخلق ، جيد الرأي ، فقال : يا بني عيلان[٣] انكم قد اصبحتم في امر ليس بالهزل . هذا أمر عظيم خطره ، متباعد أمره ، قد بلغنا ان عبد المطلب بن هاشم ، سيد البطحاء ، استسقى فسقي ، ودعا فاجيب ، واستجير به فاجار ، فاجعلوا قصدكم اليه ، ووفادتكم عليه ،فان ذلك أوكد للسبب ، واوجه في الطلب .

---

(١) بطن العشر : بضم ففتح العشر ـ شعب لهذيل قرب مكة ، وقيل واد في ديار تميم ، بين البصرة ومكة .

(٢) الربع ـ المنزل ـ وفي رواية غيرها ـ ريعهم .

(٣) عيلان : في الاصل ـ غيلان ـ بالمعجمة ، تصحيف .

قالوا : أحسن الرأي ، فرحلت قيس وهذيل ومن دنا منهم حتى اتوا عبد المطلب ، فقالوا : افلح الوجه ابا الحارث ! نحن ذووا ارحامك الواشجات[1] اصابتنا سنون مجدبات ، اهزلن السمين وانفذن[2] المعين ، وقد بلغنا خبرك ، وبان لنا امرك ، وكلاما نحو هذا .

فقال عبد المطلب : موعدكم جبل عرفات ، ثم خرج في بنيه ، حتى اتى جبل عرفات ، فصعد الجبل فقال :

« اللهم رب الريح العاصف ، والرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، منشيء السحاب ، ومالك الرقاب ، ذي المنن العظام ، والايادي الجسام ، هذه مضر خيرالبشر ، تشكو سوء الحال ، وشدة الامحال ، قد احدودبت ، ظهورها ، وغارت عيونها ، وشعثت شعورها ، وقد خلفوا نساءً ظلّعا[3] وصبياناً رضّعاً ، وبهائم رتعا ، فأتهم اللهم ريحاً جرارة ، وسحاباً درارة ، تضحك ارضهم وتكشف ضرهم » .

فلما فرغ من كلامه حتى نشأت سحابة دكناء فيها ودق[4] شديد ، فقال : هي . . . هي . . .

ثم قال : يا معشر مضر ، ارجعوا فقد سقيتهم ، فرجعوا واخضرت ارضهم ، وكثرت مياههم .

---

(١) ارحام واشجة : متصلة ـ متآلفة .
(٢) وانفذن : في الاصل ـ وانفذنا ـ تصحيف ،
(٣) ضلعا : محنية الجنب ، مؤنثة . لسان العرب لابن منظور .
(٤) ودقت السماء ـ امطرت .

هذا ما اورده الزبير بن بكار راوي هذه القصة والله اعلم . وكانت بعد ان استسقى لقريش »[1] .

عبد المطلب بن هاشم واهتمامه بشؤون الكعبة

تفيدنا الاخبار المتواترة ان عبد المطلب بن هاشم كان من اكثر الناس محافظة على الكعبة المشرفة . كما أنه كان اكثر اهتماماً بمصالحها وادارة شؤونها وعمرانها من كل احد في عصره . وانه كان لا يألو جهداً من القيام باصلاحها وتعظيمها .

وتقول المرويات ان عبد المطلب عندما حفر بئر زمزم ، بعد ان كانت جرهم اعفت أثره ودفنت فيه الذخائر التي كانت تهدى للكعبة المشرفة ، املا بالعودة الى مكة بعد اندحارها .

لقد اخرج عبد المطلب ما كان في البئر من النفائس ومن جملتها غزالين من ذهب وسبعة أسياف قلعية وخمسة ادراع سوابغ فجعل من الغزالين صفائح من ذهب على باب الكعبة وجعل المفتاح والقفل من ذهب ايضاً .

ويروى ان الغزالين والسيوف هدية من احد ملوك الفرس عند زيارته للكعبة المعظمة .

وفي معجم البلدان لياقوت عن المسعودي : « قال المسعودي : والفرس تعتقد انها من ولد ابراهيم الخليل (عليه السلام) ، وقد كانت

---

(١) نهاية الارب في فنون الادب ـ للنويري ـ ج ١٦ ، ص ٤٩ ، ٥ .

اسلافهم تقصد البيت الحرام ، وتطوف به تعظيماً لجدها ابراهيم ، وتمسكاً بهديه وحفظاً لانسابها .

وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك ، وكان ساسان اذا اتى البيت طاف به وزمزم على هذه البئر ، وفي ذلك يقول الشاعر :

في القديم من الزمان :

زمزمت الفرس على زمزم وذاك في سالفها الاقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بقوله :

وما زلنا نحج البيت قدما ونلقي بالاباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى اتى البيت العتيق باصيدينا
وطاف به وزمزم عند بئر لاسماعيل تروي الشاربينا[1]

ذكر المسعودي في مروجه قوله : « فممن كان مقراً بالتوحيد ، مثبتاً للوعيد ، تاركاً للتقليد ، عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وقد كان حفر بئر زمزم ، وكانت مطوية ـ وذلك في ملك كسرى بن قباذ ـ فاستخرج منها غزالتي ذهب ، عليهما الدر والجوهر ، وغير ذلك من الحلي ، وسبعة اسياف قلعية ، وسبعة ادرع سوابغ ، فضرب من الاسياف باباً للكعبة ، وجعل احدى الغزالتين صفائح (ذهب في الباب) ، وجعل الاخرى في الكعبة ، وكان عبد المطلب اول من اقام الرفادة والسقاية للحاج ، وكان أول من سقى الماء بمكة عذباً ، وجعل باب الكعبة مذهباً ، وفي ذلك يقول عبد المطلب :

---

(١) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ـ مجلد ٣ ، ص ١٤٨ .

اعطي بلا شح ولا مشاحح سقياً على رغم العدو الكاشح
بعد كنوز الحلي والصفائح حلياً لبيت الله ذي المسارح[1]

قصة اصحاب الفيل

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل[2]. ألم يجعل كيدهم في تضليل[3]. وارسل عليهم طيراً أبابيل[4] ترميهم بحجارة من سجيل[5] فجعلهم كعصف مأكول[6] ﴾ .

جاء في مجمع البيان للطبرسي : «اجمعت الرواة على ان ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة هو ابرهة بن الصباح الاشرم ، وقيل أن كنيته ابو يكسوم ، قال الواقدي : هو صاحب النجاشي جد النجاشي الذي كان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقال محمد بن

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي، ج ٢ ، ص ١٢٧ .
(٢) اصحاب الفيل هم الاحباش الذين أتوا مع ابرهة لهدم الكعبة .
(٣) في تضليل عما قصدوا اليه ضل سعيهم حتى لم يصلوا الى ما ارادوه بكيدهم ـ وقيل في ذهاب وبطلان .
(٤) طيراً ابابيل : اي اقاطيع يتبع بعضها بعضاً كالابل ـ المؤبلة ـ وكانت لها خراطيم كخراطيم الطير واكف كأكف الكلاب عن ابن عباس .
(٥) بحَجارة من سجيل ـ حجارة صلبة شديدة اكبر من العدسة واصغر من الحمصة .
(٦) كعصف مأكول : اي كزرع وتبن قد اكلته الدواب ثم راثته فديست وتفرقت اجزاؤه سورة الفيل : آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

يسار : أقبل تُبَّع حتى نزل على المدينة ، فنزل بوادي قبا ، فحفر بها بئراً تدعى اليوم بئر الملك ، قال : والمدينة اذ ذاك يهود والأوس والخزرج فقاتلوه ، وجعلوا يقاتلونه بالنهار ، فاذا امسى ارسلوا اليه بالضيافة، فاستحيا واراد صلحهم، فخرج اليه رجل من الأوس يقال له احيحة بن جلاح ، وخرج اليه من اليهود بنيامين القرظي ، فقال أُحيحة : أيها الملك نحن قومك وقال بنيامين : هذه بلدة لا تقدر على ان تدخلها ولو جهدت ، قال : ولم ؟ قال : لأنها منزل نبي من الأنبياء يبعثه الله من قريش !

قال : ثم خرج يسير حتى اذا كان من مكة على ليلتين ، بعث الله عليه ريحاً فقصفت يديه ورجليه ، وشنجت جسده ، فارسل الى من معه من اليهود فقال : ويحكم ما هذا الذي اصابني ؟ قالوا : حدثت نفسك بشيء ؟ قال : نعم . وذكر ما اجمع عليه من هدم البيت واصابة ما فيه ، قالوا : ذلك بيت الله الحرام ، ومن اراده هلك قال : ويحكم وما المخرج ؟ مما دخلت فيه ؟ قالوا : تحدث نفسك بان تطوف به وتكسوه وتهدي له ، فحدث نفسه بذلك ، فاطلقه الله .

ثم سار حتى دخل مكة فطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وكسا البيت ، وذكر الحديث في نحره بمكة وإطعامه الناس ، ثم رجوعه الى اليمن وقتله وخروج ابنه الى قيصر واستغاثته به فيما فعل قومه بابيه ، وان قيصر كتب له الى النجاشي ملك الحبشة ، وأن النجاشي بعث له ستين الفاً واستعمل عليهم روز به حتى قاتلوا حمير قتلة ابيه ، ودخلوا صنعاء فملوكها وملكوا اليمن .

وكان في اصحاب روزبة رجل يقال له ابرهة وهو أبو يكسوم ، قال لروزبة : اني اولى بهذا الأمر منك وقتله مكراً وأرضى النجاشي ، ثم انه بنى كعبة باليمن ، وجعل فيها قباباً من ذهب ، فامر اهل مملكته بالحج اليها يضاهي بذلك البيت الحرام ، وأن رجلاً من بني كنانة خرج حتى قدم اليمن ، فنظر اليها ثم قعد فيها ، يعني بحاجة الإنسان ، فدخلها ابرهة فوجد تلك العذرة فيها ، فقال : من اجترأ علي بهذا ؟ ونصرانيتي لاهدمن ذلك البيت حتى لا يحجه حاج أبداً ، ودعا بالفيل واذن قومه بالخروج ومن اتبعه من اهل اليمن ، وكان اكثر من اتبعه منهم عك ، والاشعرون ، وخثعم - قال : ثم خرج يسير حتى اذا كان ببعض طريقه بعث رجلا من بني سليم ليدعوا الناس الى حج بيته الذي بناه ، وتلقاه ايضاً رجل من الحمس[1] من بني كنانة فقاتله فازداد بذلك حنقاً ، وحث السير والانطلاق ، وطلب من اهل الطائف دليلاً ، فبعثوا معه رجلا من هذيل يقال له نفيل ، فخرج بهم يهديهم حتى اذا كانوا بالمغمس نزلوه ، وهو من مكة على ستة اميال .

فبعثوا مقدماتهم الى مكة ، فخرجت قريش عباديد[2] في رؤوس الجبال ، وقالوا : لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ولم يبق بمكة غير عبد

(١) التحمس : التشدد في الدين - والاحمس الورع من الرجال الذي يتشدد في دينه - والحُمس : قريش لانهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم فلا يطاقون .

(٢) العباديد - والعبابيد : الخيل المتفرقة في ذهابها ومجيئها - ويقال : ذهبوا عباديد - اذا ذهبوا متفرقين : والعباديد : الاطراف البعيدة - لسان العرب لابن منظور ، مادة عبد .

المطلب بن هاشم اقام على سقايته ، وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار اقام على حجابة البيت ، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول :

لاهــم ان المــرء يمـ ـنع رحله فامنــع حــلالــك
لا يـغـلـبـوا بـصـليـبـهـم ومحـالهـم عـدواً محـالـك
لا يـدخـلوا البـلد الحـر ام اذا فـامـر مـا بـدالـك

ثم ان مقدمات ابرهة اصابت نعما لقريش ، فاصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، فلما بلغه ذلك خرج حتى اتى القوم ، وكان حاجب ابرهة رجلا من الاشعرين ، وكانت له بعبد المطلب معرفة ، فاستأذن له على الملك وقال له : ايها الملك جاءك سيد قريش الذي يطعم انسها في الحي ، ووحشها في الجبل ، فقال له : ائذن له .

وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً جميلاً ، فلما رآه ابو يكسوم ، اعظمه ان يجلسه تحته وكره ان يجلسه معه على سريره ، فنزل من سريره فجلس على الأرض ، واجلس عبد المطلب معه ، ثم قال : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي مائتا بعير لي اصابتها مقدمتك ! ، فقال ابو يكسوم : والله لقد رأيتك فاعجبتني ثم تكلمت فزهدت فيك ، فقال : ولم ايها الملك ؟ قال : لأني جئت الى بيت عزكم ومنعتكم من العرب ، وفضلكم في الناس ، وشرفكم عليهم ، ودينكم الذي تعبدون ، فجئت لاكسره واصيبت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتني في ابلك ، ولم تطلب الي في بيتكم . فقال له عبد المطلب : ايها الملك انا اكلمك في مالي ، ولهذا البيت رب هو يمنعه لست انا منه في شيء ، فراع ذلك ابا يكسوم ، وأمر برد ابل عبد المطلب عليه .

وارسلنا عليهم طيراً ابابيل .

رجع (عبد المطلب) وامست ليلة اصحاب ابرهة كالحة نجومها، كأنها تكلمهم كلاماً لاقترابها منهم ، فاحست نفوسهم بالعذاب ، وخرج دليلهم حتى دخل الحرم وتركهم ، وقام الاشعرون وخثعم ، فكسروا رماحهم ، وسيوفهم وبرأوا الى الله ان يعينهم على هدم البيت .

فباتوا (اي الاحباش) كذلك باخبث ليلة ثم ادلجوا بسحر، فبعثوا فيلهم يريدون ان يصبحوا بمكة ، فوجهوه الى مكة فربض ، فضربوه فتمرغ ، فلم يزالوا كذلك حتى كادوا ان يصبحوا ، ثم أنهم اقبلوا على الفيل فقالوا : لك الله ان لا نوجهك الى مكة ، فانبعث فوجهوه الى اليمن راجعاً فتوجه يهرول ، فعطفوه حين رأوه منطلقاً ، حتى اذا ردوه الى مكانه الأول ربض ، فلما رأوا ذلك عادوا الى القسم فلم يزالوا كذلك يعالجونه حتى اذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة ، فجعلت ترميهم . وكل طائر في منقاره حجر ، وفي رجليه حجران ، واذا رمت بذلك مضت وطلعت اخرى ، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن الا خرقه ، ولا عظم الا اوهاه وثقبه ، وثاب[١] ابو يكسوم راجعاً قد اصابته بعض الحجارة ، فجعل كلما قدم أرضاً انقطع له فيها ارب[٢] حتى اذا انتهى الى اليمن لم يبق

---

(١) وثاب كذا في الاصل ـ والاصح ـ آب .

(٢) ارب بكسر الهمزة ، وسكون الراء : له تأويلان ـ احدهما أنه الحاجة ـ والثاني العضو.

شيء الا باده ، فلما قدمها تصدع صدره وانشق بطنه فهلك .

ولم يصب من الاشعريين وخثعم احد ، قال : وكان عبد المطلب يرتجز ويدعوا على الحبشة ويقول :

يا رب لا ارجو لهم سواكاً يا رب فامنع منهم حماكا
ان عدوا البيت من عاداكا انهم لن يقهروا قواكا

قال : ولم تصب تلك الحجارة احداً الا هلك ، وليس كل القوم اصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي منها جاؤوا ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق ، وقال نفيل في ذلك :

ردينة لو رأيت ولن ترينه لدى جنب المحصب ما رأينا
حمدت الله اذ عاينت طيراً وخفت حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن علي للحبشان دينا[١]

روى الطبري في تاريخه قال : «بنى ابرهة بعد ان رضي عنه النجاشي واقره على عمله كنيسة صنعاء ، فبناها بناء معجباً لم ير مثله ، بالذهب والاصباغ المعجبة ، وكتب الى قيصر يعلمه أنه يريد بناء كنيسة بصنعاء ، يبقى اثرها وذكرها وسأله المعونة له على ذلك ، فاعانه بالصناع والفسيفساء والرخام .

وكتب ابرهة الى النجاشي حين استتم بناؤها : اني اريد أن اصرف اليها حاج العرب فلما سمعت بذلك العرب أعظمته وكبر

---

(١) مجمع البيان ـ للطبرسي .

عليها ، فخرج رجل من بني مالك بن كنانة حتى قدم اليمن ، فدخل الهيكل ، فاحدث فيه ، فغضب ابرهة ، واجمع على غزو مكة وهدم البيت ، فخرج سائراً بالحبشة ومعه الفيل ، فلقيه ذو نفر الحميري ، فقاتله فأسره ، فقال : ايها الملك ، انما انا عبدك فاستبقني ، فإن حياتي خير لك من قتلي ، فاستبقاه . ثم سار فلقيه نفيل بن حبيب الخثعمي ، فقاتله فهزم اصحابه ، واسره ، فسأله ان يستبقيه ، ففعل وجعله دليله في ارض العرب .

حتى اذا مر بالطائف خرج اليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف ، فقال له : ايها الملك ، انما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس لك عندنا خلاف وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد - يعنون اللات - انما تريد البيت الذي بمكة - يعنون الكعبة - ونحن نبعث معك من يدلك ، فتجاوز عنهم ، وبعثوا معه ابا رغال ، فخرج ابرهة ومعه ابو رغال ، حتى انزله المغمَّس ، فلما انزله به مات ابو رغال هناك ، فرجمت العرب قبره - فهو القبر الذي يرجم الناس بالمُغمس - .

ولما نزل ابرهة بالغُمس بعث رجلا من الحبشة ، يقال له الاسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى الى مكة . فساق اليه اموال اهل مكة من قريش وغيرهم ، واصاب منها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها ، فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث ابرهة حناطة الحميري الى مكة ، وقال له : سل عن سيد هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : ان الملك يقول لكم : اني لم آت

لحربكم ، انما جئت لهدم البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم ، فان لم يرد حربي فأتني به .

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، فجاءه فقال له ما امره به ابرهة . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم . فان يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبينه ، فوالله ما عندنا من دفع عنه . فقال له حناطة : فانطلقِ الى الملك ، فانه قد أمرني ان آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى اتوا ابرهة .

فقال (حناطة) : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤ وس الجبال ، فاذن له عليك فيكلمك بحاجته واحسن اليه . قال : فاذن له ابرهة ـ وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً وسيماً جسيما ـ فلما رآه ابرهة اجلَّه واكرمه ان يجلس تحته ، وكره ان تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل ابرهة عن سريره ، فجلس على بساطه واجلسه معه عليه الى جنبه . ثم قال لترجمانه : قل له حاجتك الى الملك . فقال له ذلك الترجمان . . . . فقال عبد المطلب : حاجتي الى الملك ان يرد علي مائتي بعير اصابها لي . فلما قال له ذلك ، قال ابرهة لترجمانه : قل له قد كنت اعجبتني حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ، اتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه . . !

قال له عبد المطلب : إني رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه

قال : ما كان ليمنع مني ، قال : انت وذاك ، اردد الي ابلي .

وكان ابرهة قد رد على عبد المطلب الابل التي اصاب له ، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب الى قريش فاخبرهم الخبر ، وامرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم معرة الجيش .

ثم قام عبد المطلب فاخذ بحلقة (باب الكعبة) وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على ابرهة وجنده ، فقال عبد المطلب : وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا همَّ ان العبد يمـ	ـنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم	ومحالهم غدواً محالك[1]
فلئن فعلت فربما	اولى فامر ما بدالك
ولئن فعلت فانه	امر تتم به فعالك
جروا جموع بلادهم	والفيل كي يسبوا عيالك
عمدوا حماك بكيدهم	جهلا وما رقبوا جلالك

وقال ايضاً :

وكنت اذا اتى باغ بسلم	نرجي أن تكون لنا كذلك
فولوا لم ينالوا غير خزي	وكان الحين يهلكهم هنالك
ولم اسمع بارجس من رجال	ارادوا العز فانتهكوا حرامك

---

(١) غدواً : أي غداً ـ ولم يستعمل تاماً إلا في الشعر .

ثم ارسل عبد المطلب حلقة الباب ـ باب الكعبة ـ وانطلق هو ومن معه من قريش الى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما ابرهة فاعل بمكة اذا دخلها .

فلما اصبح ابرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبَّأ جيشه ـ وكان اسم الفيل محمودا ـ وابرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف الى اليمن ، فلما وجهوا الفيل اقبل نُفيل بن حبيب الخثعمي حتى قام الى جنبه ، ثم اخذ باذنه فقال : ابرك محمود ، وارجع راشدا من حيث جئت ، فانك في بلد الله الحرام . ثم ارسل اذنه ، فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى صعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، وضربوا في رأسه بالطبرزين[1] ليقوم فابى ، فادخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه[2] فابى ، فوجهوه راجعا الى اليمن ، فقام يهرول ، ووجهوه الى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى مكة فبرك .

وارسل الله عليهم طيراً من البحر امثال الخطاطيف ، مع كل طير منها ثلاثة احجار يحملها ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، مثل الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم اصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤوا ،

---

(١) الطبرزين : فاس السرج ـ فارسي معرب ـ قال الجواليقي ـ « لأن فرسان العجم كانت تحمله معها يقاتلون به .

(٢) فبزغوه : أي أدموه .

ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق الى اليمن ، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما انزل الله بهم من نقمته :

اين المفـرّ والالـه الـطالب	والأشرم المغْلوب غير الغالب

وقال نفيل ايضاً :

ألا حييت عنـا يـا ردينـا	نعمنـاكم مع الاصبـاح عينا
اتـانـا قـابس منكم عشـاءً	فلم يقـدر لقـابسكم لـدينـا
ردينـة لـو رأيت ولم تـريـه	لدى جنب المحصب ما رأينا
اذاً لعـذرتني وحمـدت رأيي	ولم تأسي على ما فات بينا[1]
حمدت الله اذ عاينت طيراً	وخفت حجـارة تلقى علينـا
فكل القوم يسأل عن نُفيل	كـأن عـلي للحبشـان دينـا !

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل ، واصيب ابرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، تسقط أنامله أنملة أنملة ، كلما سقطت منه انملة ، تبعتها منه مدة تمث[2]قيحاً ودماً حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطير ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه .[3]

(١) قال السهيلي : نصب « بينا » نصب المصدر المؤكد لما قبله ، اذا كان في معناه ولم يكن على لفظه ، لأن « فات » معناه « فارق » ، و « بان » .
(٢) تمث قيحا : أي ترشح قيحا ودما .
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

ذكر اهل التاريخ واصحاب السير ان الرسول الاعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم)، ولد في (عام الفيل) اي في السنة التي جاء بها ابرهة الحبشي الاشرم مع جيشه وفيلته لهدم الكعبة المقدسة .

وقد جعل العرب هذا العام (عام الفيل) وهو عام الانتصار على الاعداء عظيما فارخوا به ما يحتاجونه من معاملات وتدوين .

وظل هذا التاريخ ساري المفعول بينهم حتى هجرة الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) الى المدينة المنورة .

نظرة حول موقف عبد المطلب واصحاب الفيل

يتجلى لنا من قصة اصحاب الفيل وغيرها أن عبد المطلب بن هاشم كان علاوة على سيادته لقومه ، وانه المطاع المهاب الجانب ، كان ورعاً ، وتقيا وشجاعا ، عظيم الثقة بالله . ويظهر هذا من محاورته لابرهة حينما طلب منه ان يترك له ابله التي استولى عليها جيشه . قال له ابرهة : ـ كنت اعجبتني حين رأيتك . . . ولكن حينما طلبت مني الابل ولم تطلب مني الرجوع عن هدم البيت الذي فيه عزكم وشرفكم . . الى آخره ـ

اجابه عبد المطلب بكل شجاعة وايمان : ان الابل لي ، وللبيت رب يحميه ـ او يربه ـ .

وعندما قال له ابرهة : ما كان ليمنعه مني مانع . . . اجابه عبد المتطلب بلهجة الواثق المتيقن بان الله لا يترك بيته ـ انت وذاك ـ.

وهنا تتجلى لنا مظاهر الايمان العميق الذي كان يجري في عروق عبد المطلب . . المؤمن الموحد . اذ أن جوابه لابرهة الظالم المستبد والطاغي المجرم ـ انت وذاك ـ .

هذا الجواب السديد ، والبليغ الموجز له ما له من معنى عميق لم يصدر من غير عبد المطلب فهو يتضمن التهديد لابرهة بانه اقصر باعاً

واعجز من أن يتمكن من هدم البيت العظيم اذ أنه بيت الله الحرام ، والله لا يقدر على مناوأته احد . وان كلمة الله هي العليا وكلمة العبد هي السفلى ، وأنى للبشر الضعيف المغرور أن يكون له القدرة على معاندة خالق الخلق ومدبر الكون .

جاء ابرهة لهدم الكعبة ، وهو يظن انه يقدر على ذلك وأن باستطاعته فعل ما يريد وصنع ما يشاء ، وأن يجعل كعبة غير الكعبة التي هي بيت الله ويصرف الناس عنها .

لقد جهل ابرهة الاشرم هذا المغرور الضعيف المتعنت ، أن الله سبحانه وتعالى قادر بلحظة واحدة ، ان يغير الامور من حال الى حال بان يقول للشيء (كن فيكون) .

لقد غاب عن ذهنه ايضاً أنه أراد الاساءة للكعبة قبله ناس من الجبارين في سالف العصور وقد خابوا ورجع من رام ذلك بالخسران المبين . ومنهم تُبَّع الاخير الذي اراد هدم البيت ونوى الشر في نفسه ، لكنه رجع الى رشده عندما رأى آيات الله البينات ـ من الظلمة الشديدة التي غشيته وقومه ـ الى رجفان الارض بهم ـ الى يبوسة جسمه . . واطرافه حتى لم يتمكن من الحركة . سأل بعض الاحبار من الذين كانوا برفقته عن سبب ما اصابه وقومه ، اجابه : هل نويت الشر بنفسك لبيت الله الحرام بمكة ؟ قال تبع بلى لقد نويت هدمه . قال له : ما رام احد من الخلق الاساءة الى بيت الله العظيم في مكة المكرمة الا أهلكه الله .

عند ذلك غير تبع ما في نفسه وارعوى ورجع عن غيه وضلاله

ونوى الخير للبيت العتيق فجاء اليه وطاف حوله وسعى ، وكساه الحلل والبرود وجعل له باباً يغلق ، وغير ذلك من الاعمال الخيرية . وقال تبع في ذلك :

وكسونا البيت الذي حرم الله ملاءً معصبا وبرودا
واقمنا به من الشهر عشراً وجعلنا لبابه اقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا قد رفعنا لواءنا معقودا

اعود فاقول : اننا نستدل على ايمان عبد المطلب العميق بالله الواحد القهار ، من أقواله وافعاله التي سبق ذكرها ، ومن رجوعه الى اهل مكة المكرمة اهل بلده وموطنه بعد مقابلته لابرهة الاشرم ، يطمئنهم ويبعث الثقة في نفوسهم وان الله سبحانه وتعالى سيمنع ابرهة كما منع تُبعًاً من قبل ، وان الله للمتجبرين بالمرصاد . ويعرف هذا من قوله :

يا اهل مكة قد وافاكم ملك مع الفيول على انيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم والله مانعه كمنع تبع لما جاءها حرد

ويقول عبد المطلب ايضا في وصف من جاء يريد الاساءة للحرم الشريف وقد منعه الله . ويُنوّه بانه وآباءه هم المؤمنون العابدون الذين يتحلون بمزايا العبودية لله وحده لا شريك له . وبمكارم الاخلاق .

ذلك لما رد الله سبحانه وتعالى كيد الاحباش الى نحورهم :

ايها الداعي لقد اسمعتني ثم ما بي عن نداكم من صمم
ان للبيت لربا مانعا من يرده باثام يصطلم

رامـه تبـع فيمن جنـدت حمـير والحي من آل قـدم
فـانثنى عنـه وفي اوداجـه جـارح امسك منـه بالكـظم
قلت والاشـرم تـردى خيله ان ذا الأشـرم غر بـالحرم
نحن آل الله فيها قد مضى لم يزل ذاك على عهد ابرهم
نحن دمـرنـا ثمـوداً عنـوة ثم عـاداً قبلها ذات الارم
نـعبـد الله وفـينـا سنـة صلة القـربى وايفـاء الـذمم
لم تـزل لله فينـا حجـة يـدفـع الله بهـا عنـا النقم

هذا قول عبد المطلب ، وهذا هو شأنه الذي يعطينا دليلاً واضحاً للرد على من يقول بان آباء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واجداده حتى ابراهيم الخليل (عليه السلام) لم يكونوا باجمعهم مسلمين موحدين فليتأمل المتأمل ويرجع عن عناده المكابر .

وفد قريش برئاسة عبد المطلب لتهنئة سيف بن ذي يزن

قبل الكتابة عن وفد تهنئة ملك اليمن ، لا بد لنا من المرور ولو بصورة موجزة على المعركة التي دارت بين الاحباش ـ واليمن ، وذلك لبيان ما حمل قريش وسيدها عبد المطلب ، للذهاب الى اليمن وتهنئة ملكها سيف بن ذي يزن الذي اطاح بملك الاحباش عدو الله ، وعدو العرب، وقريش. واخرجهم من بلاده، ونكل بهم، واراح الله البلاد والعباد منهم .

يحدثنا التاريخ : أنه لما اهلك الله اصحاب الفيل وجعلهم عبرة لمن اعتبر ، حقدت العرب على الاحباش لتطاولهم على قدسية بيت الله الحرام ، وغزوه ، وعزمهم على هدمه ، جرأة منهم على الله وعلى من حوله من العرب ، بل على العرب اجمع .

ولما هلك ابرهة الاشرم ملك بعده ابنه يكسوم باليمن ، وبعد يكسوم ملك مسروق بن ابرهة وكان طاغياً جباراً . أذل العرب اذلالاً لا مثيل له . عندها ذهب سيف بن ذي يزن الى قيصر ملك الروم يستنصره على مسروق ، فلم ينصره لأنه لم يكن على دينه .

فلما يئس ابن ذي يزن من نصرة قيصر ، ذهب الى كسرى ملك الفرس يستنجده . فلما دخل على كسرى وطلب منه النجدة قال له

كسرى : بلادك بعيدة ، وقليلة الخير ، وما كنت لافرط بجيشي . . . لكنه امر له بمال كثير .

وعندما خرج ابن ذي يزن من حضرة كسرى جعل ينثر المال الذي اعطاه اياه . فبلغ ذلك كسرى فاستاء منه وارسل اليه يعاتبه قائلاً : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ ! اجابه : اني لم آتك للمال . . انما جئتك للرجال . . . ولتمنعي من الذل . وان بلادي بلاد الخير ، وتراب وطني ثمين جداً ، فلست بائعه بالمال ! فاعجب جوابه كسرى فقال له : اقم حتى انظر في امرك .

ثم أن كسرى استشار وزراءه ، فقال له الموبذان : في سجون الملك رجال ذوو نجدة وبأس ، فلو أن الملك وجههم معه ، فان اصابوا ظفراً ، كان له . وان هلكوا كان قد استراح ، وأراح اهل مملكته منهم .

قال كسرى : هذا الرأي . . وأمر بمن كان في السجون فبلغوا ثمانمائة نفر . وجعل عليهم قائداً يقال له (وهرز) . وجهزهم في ثمان سفن ، فغرق سفينتان وبقي ست سفن ، حتى نزلوا بساحل حضرموت . ولحق بابن ذي يزن من العرب بشر كثير .

ولما التقى الجيشان ارسل وهرز القائد ابنه طليعة لجيشه لينظر ما عليه الاحباش وكانوا مائة الف فقتلوه .

وعندما قتل ابن وهرز استشاط القائد وهرز غضباً ، وحلف ان لا يشرب خمراً ، ولا يدهن رأسه حتى يثأر لابنه .

جمع وهرز السفن الست التي جاؤوا عليها واحرقها ثم احرق

الزائد من الملابس والقى الزائد من الطعام في البحر ، حتى لا يبقى امل لجيشه بالرجوع قبل النصر ـ وللاعتماد على انفسهم .

ثم عبأ اصحابه وجعل البحر خلفه ، واقبل على الجيش يحثهم على الصبر والثبات قائلاً : اما الظفر والنصر على الاعداء . . وام ان تموتوا كراما .

وكان مسروق الحبشي في جمع لا يرى طرفاه ، على فيل وعلى رأسه تاج ، وبين عينيه ياقوتة حمراء مثل البيضة .

وكان وهرز قد كلّ بصره فقال : أروني عظيمهم ، قالوا : هو صاحب الفيل . فقال : ارفعوا لي حاجبي ـ وقد كانا سقطا على عينيه من الكبر ـ فرفعوهما بعصابة . ثم اخرج نشابة ، فوضعها في كبد قوسه ، واطلقها ، فاقبلت كانها رشاء حتى صكت جبهة مسروق . فسقط عن دابته صريعا .

عند ذلك انفض صف الاحباش وتفرقوا لما رأوا صاحبهم صريعا . ولم يكن دون هزيمتهم من شيء.

وغنم وهرز من عسكرهم ما لا يحصى وجعل الفارسي يأخذ من الحبشة ومن حمير والاعراب الخمسين والستين فيسوقهم مكتفين لا يمتنعون منه . فقال وهرز : أما حمير والاعراب فكفوا عنهم ، واقصدوا قصد السودان فلا تبقوا منهم احدا . فقتلت الحبشة يومئذٍ حتى لم يبق منهم كثير احد .

وفي رواية انه هرب رجل من الاعراب على جمل له ، فركضه يوماً وليلة ، ثم التفت ، فاذا في الحقيبة نشابة ، فقال : لأمـك الويل !

أبعد طول مسير ؟ ! ـ حَسِب أن النهاية لحقته طول هذه المسافة لأن الخوف سيطر عليه ـ .

ولما دخل وهرز صنعاء ، اقام سيف بن ذي يزنّ على ملك اليمن . عند ذلك اقبلت وفود العرب من كل حدب وصوب ، لتهنئته بالنصر والظفر ، ومدحه على قتله لمسروق الحبشي ذلك المستبد الظالم الذي عامل العرب معاملة سيئة كما اسلفنا .

ولما استتب الامر في اليمن للعرب ، وتسلم سيف بن ذي يزن زمام الملك ، جلس في قصره بغمدان يستقبل وفود المهنئين .

وفي ابن ذي يزن وما كان من أمره ومن وهرز والفرس يقول أمية بن ابي الصلت الثقفي .

ليطلب الوتر امثال ابن ذي يزن ... رَيَّمٌ في البحر للاعداء احوالا[1]
اتى هِرقل وقد شالت نعامتهم ... فلم يجد عنده بعض الذي قالا[2]
ثم انتحى نحو كسرى بعد سابعة ... من السنين لقد ابعدت ايغالا[3]
حتى اتى ببني الاحرار يحملهم ... إنك لعمري لقد اطولت قلقالا[4]
من مثل كسرى شهنشاه الملوك له ... أو مثل وهرز يوم الجيش اذ صالا
لله درهم من عصبة خرجوا ... ما ان ترى لهم في الناس امثالا
غر جحاجحة بيض مرازبة ... اسد تربب في الغيضات اشبالا

---

(١) ريمٌ في البحر ـ اقام فيه .
(٢) شالت نعامتهم ـ أي هلكوا ، والنعامة في الاصل : باطن القدم .
(٣) بعد سابع : وفي رواية ثانية : بعد عاشرة .
(٤) بنو الاحرار : الفرس ، والقلقال ـ شدة الحركة .

يرمون عن شدف كأنها غبط … في زمخر يعجل المرمي اعجالا[1]

أرسلت اسداً على سود الكلاب فقد … أضحى شريدهم في الأرض فلالا[2]

فاشرب هنيئاً عليك التاج متكئاً … في رأس غمدان داراً منك محلالا

وأطل بالمسك اذ شالت نعامتهم … واسبل اليوم في برديك اسبالا

تلك المكارم لا قعبان من لبن … شيبا بماء فعادا بعد ابوالا

---

(١) يراد بالشدف هنا القسي . والغبط : الهوادج . والزمخر : القصب الفارسي .

(٢) سود الكلاب ـ اراد بهم : الاحباش . وهذه القصيدة مروية مع اختلاف بسيط في كلماتها .

عبد المطلب ـ وسيف بن ذي يزن

لما ذكرنا وفد قريش برئاسة عبد المطلب بن هاشم لتهنئة ملك اليمن سيف بن ذي يزن ، لا بد من الاشارة هنا الى ما دار بين عبد المطلب وابن ذي يزن من الاحاديث والكلام البليغ . وعلى الاخص فيما يتعلق بشأن نبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقرب زمان ظهوره ، وتوصية ملك اليمن ابن ذي يزن لعبد المطلب باخفاء الامر وكتمان السر عن الرهط الذين جاؤوا معه لئلا يتسرب النبأ الى اليهود وغيرهم ، خوفاً على صاحب الرسالة وحرصا على سلامته .

ذكر الازرقي عن ابن اسحاق قال : « لما قُتلت الحبش ورجع المُلْك الى حمير سُرَّت بذلك جميع العرب لرجوع الملك فيها وهلاك الحبشة ، فخرجت وفود العرب جميعها لتهنئة سيف بن ذي يزن فخرج وفد قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم فاتوه وهو بصنعاء وهو في قصر يقال له غمدان .

فاستأذنوا عليه فاذن لهم ، فاذا الملك متضمخ بالعنبر يلصف ووميض المسك من مفرقه الى قدمه ، وسيفه بين يديه ، وعن يمينه وعن يساره الملوك وابناء الملوك . فدنا عبد المطلب ، فاستأذن في الكلام ، فقال له سيف بن ذي يزن : ان كنت ممن يتكلم بين يدي

الملوك فقد أذنا لك . فقال له عبد المطلب : ان الله عز وجل قد احلك ايها الملك محلاً رفيعاً ، صعباً ، منيعاً ، شامخاً ، باذخا ، وانبتك منبتا طابت ارومته ، وعزت جرثومته ، وثبت اصله ، وبسق فرعه ، في اكرم معدن ، واطيب موطن ، وانت ابيت اللعن رأس العرب ، وربيعها الذي تخصب به ، وانت ايها الملك رأس العرب الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلجأ اليه العباد ، سلفك خير سلف ، وانت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمد ذكر من انت سلفه ، ولن يهلك من انت خلفه .

ايها الملك نحن اهل حرم الله ، وسدنة بيته ، اشخصنا اليك الذي ابهجنا لكشفك الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة . قال : وأيهم انت ايها المتكلم ؟ قال : انا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . قال : ابن اختنا ؟ قال : نعم .

قال : أدن . . . فادناه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم ، فقال : مرحباً واهلاً ، وناقة ورحلا ، ومستناخاً سهلا ، وملكاً ربحلاً ، يعطى عطاءً جزالا ، قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فانت أهل الليل والنهار ، ولكم الكرامة ما اقمتم ، والحباء اذا ظعنتم .

قال : ثم قال : انهضوا الى دار الضيافة والوفود ، فاقاموا شهراً لا يصلون اليه ، ولا يؤذن لهم في الانصراف .

قال : واجرى عليهم الانزال ، ثم انتبه لهم انتباهة ، فارسل الى عبد المطلب فادناه ، واخلى مجلسه ثم قال : يا عبد المطلب اني مفوض

اليك من سر علمي امراً لو غيرك يكون لم أبح به له ، ولكني وجدتك معدنه ، فاطلعتك طلعه ، وليكن عندك مطوياً حتى يأذن الله فيه ، فان الله بالغ فيه أمره .

اني اجد في الكتاب المكنون ، والعلم المخزون ، الذي اخترناه لانفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا خبراً جسيما ، وخطرا عظيما ، فيه شرف للحياة ، وفضيلة للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة .

قال عبد المطلب : ايها الملك مثلك سر وبر ، فما هو فداك اهل الوبر والمدر ، زمراً بعد زمر .

قال الملك : فاذا ولد بتهامة غلام به علامة ، كانت له الامامة ، ولكم به الزعامة ، الى يوم القيامة .

فقال له عبد المطلب : ابيت اللعن لقد أتيت بخبر ما آب بمثله وافد قوم ، ولولا هيبة الملك واعظامه واجلاله ، لسألته من سارة آبائي ما أزداد به سرورا ، فان رأى الملك أن يخبرني بافصاح ، فقد اوضح لي بعض الايضاح .

قال : هذا حينه الذي يولد فيه ، أوقد ولد ، اسمه محمد ، بين كتفيه شامة ـ يموت ابوه وأمه ، ويكفله جده وعمه . وقد ولدناه[1] مراراً ، والله باعثه جهاراً ، وجاعل له منا انصارا ، يعز بهم

---

(١) ولدناه ـ وفي رواية ثانية ـ وجدناه ـ

أولياءه ، ويذل به اعداءه ، ويضرب بهم الناس عن عرض ، ويستبيح بهم كرايم الارض ، يعبد الرحمن ، ويدحر الشيطان ، ويكسر الاوثان ، ويخمد النيران ، قوله فصل ، وحكمه عدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويبطله .

قال ابن اسحاق : فخر عبد المطلب ساجداً ، فقال له الملك : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا كعبك ، فهل احسست من أمره شيئاً ؟ قال : نعم أيها الملك ، كان لي ابن وكنت به معجباً ، وعليه رفيقاً ، فزوجته كريمة من كرايم قومه ، آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فجاءت بغلام سميته محمداً ، مات أبوه وأمه ، وكفلته أنا وعمه ، بين كتفية شامة ، وفيه كلما ذكرت من علامة .

قال له : والبيت ذي الحجب ، والعلامات على النصب ، انك يا عبد المطلب لجده غير الكذب ، وان الذي قلت ، لكما قلت . فاحتفظ واحذر عليه من اليهود ، فانهم له اعداء ، ولن يجعل الله تعالى لهم عليه سبيلا .

فاطوي يا عبد المطلب ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فاني لست آمن ان تدخلهم النفاسة، من أن تكون لك الرياسة، فيبتغون لك الغوايل ، وينصبون لك الحبايل ، وهم فاعلون ، او ابناؤهم ، ولولا ان الموت مجتاحي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي ، حتى أصير بيثرب دار مملكته ، فاني اجد في الكتاب الناطق ، والعلم السابق ، أن بيثرب استحكام أمره ، وأهل نصره ، وموضع قبره ، ولولا أني أقيه الافات ، واحذر عليه العاهات ، لأوطأت اسنان العرب

كعبه ، ولأعليت على حداثة سنه ذكره ، ولكني صارف ذلك اليك ، عن غير تقصير بمن معك .

ثم امر لكل رجل منهم بماية من الابل وعشرة أعبد ، وعشر اماء ، وعشرة ارطال ذهب ، وعشرة ارطال فضة ، وكرش مملوءة عنبراً .

وامر لعبد المطلب بعشرة اضعاف ذلك ثم قال له : إيتني بخبره ، وما يكون من امره عند رأس الحول ، فمات سيف بن ذي يزن قبل أن يحول الحول ، .

وكان عبد المطلب يقول : أيها الناس لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فانه الى نفاد ، ولكن ليغبطني بما يبقى لي ولعقبي شرفه وذكره وفخره ، فاذا قيل له : وما ذاك ؟ يقول : ستعلمن ولو بعد حين »[١] .

أقول : ان ما ذكره سيف بن ذي يزن ملك اليمن لعبد المطلب جد النبي الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله هو من جملة الاخبار المبشرة بظهور صاحب الرسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل مبعثه المبارك . وسنذكر بعض الاخبار المبشرة بظهوره في باب البشائر من هذا الكتاب ان شاء الله .

---

(١) اخبار مكة ـ للازرقي ، ج١ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .

وفاة عبد المطلب بن هاشم

يحدثنا التاريخ عن عبد المطلب بن هاشم ، هذا الرجل الذي ساد قومه بمكارم اخلاقه ، وأقواله ، وافعاله . مع أنه لم يكن اثرى الرجال في مكة ، بل كان من اوسط اثريائها . وكل ما كان عنده من رصيد ذلك الثراء الروحي والاخلاقي الذي جعل سادات العرب يطأطؤ ن الرؤوس اجلالا له ، ويعترفون بسيادته .

لقد كان عبد المطلب رجلا عظيماً في قومه ، سيداً مطاعاً لا يخالف له أمر ، جليل القدر ، عظيم الشأن . لأن ما قام به من اعمال في سبيل مصلحة قريش ، والعرب ، واهل مكة ، هو ما جعله من اعظم الرجال فيهم . فمن اعماله الاصلاحية وخدماته الاجتماعية، ابتداءً من حفر بئر زمزم ، الى اصلاح بناء الكعبة المشرفة ، وتذهيبها ، الى حادثة الفيل ووقوفه بجانب اهل بلده الى اطعام الطعام للفقراء والمساكين ، واغاثة الملهوفين ، الى محافظته على قومه بشتى الميادين ، الى الاستسقاء لهم لما اخذهم القحط .. الى آخره .

ومما يذكره التاريخ ايضاً ان عبد المطلب أول من تحنث بحراء ، وكان اذا اهل هلال شهر رمضان ، دخل بحراء فلم يخرج حتى ينسلخ الشهر ، ويطعم المساكين ، ويكثر الطواف بالبيت .

بقي عبد المطلب طيلة حياته ، السيد المطاع ، المهاب الجانب ، وقضى عمره الطويل ، بالعز والمجد ، والكرامة .

ولما احس بدنو الاجل جمع اولاده واوصاهم بوصيته منها ما ذكره اليعقوبي في تاريخه من قول : « واوصى عبد المطلب الى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة ، والى ابي طالب برسول الله وسقاية زمزم ، وقال لهم : قد خلفت في ايديكم الشرف العظيم الذي تطأون به رقاب الناس .

وقال لابي طالب :

اوصيك يا عبد مناف بعدي بمفرد بيد ابيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد فكنت كالام له في الوجد
تدنيه من احشائها والكبد فانت من ارجى بني عندي
لدفع ضيم او لشد عقد

وتوفي عبد المطلب ولرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)ثماني سنين . ولعبد المطلب مائة وعشرون سنة ـ وقيل مائة واربعون سنة ـ وأعظمت قريش موته . وغسل بالماء والسدر ، وكانت قريش أول من غسل الموتى بالسدر . ولف في حلتين من حلل اليمن ، قيمتهما الف مثقال ذهب ، وطرح عليه المسك حتى ستره ، وحمل على ايدي الرجال عدة ايام اعظاما ، واكراماً ، واكباراً ، لتغييبه في التراب .

وروي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : ان الله يبعث جدي عبد المطلب أمة واحدة في هيئة الانبياء وزي الملوك .

فكفل رسول الله بعد وفاة عبد المطلب ابو طالب عمه فكان خير كافل وكان ابو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً مع املاقه .[1].

وسنشير الى كفالة ابي طالب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في موضع آخر من هذا الكتاب .

وجاء في السيرة الحلبية عن ام أيمن قالت : « كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يبكي خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين . ودفن عبد المطلب بالحجون ، عند جده قصي .

ولما حضرته الوفاة ـ اي عبد المطلب ـ اوصى به (صلى الله عليه وآله وسلم) الى عمه شقيق ابيه ابي طالب . وكان ابو طالب ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، كابيه عبد المطلب[2]

---

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١٠ .
(٢) السيرة الحلبية ، ج١ ، ص ١٢٥ .

بعض ما قيل في رثاء عبد المطلب

قبل ذكر ما قيل في رثاء عبد المطلب ، نقف هنيهة ، نتصفح تاريخ العظماء، والعباقرة من الرجال ، لنعلم مدى اهتمامهم بتثقيف حياة الفرد ، والمجتمع . ومن هؤلاء الرجال تظهر لنا شخصية عبد المطلب العظيمة ، التي تتجلى فيها روح الانسانية المثلى ، والتي تتماشى مع متطلبات عصره في ذلك الوقت . مع الاحتفاظ بالاخلاق والدين .

اذا وقفنا في منعطف التاريخ ، نرى هذا السيد الجليل يعامل بناته الست معاملة رضية ، في عصر كانت المرأة احط من سلعة ، وارخص من متاع ، ذلك العصر المظلم الذي جار على المرأة واحتقرها ، حتى ادى بها الامر الى وأدها ودفنها وهي حية .

ومما يؤيد قولنا هو ما يرويه اصحاب الاخبار من ان عبد المطلب جمع بناته وهو في آخر ايام حياته ، وقال لهن : « ابكينني - أو ارثينني » فقالت كل واحدة منهن شعراً على مسمع منه .

يا لروعة الادب والبيان . . والعاطفة والحنان . . الذي كان يتدفق من عبد المطلب على بناته ، فانه لم يشأ أن يخرج من الدنيا حتى يطمئن عليهن من حيث الفطنة ، والفهم ، والمعرفة ، بعدما اغدق عليهن في حياته من العطف والرعاية والعناية ، والتربية الصالحة ، ما جعلهن من خيرة نساء عصرهن .

وحتى يطمئن كما قلناهذاالاب العطوف من فهم بناته ومعرفتهن ، اراد ان يسمع ذلك منهن ـ وهو كالامتحان ـ فيذهب الى ربه قريرا مرتاح الضمير رضيا مرضيا .

جاء في السيرة النبوية لابن هشام : « ان عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته ، وكن ست نسوة : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وام حكيم البيضاء ، وأُميمة ، واروى . فقال لهن : ابكين علي حتى اسمع ما تقلن قبل ان اموت . فقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي اباها :

ارقت لصوت نائحة بليل	على رجل بقارعة الصعيد
ففاضت عند ذلكم دموعي	على خدي كمنحدر الفريد[1]
على رجل كريم غير وغل[2]	له الفضل المبين على العبيد
على الفياض شيبة ذي المعالي	ابيك الخير وارث كل جود

الى آخر الابيات :

رثاء بره لابيها عبد المطلب :

اعيني جودا بدمع درر	على طيِّب الخيم والمعتصر[3]
على ماجد الجد واري الزناد	جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذي المكرمات	وذي المجد والعز والمفتخر

الى آخر الابيات :

---

(١) الفريد : الدر .
(٢) الوغل : الضعيف ، النذل ، الساقط ، المقصر في الاشياء .
(٣) الخيم ـ بالكسر ـ السجية والطبيعة . ومعنى كونه طيب المعتصر ، انه جواد عند المسألة .

رثاء عاتكة لابيها عبد المطلب :

اعيني جودا ولا تبخلا بدمعكما بعد نوم النيام
على الجحفل الغمر في النائبات كريم المساعي وفيّ الذمام
على شيبة الحمد واري الزناد وذي مصدق بعد ثبت المقام
وسيف لدى الحرب صمصامة ومردي المخاصم عند الخصام

الى آخر الابيات .

رثاء ام حكيم البيضاء لابيها عبد المطلب :

ألا يا عين جودي واستهلي وابكي ذا الندى والمكرمات
ألا يا عين ويحك اسعفيني[1] بدمع من دموع هاطلات
وابكي خير من ركب المطايا اباك الخير تيار الفرات[2]
طويل الباع شيبة ذا المعالي كريم الخيم محمود الهبات

الى آخر الابيات :

رثاء اميمة لابيها عبد المطلب :

ألا هلك الرعي العشيرة ذي الفقد وساقي الحجيج والمحامي عن المجد[3]
ومن يؤلف الضيف الغريب بيوته اذا ما سماء الناس تبخل بالرعد

---

(١) وفي الاصل اسعديني . واسعده اعانه على البكاء .

(٢) اصله الخير بالتشديد فخففت الياء . والتيار : معظم الماء . والفرات : الماء العذب .

(٣) الراعي العشيرة : الحافظ لعشيرته . وفي العقد الذي يفقد ، تريد الباذل المعطي .

كسبت وليداً خير ما يكسب الفتى فلم تنفكك تزداد يا شيبة الحمد
سقاك ولي الناس بالقبر ممطراً فسوف أبكّيه وان كان في اللحد
فقد كان زيناً للعشيرة كلها وكان حميداً حيث ما كان من حمد

رثاء اروى لابيها عبد المطلب :

بكت عيني وحق لها البكاء على سمح سجيته الحياء
على سهل الخليقة ابطحي كريم الخيم نيته العلاء[1]
على الفياض شيبة ذي المعالي ابيك الخير ليس له كفاء

الى ان تقول :

ومعقل مالك وربيع فهر وفاصلها اذا التمس القضاء
وكان هو الفتى كرما وجودا وبأساً حين تنسكب الدماء
اذا هاب الكماة الموت حتى كان قلوب اكثرهم هواء
مضى قدماً بذي ربد خشيب عليه حين تبصره البهاء[2]

وقال حذيفة بن غانم اخو بني عدى بن كعب بن لؤي ، يبكي عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ويذكر فضله وفضل قصي على قريش :

أعيني جودا بالدموع على الصدر ولا تسأما أسقيتما سبل القطر
وجودا يدمع واسفحا كل شارق بكاء امرىء لم يشوه نائب الدهر[3]

---

(١) أي من قريش البطاح وهم الذين ينزلون بين اخشبي مكة .

(٢) الربد : الفرند . والخشيب . الصقيل . والبهاء ـ يروى : الهباء ـ تريد به ما يظهر على السيف المجوهر تشبيهاً بالغبار .

(٣) كل شارق : اي عند طلوع الشمس كل يوم . ولم يشوه : لم يخطئه .

وسحا وجما واسجماما بقيتها   على ذي حياء من قريش وذي ستر[1]
على رجل جلد القوى ذي حفيظة   جميل المحيا غير نكس ولا هذر[2]
على الماجد البهلول ذي الباع والندى   ربيع لؤي في القحوط وفي العسر
على خير حاف من معد وناعل   كريم المساعي طيب الخير والنجر[3]
وخيرهم اصلا وفرعاً ومعدناً   واحظاهم بالمكرمات وبالذكر
واولاهم بالمجد والحلم والنهى   وبالفضل عند المجحفات من الغبر[4]
على شيبة الحمد الذي كان وجهه   يضيء سواد الليل كالقمر البدر
وساقي الحجيج ثم للخير هاشم   وعبد مناف ذلك السيد الفهر
طوى زمزماً عند المقام فاصبحت   سقايته فخراً على كل ذي فخر
ليبك عليه كل عان بكربة   وآل قصي من مقل وذي وفر

الى آخر القصيدة .

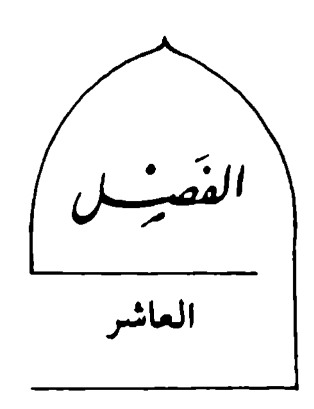
---

(١) سحا : أي صبا ـ وجما : اجمعا واكثرا ـ واسجما ـ اسيلا .

(٢) الحفيظة : الغضب مع عزه ـ والنكس من السهام : الذي نكس في الكنانة لتميزه الرامي فلا يأخذه لرداءته . وقيل الذي انكس اعلاه فنكس ورد اعلاه اسفله ، وهو غير جيد للرمي . والهذر : الكثير الكلام في غير فائدة .

(٣) النجر : الأصل .

(٤) المجحفات : التي تذهب بالاموال ـ والغبر : السنون المقحطات .



الفَصل

العاشر

البشائر .. في النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول ياتي من بعدي اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين** ﴾[1].

عن مجمع البيان عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان لي اسماء ، انا احمد ، وانا محمد ، وانا الماحي الذي يمحو الله في الكفر ... الى آخره .

وفي المجمع ايضاً : وقد تضمنت الآية أن عيسى بشر قومه بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبنبوته ، واخبرهم برسالته ، وفي هذه البشرى معجزة لعيسى (عليه السلام) عند ظهور محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). وأمر لأمته ان يؤمنوا به عند مجيئه »[2].

وجاء في تفسير الميزان عن القمي في قوله تعالى : ﴿ **ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه احمد** ﴾ الآية قال : وسأل بعض اليهود رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لما سُميت احمد ومحمدا ، وبشيرا ، ونذيراً ؟

---

(١) سورة الصف ، آية ٦ .

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي - ج ٢٨ ، ص ٦١ .

فقال : اما محمد فاني في الارض محمود ، وأما احمد فاني في السماء احمد مني في الارض . واما البشير ، فابشر من اطاع الله بالجنة ، وأما النذير فانذر من عصى الله بالنار .

وفي الدر المنثور في الآية اخرج ابن مردويه عن العرياض بن سارية ، سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يقول : اني عبد الله في ام الكتاب ، وخاتم النبيين وان آدم لمنجدل في طينته وسوف انبئكم تاويل ذلك ، انا دعوة ابراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤ يا أمي التي رأت أنه خرج منها نور اضاء له قصور الشام[1] وكان النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يُعرف عند الناس في عصره باسم احمد ـ ومحمد ويدلنا على ذلك قول ابي طالب (رضي الله عنه) .

وقالوا لاحمد انت امرء   خلوف اللسان ضعيف السبب
ألا إن احمد قد جاءهم   بحق ولم يأتهم بالكذب

وقال ايضا يخاطب العباس ، وحمزة وجعفرا ، وعليا ، ويوصيهم بنصر النبي :

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت   في نصر احمد دون الناس اتراسا

ونرى ابا طالب يخاطب قومه وقد سماه باسمه الآخر محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) :

ألم تعلموا انا وجدنا محمداً   نبياً كموسى خط في اول الكتب[2]

---

(١) الميزان في تفسير القرآن ـ للطباطبائي ، ج ١٩ ، ص ٢٥٦ .
(٢) المراد هنا ـ الكتب التي هي التوراة والانجيل .

ان البشائر التي وردت في كتب التاريخ والسير كثيرة وذلك قبل ظهور صاحب الرسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ولكن لا بد لنا من ذكر ايراد بعضها لإكمال بحثنا الذي نحن بصدده ولتتم الفائدة .

جاء في طبقات ابن سعد عن عامر بن ربيعة قال : « سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : انا انتظر نبياً ، من ولد اسماعيل ، ثم من بني عبد المطلب ، ولا اراني ادركه ، وانا أؤمن به واصدقه ، واشهد أنه نبي ، فان طالت بك مدة ، فرأيته . . . فأقرئه مني السلام . وسأخبرك ما نعته (اي وصفه) حتى لا يخفى عليك . قلت : هلم . قال : هو رجل ليس بالطويل ، ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ، ولا بقليله ، وليست تفارق عينيه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه احمد ، وهذا البلد (أي مكة) ، مولده ، ومبعثه .

ثم يخرجه قومه منها ، ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر الى يثرب فيظهر أمره ، فاياك ان تخدع عنه ، فاني طفت البلاد كلها اطلب دين ابراهيم ، فكل من اسأل من اليهود والنصارى ، والمجوس ، يقولون هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل ما نعته لك ، ويقولون لم يبق غيره .

قال عامر بن ربيعة : فلما اسلمت اخبرت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قول زيد بن عمرو ، واقرأته منه السلام . فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : قد رأيته في الجنة يسحب ذيوله .

وجاء في الطبقات عن زيد بن نفيل ايضاً قال :

قال زيد بن عمرو بن نفيل : شاممت النصرانية واليهودية ،

فكرهتها، فكنت بالشام وما والاه، حتى اتيت راهباً في صومعة، فوقفت عليه، فذكرت له اغترابي عن قومي، وكراهتي عبادة الاوثان، واليهودية والنصرانية . فقال لي : اراك تريد دين ابراهيم يا اخا اهل مكة . انك لتطلب دينا ما يؤخذ اليوم به . وهو دين ابيك ابراهيم ، كان حنيفاً لم يكن يهودياً ولا نصرانياً.

كان يصلي ، ويسجد الى هذا البيت الذي ببلادك ، فالحق ببلدك فان نبياً يبعث من قومك في بلدك ، يأتي بدين ابراهيم ، ـ بالحنيفية ـ وهو اكرم الخلق على الله[١].

وفي رواية : ان عبد المطلب رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الارض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور واذا اهل المشرق والمغرب كانهم يتعلقون بها . فقصها ، فعبرت بمولود يكون من صلبه ، ويتبعه اهل المشرق والمغرب ، ويحمده اهل السماء والارض. وقد صح في احاديث كثيرة أنه (صلى الله عليه وآله وسلم قال : لم أزل أنقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات[٢].

---

(١) طبقات ابن سعد الكبرى .

(٢) السيرة النبوية ـ لابن دحلان .

بعض ملوك اليمن . . والبشائر بظهور النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم)

من جملة البشائر التي سبقت ظهور صاحب الرسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كان من قصة بعض التبابعة ملوك اليمن ، وما جرى لهم من خوارق العادات ، التي زجرتهم (نوعاً ما) عن ضلالهم ، وارعووا ولو قليلا عن المضي في طغيانهم وكانت موعظة لهم .

جاء في تاريخ ابن الاثير قوله : « كان تبع وهو تبان اسعد ابو كرب حين اقبل من المشرق بعد ان ملك البلاد جعل طريقه على المدينة ، وكان حين مرَّ بها في بدايته لم يهج اهلها ، وخلف عندهم ابنا له ، فقتل غيلة ، فقدمها عازما على تخريبها واستئصال اهلها ، فجمع له الانصار حين سمعوا ذلك ورئيسهم عمرو بن الظلة احد بني عمرو بن مبذول من بني النجار وخرجوا لقتاله . وكانوا يقاتلونه نهاراً ويقرونه ليلا فبينما هو على ذلك اذ جاءه حبران من بني قريظة عالمان ، فقالا له : قد سمعنا ما تريد أن تفعل ، وانك إن ابيت الا ذلك حيل بينك وبينه ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة .

فقال : ولِمَ ذلك ؟ فقالا : انها مهاجر نبي من قريش تكون داره ، فانتهى عما كان يريد ، وأعجبه ما سمع منهما ، فاتبعهما على دينهما.

وكان قدم على تبع قبل ذلك شافع بن كليب الصدفي ، وكان كاهناً فقال له تبع : هل تجد لقوم ملكاً يوازي ملكي ؟ قال : لا الا لملك غسان ، قال : فهل تجد ملكا يزيد عليه ؟ قال : اجده لبار مبرور ، ورائد بالقهور ، ووصف في الزبور ، وفضلت أُمته في السفور[1] يفرج الظلمة بالنور ، احمد النبي ، طوبى لأمته حين تجيء ، احد بني لؤي . ثم احد بني قصي ، فنظر تبع في الزبور فاذا هو يجد صفة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)[2].

---

(١) المراد هنا في السفور الكتب .

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الاثير ـ ج ١ ، ص ٢٤٤ .

رؤيا ربيعة ملك اليمن ـ وتأويلها

يروي اهل التاريخ ان ربيعة احد ملوك اليمن رأى رؤ يا أهالته فاضطرب لها ، وطلب تأويلها من الكهنة، والسحرة ، واصحاب القيافة . فاشار عليه رجل منهم ان يرسل الى شق ـ وسطيح وكانا على ما يروى ان لهما قصب السبق في الكهانة . جاء عن ابن الاثير : « لما ملك ربيعة رأى رؤ يا هالته ، فلم يدع كاهنا ، ولا ساحراً ، ولا عائفا إلا احضره ، وقال لهم : رأيت رؤ يا هالتني فاخبروني بتأويلها ، فقالوا اقصصها علينا ، فقال : ان اخبرتكم لم اطمئن الى خبركم بتأويلها ، فلما قال ذلك : قال له رجل منهم : ان كان الملك يريد ذلك فليبعث الى سطيح ـ وشق فهما يخبرانك عما سألت ، وكان اسم سطيح ربيع بن ربيعة بن مسعود . وشق بن مصعب بن يشكر بن انمار . فبعث اليهما فقدم عليه سطيح قبل شق .

فلما قدم عليه سطيح سأله عن رؤ ياه وتأويلها، فقال سطيح : رأيت جمجمة خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض بهمة ، فاكلت منها كل ذات جمجمة . قال له الملك : ما اخطأت منها شيئاً فما عندك في تأويلها ؟ فقال : احلف بما بين الحرتين من جيش ، ليهبطن ارضكم الحبش فليملكن ما بين أبين الى جرش قال الملك : وابيك يا سطيح ان هذا لغائظ موجع فمتى يكون ؟ افي زماني ام بعده ؟ قال : بل بعده بحين

ستين سنة او سبعين ، يمضي من السنين . قال : هل يدوم ذلك من ملكهم ام ينقطع؟قال : بل ينقطع لبضع وسبعين يمضين من السنين ، ثم يقتلون بها اجمعون ، ويخرجون منها هاربين .

قال الملك : ومن الذي يلي ذلك ؟ قال : يليه ارم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك احداً منهم باليمن قال : فيدوم ذلك من سلطانه أو ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، يقطعه نبي زكي ، يأتيه الوحي من العلي ، وهو رجل من ولد غالب ابن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه الى آخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون ، قال : احق ما تخبرنا يا سطيح ؟ قال : نعم ، والشفق والغسق والفلق اذا اتسق انما نبأتك به لحق .

ثم قدم عليه شق فقال : يا شق إني رأيت رؤ يا هالتني ، فاخبرني عنها وعن تأويلها ؟ وكتمه ما قال سطيح لينظر هل يتفقان ام يختلفان .

قال شق : نعم، رأيت جمجمة خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة واكمة ، فاكلت منها كل ذات نسمة . فلما سمع الملك ذلك قال : ما اخطأت شيئاً ، فما تأويلها ؟ قال : احلف بما بين الحرتين[1] من انسان ، لينزلن أرضكم السودان ، وليملكن ما بين أبين الى نجران .

---

(١) الحرة ـ هي ارض ذات حجارة سود نخرة كانها احرقت بالنار . الجمع حرات .ولعل المراد هنا بقوله ما بين الحرتين . حرتي المدينة ـ حرة قبا ، وحرة واقم . والله العالم .

قال الملك : وابيك يا شق ان هذا لغائظ ، فمتى هو كائن ؟ قال : بعدك بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان ، ويذيقهم اشد الهوان ، وهو غلام ليس بدني ولا مزن ، يخرج من بيت ذي يزن . قال : فهل يدوم سلطانه أم ينقطع قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين اهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه الى يوم الفصل .

قال الملك : وما يوم الفصل ؟ قال : يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى من السماء بدعوات ، ويسمع منها الاحياء والأموات ، ويجتمع فيه الناس للميقات[1].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

قصة رؤيا كسرى ملك الفرس

يروي ابن دحلان في سيرته : «أن الرشيد اراد هدم الايوان (ايوان كسرى) فقال له وزيره يحي بن خالد البرمكي : يا امير المؤمنين لا تهدم بناء هو آية الاسلام ، فقد تداعى ايوان كسرى وشرفاته ، ورأى الموبذان وهو القاضي الكبير ، وقيل خادم النيران الكبير ورئيس الاحكام ، في منامه ، ابلا صعابا ، تقود خيلاً عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلاده . وكان كسرى قد رأى ما هاله وأفزعه من ارتجاس الايوان[1] وسقوط الشرفات ، فلما اصبح تصبر ولم يظهر الانزعاج لهذا الامر الذي رآه تشجعاً . ثم رأى انه لا يدخر هذا الأمر عن مرازبته ، وفرسانه وشجعانه . فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره ثم بعث اليهم . فلما اجتمعوا قال : أتدرون فيما بعثت اليكم ؟ قالوا لا إلا ان يخبرنا الملك .

فبينما هم كذلك اذ ورد عليه (اي كسرى) كتاب بخمود النيران . وكتاب من صاحب ايليا يخبره ان بحيرة ساوى غاضت تلك الليلة .

---

(١) الارتجاس ـ الصوت ـ ارتجست السماء رعدت : والبناء تحرك واهتز فسمع له صوت . المنجد في اللغة .

وورد عليه كتاب صاحب الشام يخبره ان وادي سماوة انقطع ، وكتاب صاحب طبرية أن الماء لم يجر في بحيرة طبريا .

فازداد كسرى غما الى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى ، وما هاله من ارتجاس الايوان ، وسقوط الشرفات . فقال الموبذان : فانا اصلح الله الملك رأيت في هذه الليلة رؤ يا ، ثم قص عليه رؤ ياه في الليل . فقال كسرى : أي شيء هذا يا موبذان ؟ قال : حدث يكون في ناحية العرب ، فابعث الى عـاملك بالحيـرة يوجـه اليك رجـلا من علمائهم ، فانهم اصحاب علم بالحدثان . فكتب كسرى عند ذلك :

ـ من كسرى ملك الملوك الى النعمان بن المنذر . اما بعد فوجه الي رجلا عالماً بما اريد أن اسأله عنه ـ فوجه اليه بعبد المسيح الغساني وهو معدود من المعمرين عاش مائة وخمسين سنة . فلما ورد عليه قال له كسرى : ألك علم بما أُريد ان أسألك عنه ؟ قال : ليسألني الملك بما أحب ، فان كان عندي علم منه اعلمته ، وإلا أخبرته بمن يعلمه .

فاخبره بالذي وجه اليه فيه . قال : علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام اي اعاليه ـ وهي الجابية المدينة المعروفة ـ يقال له سطيح .

قال : فأته فاسأله عما سألتك عنه ، ثم إإتني بتفسيره .

فخرج عبد المسيح حتى انتهى الى سطيح ، وقد اشفى على الضريح ـ أي الموت ـ وعمره اذ ذاك ثلاثمائة سنة .

فسلم عبد المسيح على سطيح وكلمه ، فلم يرد عليه سطيح جوابا فانشأ يقول عبد المسيح الابيات المشهور التي اولها (أصم ام يسمع غطريف اليمن) .

فلما سمع سطيح شعر عبد المسيح رفع رأسه وقال : عبد المسيح على جمل مشيح ـ اي سريع ـ جاء الى سطيح ، وقد وافى الضريح ، بعثك ملك ساسان لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . رأى ابلاً صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها .

يا عبد المسيح ، اذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس . فليس بابل للفرس مقاما ، ولا الشام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت ، ثم مات سطيح من ساعته .

وعند موت سطيح نهض عبد المسيح الى رحله وهو يقول ابياتاً منها :

شمر فانك ماضي العزم شمير ولا يغرنك تفريق وتغيير
والناس اولاد علات فمن علموا ان قد أقل فمحقور ومهجور
والخير والشر مقرونان في قرن والخير متبع والشر محذور

فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره بما قال سطيح . قال كسرى : ـ الى ان يملك منا اربعة عشر ملكاً كانت امور وامور.[1]ـ

اقول : يشير البوصيري في قصيدته المشهورة في تداعي ايوان كسرى وخمود نيران فارس بقوله :

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن دحلان ـ.

وتداعى ايوان كسـرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغـدا كـل بيت نـار وفيـه كـربـة من خمـودهـا وبـلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ن لـنيـرانهم بهـا اطـفـاء

ذكر بعض الروايات المبشرة بمبعث النبي محمد
(صلى الله عليه وآله وسلم)

يقول اليعقوبي في تاريخه : عن احد اجداد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ان كعب بن لؤي كان اعظم ولد ابيه قدراً واعظمهم شرفاً ، وكان أول من سمى يوم الجمعة (بالجمعة : وكانت العرب تسميه (عروبة) فجمعهم فيه وكان يخطب عليهم فيقول : اسمعوا وتعلموا ، وافهموا واعلموا ، أن الليل ساج ، والنهار ضاح ، والارض مهاد ، والسماء عماد ، والجبال اوتاد ، والنجوم اعلام، والأولون كالآخرين ، والابناء ذكر فضلوا أرحامكم ، واحفظوا اصهاركم ، وثمروا اموالكم[1]فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت نشر ، الدار امامكم ، والظن غير ما تقولون ، وحرمكم زينوه ، وعظموه وتمسكوا به فسيأتي نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، ثم يقول :

نهار وليل كل اوب بحادث ... سواء علينا ليلها ونهارها
يأوبان بالاحداث حين تأوبا ... وبالنعم الضافي علينا ستورها
صروف وانباء تغلب اهلها ... لها عقد ما يستحل مريرها
على غفلة يأتي النبي محمد ... فيخبر اخباراً صدوقاً خبيرها

---

(١) قول كعب (ثمروا اموالكم) مراده التجارة . لان اصل مكة اكثرهم تجار . ولان اجداد النبي كانوا مسلمين ـ مؤمنين ـ غير مرابين .

ثم يقول : يـا ليتني شاهـد نجوى دعوته ، لـو كنت ذا سمع وذا بصر ، ويد . . . ورجل ، لتنصبت له تنصب الجمل ، ولا رقلت[1] ارقال الفحل ، فرحا بدعوته ، جذلاً بصرخته . فلما مات كعب أرخت قريش من موته »[2] .

« روي أن يهوديا قال لعبد المطلب جد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

يا سيد البطحات ان المولود الذي كنت حدثتكم عنه قد ولد البارحة ، فقال عبد المطلب : لقد وُلد لي البارحة غلام ، قال اليهودي ؟ ما سميته ؟ قال : سميته محمداً ، قال اليهودي : هذه ثلاث يشهدن علي بنبوته ، احداهن : ان نجمه طلع البارحة ، والثانية : ان اسمه محمد ، والثالثة : انه يولد في صبابة قومه ، وانت يا عبد المطلب صبابتهم[3]» .

ومنها ما روي ان حسان بن ثابت قال : والله إني لعلى أطمي[4]فارع في السحر اذ سمعت صوتا لم اسمع صوتا قط انفذ منه ، واذا هو صوت يهودي على اطم من آطام اليهود ، معه شعلة نار ، فاجتمع الناس اليه وانكروا صراخه فقالوا : مالك ويلك ؟ ! قال حسان : فسمعته يقول : هذا كوكب احمر قد طلع ، وهو كوكب لا

---

(١) أرقل ارقال الفحال : أي اسرع . والمرقلة من الابل المسرعة .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٣) صبابتهم ـ جمع صبابة ـ وصبابة القوم : خالصتهم ، وخيارهم .

(٤) الاطم : حصن مبني بحجارة ، أو كل بيت مربع مسطح .

يطلع الا بالنبوة ولم يبق من الانبياء الا احمد ، قال حسان : فجعل الناس يضحكون منه ، ويعجبون لما اتى به ، قال : وكان ابو قيس احد بني عدي بن النجار قد ترهب ولبس المسوح ، فقيل له يا ابا قيس ! انظر ما قال هذا اليهودي قال : صدق وان انتظار احمد هو الذي صنع به ما صنع، ولعلي ان ادركه فأؤمن به ، فلما بلغه ظهور النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة آمن به ، وقدم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة وقد نالت السن من ابي قيس .

وفي نهاية الارب ايضا عن شيخ من قريظة قال : قدم علينا رجل من الشام من يهود يقال له ابن الهيبان ، وكنيته ابو عمير ، فاقام عندنا ، والله ما رأينا رجلا قط لا يصلي الخمس خيراً منه ، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله (صلى اللهلآ عليه وآله وسلم) بسنين ، فكنا اذا اقحطنا وقل علينا المطر نقول : يا بن الهيبان ، اخرج فاستسقي لنا ، فيقول : لا والله ، حتى تقدموا امام مخرجكم صدقة ، فنقول : كم ؟ فيقول : صاعا من تمر أو مدين من شعير فنخرجه .

ثم يخرج الى ظاهر حرتنا ونحن معه ، فيستسقي ، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى يمر السحاب ، قد فعل ذلك غير مرة ، ولا مرتين ، ولا ثلاثة ، فحضرته الوفاة ، واجتمعنا اليه فقال : يا معشر يهود ، ما ترونه اخرجني من ارض الخمر[1]والخمير الى ارض البؤس والجوع ؟ قالوا : انت أعلم . قال : انه انما اخرجني أني اتوقع خروج نبي قد اظل زمانه ، هذه البلاد مهاجره ، وكنت ارجو ان يبعث فاتبعه ، وقد أظلهم زمانه ، فلا تسبقن اليه اذا خرج يا معشر يهود ، فانه يبعث بسفك

(١) من اهل الخمر بالتحريك واسكان الميم ، وهو الشجر الملتف .

الدما ، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك منه . ثم مات[1].

وفي سيرة ابن دحلان : قال : كان بمر (الظهران) راهب من اهل الشام ، يدعى (عيص) وكان قد اتاه الله علماً كثيراً ، وكان يلزم صومعة له ، ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول : يوشك أن يقرب ان يولد فيكم مولود يا أهل مكة ، تدين له العرب وتخضع ، ويملك العجم ارضها وبلادها ، هذا زمانه فمن ادركه وادرك بعثته واتبعه اصاب حاجته ، وما يؤمله من الخير . ومن ادركه وخالفه اخطأ حاجته ، فكان لا يولد مولود بمكة الا ويسأل عنه فيقول ما جاء بعد .

فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج عبد المطلب حتى اتى عيصا ، فوقف على اصل صومعته فناداه ، فقال : من هذا ؟ فقال : انا عبد المطلب . فقال : كن أباه ، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه ـ وبه . وأن نجمه طلع البارحة ، وعلامة ذلك ايضاً أنه وجع فيشتكي ـ أي لا يرضع ثلاثاً ـ ثم يعافى ، فاحفظ لسانك ، لا تذكر ما قلته لك لاحد من قومك ، فانـه لم يحسد أحدٌ حسده ، ولم يبغ على احد كما يبغى عليه ، قال : فما عمره . . . قال : ان طال عمره لم يبلغ السبعين ، يموت في وترٍ دونها ، وذلك جل اعمار أمته .[2]

---

(١) نهاية الارب ـ للنويري ـ ج ١ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) السيرة النبوية ـ لابن دحلان .

قصة سلمان الفارسي ... واسلامه

من جملة البشائر بنبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل مبعثه ، ما يحدثنا عنه التاريخ من قصة سلمان الفارسي (رضي الله عنه): وسبب اسلامه ، وهجرته الى المدينة : « روي عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) قال : حدثني سلمان الفارسي من فيه، قال : كنت رجلا فارسيا من اهل اصبهان ، من اهل قرية يقال لها ـ جيّ ـ وكان ابي دهقان[1] قريته ، وكنت أحب خلق الله اليه ، ثم لم يزل به حبه اياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية .

واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار[2] الذي يوقدها ، لا يتركها تخبو ساعة ، قال : وكان لابي ضيعة عظيمة ، فشغل في بنيان له يوما ، فقال يا بني : اني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب اليها ، فامرني فيها ببعض ما يريد ثم قال : ولا تحتبس عني فانك ان احتبست عني كنت أهم الي من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري ، قال : فخرجت اريد ضيعته التي بعثني اليها ، فمررت

---

(١) الدهقان ـ رئيس الاقليم ، او مقدم القريـة ، او زعيم فلاحي العجم (تـاج ـ العروس) .

(٢) قطن النار ـ خادمها .

بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت اصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري ما امر الناس لحبس أبي اياي في بيته . فلما سمعت اصواتهم دخلت عليهم انظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم اعجبتني صلاتهم ، ورغبت في امرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة ابي فلم آتها ، ثم قلت لهم : اين اصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام . فرجعت الى ابي وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أي بني ! أين كنت ؟ ألم اكن عهدت اليك ما عهدت ؟ قلت : يا أبتي مررت باناس يصلون في كنيسة لهم ، فاعجبني ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أي بني ! ليس في ذلك الدين خير . . دينك ودين آبائك خير منه ، قلت له : كلا والله انه لخير من ديننا ، قال : فخافني فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته .

اتفاق سلمان مع النصارى على الهرب الى الشام

قال سلمان : وبعثت الى النصارى فقلت لهم : اذا قدم عليكم ركب من الشام فاخبروني بهم .

قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فاخبروني بهم ، فقلت اذا قضوا حوائجهم وارادوا الرجعة فآذنوني بهم .

فلما ارادوا الرجعة الى بلادهم أخبروني بهم ، فالقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : من افضل هذا الدين علماً؟ قالوا : الاسقف في الكنيسة ، فجئته

فقلت : اني رغبت في هـذا الدين ، واحببت أن اكـون معك وأخـدمك في كنيستك ، واتعلم منك ، وأصـلي معك ، قـال : ادخل ، فـدخلت معه ، فكان رجل سوء ،يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيهـا ،فذا جمعـوا إليه شيئـاً منها اكتنـزه لنفسه ولم يعـطه المساكـين ، حتى جمع سبـع قـلال من ذهب وورق .

قال سلمان : وابغضته بغضاً شديدا لما رأيته يصنع ، ثم مات فـاجتمعت له النصارى ليدفنوه فقلت لهم : ان هذا كـان رجـل سوء ، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فاذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً ، فقالوا لي : وما علمك بذلك ؟ قلت : أنا ادلكم على كنزه قالوا : فدلنا عليه ، فاريتهم موضعه ، فاستخرجوه سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا ، فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه ابداً . فصلبوه ورجموه بالحجارة ، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه .

قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس أرى انه افضل منه ، وازهد في الدنيا ، ولا أرغب في الآخرة ، ولا أدأب ليلا ونهاراً منه ، قال : فاحببته حباً لم احبه شيئاً قبله ، فاقمت معه زمانا ، ثم حضرته الوفاة فقلت له : يا فلان اني قد كنت معك واحببتك حباً لم احبه شيئاً قبلك ، وقد حضرك مـا ترى من امـر الله تعالى ، فـالى من تـوصي بي ؟ وبما تـأمرني ؟ قـال : أي بني ، والله مـا اعلم اليـوم احـداً على ما كنت عليه ، فقد هلك النـاس ، وبدلـوا وتركـوا اكثر مـا كَانَـوا عليـه ، إلا رجلا بـالموصـل ، وهو فـلان ، وهو عـلى مـا كنت عليـه ، فالحق به .

قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له : يا فلان

ان فلاناً اوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني انك على أمره فقال لي : اقم عندي ، فاقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، لما حضرته الوفاة قلت له : يّا فلان إن فلانا اوصى بي اليك وامرني باللحوق بك وقد حضرك من امر الله ما ترى ، فالى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال : يا بني والله ما اعلم رجلا على مثل ما كنا عليه الا رجلا بنصيبين[1] وهو فلان ، فالحق به ، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين ، فاخبرته خبري وما امرني به صاحبي ، فقال : أقم عندي ، فاقمت عنده فوجدته على امر صاحبيه ، فاقمت مع خير رجل فوالله ما لبث ان نزل به الموت فلما حضر قلت له : يا فلان ان فلانا كان اوصى بي الى فلان ثم اوصى بي فلان اليك ، فالى من توصي بي وبم تأمرني ؟ قال يا بني : والله ما اعلمه بقي احدعلى أمرنا ، آمرك أن تأتيه إلا رجلا (بعمورية)[2] من ارض الروم ، فانه على مثل ما نحن عليه ، فان احببت فاته فانه على امرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية فاخبرته خبري ، فقال : أقم عندي فاقمت عند خير رجل ، على هدي اصحابه وامرهم . قال : واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة . قال : ثم نزل به أمر الله تعالى ، فلما حُضر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان فاوصى بي الى فلان . ثم اوصى بي فلان الى فلان، ثم اوصى بي فلان اليك ، فالى

---

(١) نصيبين : بالفتح ثم الكسر ـ مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل الى الشام .

(٢) عمورية : بفتح أوله وتشديد ثانيه ، بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم . =

من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : أي بني ، والله ما اعلمه اصبح اليوم احد على ما مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه . ولكنه قد أظل زمان نبي ، وهو مبعوث بدين ابراهيم (عليه السلام) ، يخرج بارض العرب، مهاجره الى ارض بين حرتين[1]، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفية خاتم النبوة ، فان استطعت ان تلحق بتلك البلاد فافعل . ثم مات وغيب .

= وسميت بعمورية نسبة الى عمورية بنت الروم بن اليغز بن سام بن نوح ـ معجم البلدان ـ .

(١) الحرة : كل ارض ذات حجارة سوداء .

سلمان وذهابه الى الحجاز

لنقف قليلا لنسمع صدى التاريخ وهو يحدثنا عن سلمان وما كان من امره بعد موت صاحبه بعمورية ، وما جرى عليه في مسيره الى الحجاز .

قال سلمان : ومكثت بعمورية ما شاء الله ان امكث ، ثم مرَّ بي نفر من كلب تجار ، فقلت لهم : احملوني الى ارض العرب واعطيكم بقراتي هذه وغُيمتي هذه ، قالوا : نعم . فاعطيتموها وحملوني معهم ، حتى اذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً . فكنت عنده ورأيت النخل ، فرجوت ان يكون البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم يحق في نفسي . فبينا انا عنده اذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه ، فاحتملني الى المدينة ، فوالله ما هو الا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي ، فاقمت بها ، وبُعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاقام بمكة ما اقام ، لا اسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر الى المدينة . فوالله إني لفي رأس عذق[1] لسيدي اعمل له فيه بعض العمل ، وسيدي جالس

---

(١) العذق : بالفتح ـ النخلة . وبالكسر كل غصن له شعب يقال في بني فلان عذق كهل : أي عز بلغ غايته ـ وأصله الكباسة اذا اينعت ، ضربت مثلا للعز القديم . ـ المنجد في اللغة ـ

تحتي ، اذا اقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يا فلان ، قاتل الله بني قيلة[1] والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء[2] على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي قال سلمان : فلما سمعتها اخذتني العُرَواء[3] . حتى ظننت أني ساسقط على سيدي ، فنزلت عن النخلة ، فجعلت اقول : ماذا تقول ؟ . . ماذا تقول ؟ فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة ، ثم قال : ما لك ولهذا ؟! اقبل على عملك قال : قلت : لا شيء ، انما أردت أن استثبته عما قال .

---

(١) قيلة : بنت كاهل بن عذرة ـ ام الأوس والخزرج .

(٢) قباء : بالضم ـ اصله اسم بئر عرفت القرية بها وهي مساكن بني عمرو بن عوف من الانصار . وتقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد الى مكة ـ معجم البلدان

(٣) العُروَاء : الرعدة والانتفاضة من الحمَّى والبرد .

ذهاب سلمان الى النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

لقد تحمَّل سلمان (رضي الله عنه) من المشقة والتعب والألم ما لا تبرك عليه الابل حتى آل به الامر الى الرق، وهو يبحث عن الدين الذي يطمئن اليه قلبه، دين ابراهيم الحنيف.

لهذا نجده (رضي الله عنه) عندما سمع بذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو على النخلة اخذته العُرواء من السرور الذي حل في نفسه، وشعاع الامل، لاهتدائه الى غايته المرجوة.

قال سلمان: كان عندي شيء قد جمعته فلما امسيت اخذته، ثم ذهبت به الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: انه قد بلغني انك رجل صالح، ومعك اصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم احق به من غيركم، قال: فقربته اليه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لاصحابه كلوا، وامسك يده فلم يأكل.

قال سلمان: فقلت في نفسي: هذه واحدة، قال: ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى المدينة، ثم جئته به فقلت له: اني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية اكرمتك بها، قال: فاكل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

منها . وأمر اصحابه فأكلوا معه . قال : فقلت في نفسي : هاتان اثنتان . ثم جئت رسول الله (صلى الله عيه وآله وسلم) وهو ببقيع الغرقد[1] قد تبع جنازة رجل من اصحابه[2] وعلي شملتان[3] لي ، وهو جالس في اصحابه ، فسلمت عليه ، ثم استدرت انظر الى ظهره ، هل ارى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ، فلما رآني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) استدبرته[4] عرف اني استثبت في شيء وصف لي ، فالقى رداءه عن ظهره ، فنظرت الى الخاتم فعرفته. فاكببت عليه اقبله وابكي . فقال لي رسول الله (صَلى الله عليه وآله وسلم) : تحول ، فتحولت فجلست بين يديه ، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا بن عباس . فاعجب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسمع ذلك اصحابه »[5] .

هذه قصة سلمان الفارسي (رضي الله عنه) كما رواها اكثر اهل التاريخ واصحاب السير . وسنذكر بقية احوال سلمان في باب لاحق من هذا الكتاب انشاء الله .

---

(١) بقيع الغرقد : مقبرة اهل المدينة ـ وهي داخل المدينة .

(٢) هو كلثوم بن الهدم ، وكان أول من توفي من المسلمين بعد مقدمه (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة .

(٣) الشملة : الكساء الغليظ يشتمل به الانسان أي يلتحف به .

(٤) ويروى : استدير به .

(٥) لقد ذكر قصة سلمان الفارسي ـ ابن هشام في سيرته ـ والنويري في نهاية الارب وابن دحلان في سيرته والسيرة الحلبية وغيرهم .

وجاء في طبقات ابن سعد عن عائشة قالت : سكن يهودي بمكة يبيع بها تجارات فلما كان ليلة ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في مجلس من مجالس قريش : هل كان فيكم من مولود هذه الليلة ؟ قالوا : لا نعلمه ، قال : اخطأت والله حيث كنت اكره . انظروا يا معشر قريش واحصوا ما اقول لكم ، ولد الليلة نبي هذه الأمة (احمد) فان اخطأكم فبفلسطين. به شامة بين كتفيه سوداء، صفراء ، فيها شعرات متواترات . فتصدع القوم من مجالسهم وهم يعجبون من حديثه فلما صاروا في منازلهم ذكروا لاهاليهم فقيل لبعضهم ولد لعبد الله بن عبد المطلب الليلة غلام فسماه (محمدا) فالتقوا بعد من يومهم ، فاتوا اليهودي في منزله فقالوا : اعلمت انه ولد فينا مولود ، قال : ابعد خبري ام قبله ؟ قالوا : قبله واسمه احمد ، قال : فاذهبوا بنا اليه .

فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه ، فاخرجته اليهم ، فرأى الشامة في ظهره ، فغشي على اليهودي ، ثم افاق فقالوا له : ويلك ، مالك . . قال : ذهبت النبوة من بني اسرائيل ، وخرج الكتاب من ايديهم ، وهذا مكتوب يقتلهم ويبز اخبارهم .

فازت العرب بالنبوة ، افرحتم يا معشر قريش ؟ ! اما والله ليسطون بكم سطوة يخرج نبوها من المشرق الى المغرب »[1]

جاء في صبح الأعشى ان اول من بنى يثرب (مدينة الرسول) هو تبع الاول ، وذكر من قصته ما يلي :

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

« ذكر انه مرَّ بمكانها (يثرب) وهي يومئذٍ منزلة بها اعين ماء ، فاخبره اربعمائة عالم من علماء أهل الكتاب لهم عالم يرجعون اليه ، أن هذا موضع مهاجر نبي يخرج في آخر الزمان من مكة اسمه محمد ، وهو امام الحق .

فآمن تبع بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم). وبنى المدينة ، وانزلهم بها ، واعطى كلا منهم مالاً يكفيه ، وكتب كتاباً فيه :

« اما بعد يا محمد فاني قد آمنت بك وبربك ، وبكل ما جاء من ربك ، من شرائع الاسلام والايمان ، واني قلت ذلك ، فان ادركتك فبها ونعمت ، وان لم ادركك فاشفع لي يوم القيامة ، ولا تنسني فاني من امتك الأولين وتابعتك قبل مجيئك ، وقبل أن يرسلك الله وانا على ملة ابيك ابراهيم . . » .

وختم الكتاب ونقش عليه : (لله الامر من قبل ومن بعد . . ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله).

وكتب عنوانه :

« الى محمد بن عبد الله خاتم المرسلين ، ورسول رب العالمين . (صلى الله عليه وآله وسلم) . . من تبع الأول حمير . . امانة الله في يد من وقع اليه ان يدفعه الى صاحبه ».

ودفع (تبع) الكتاب الى رئيس العلماء المذكورين[1] وتداوله بنوه

---

(١) وهم الاربعون ـ العلماء الذين ورد ذكرهم في الرواية .

بعده ، الى ان هاجر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، الى المدينة فتلقاه به بعض اولاد ذلك العالم ، بين مكة والمدينة ، وتاريخ الكتاب يومئذٍ الف سنة بغير زيادة ولا نقص»[1].

اقول : والبشائر التي وردت في صاحب الرسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كثيرة جدا يضيق عنها المجال .

لكن ذكرنا القليل من الاخبار . من باب الشاهد والبرهان لتتميم الفائدة وسنذكر قصة بحيرا الراهب وغيره في موضع آخر من هذا الكتاب انشاء الله .

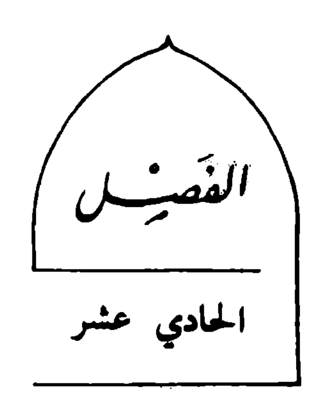
واختم كلامي في هذا الباب بقول صاحب الهمزية :

ما مضت فترة من الرسل إلا بشـرت قومهـا بك الانبيـاء

كما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال : انا دعوة ابي ابراهيم . . . . وبشرى اخي عيسى بن مريم . . . ورؤ يا امي آمنة . . . قالت : خرج مني نور اضاءت له قصور الشام .

---

(١) صبح الأعشى : للقلقشندي ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .



الفصل

الحادي عشر

منقذ الانسانية محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

لقد قضت ارادة القادر على كل شيء تفضلا منه سبحانه ان تكون الجزيرة العربية مهد الدين الإسلامي والتطور الاجتماعي ، والصعود في معارج التقدم والرقي ، بقيادة النبي العربي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) صاحب المقام العلي المحمود عند ربه حيث اجتباه سبحانه على فترة من الرسل ، وارسله بالهدى ودين الحق الى الناس كافة ، ليهديهم الى سواء السبيل .

ارسله الباري سبحانه وتعالى داعيا،ومبشراً ونذيرا،لينقذ البشر من حمأة الشرك والضلال،وعبادة الاصنام ،فكان جزاؤه(صلى الله عليه وآله وسلم) من جبابرة قومه ، وعتاة قريش ، الاذى ، والاضطهاد ، والحرمان ، حتى قال (عليه الصلاة والسلام) : (ما اوذي نبي مثل ما اوذيت) جاء الاسلام بالوحي الالهي ، ليطهر النفوس من ادران الشرك وهو جامع لكل ما يحتاجه الانسان في الحياتين ، الدنيوية والاخروية ، واطلق للعقل الحرية ليواكب العلم الى جنب الدين . فانتشر بفيض احكامه ، واحتل القلوب وخدم الانسانية وشاد دعائم حضارتها على العلم والعرفان ، والعقيدة والايمان .

لم يكن للعرب في بداوتهم قبل الاسلام من العلوم الا ما يحتاجون اليه في حياتهم الفطرية كما يحدثنا التاريخ بذلك .

لقد عرف العرب الطب والبيطرة ، وكان لهم معرفة بعلم النجوم ، ومهاب الرياح وغيرها .

كذلك كانوا يتداولون اخبار الأمم الغابرة ، والانساب ، وكان لهم قصب السبق بالفروسية ، والقيافة ، والعرافة ، أما الكهانة فكان لهم فيها القدح المعلى واشتهر الكثير منهم في هذا الميدان امثال سطيح وشق وغيرهما .

اما الشعر الذي هو عند العرب (اكسير حياتهم) فكان له اسواق على مدار السنة ، وفي اماكن مختلفة ، اقدمها واهمها سوق (عكاظ)[1]كان يجتمع فيه الناس من جميع الاقطار العربية ، واحيانا تشترك فيه ملوكهم بالعطاء والتشجيع . وتتسابق فيه الخطباء والشعراء ، على اختلاف ميولها الدينية والسياسية . حتى صارت هذه السوق بطبيعة الحال موسما لاهل الادب واللغة ، يتعارفون ، ويتناشدون الاشعار ، ويتفاخرون ، يبيعون ويشترون ، ويتبادلون سلعهم . وفيها انشد اصحاب المعلقات قصائدهم المشهورة .

وكان للعرب ايضاً اندية غير هذه الاسواق يجتمعون فيها للتداول ، والتشاور ، وتبادل الآراء ، منها نادي قريش ، ودار الندوة ، التي بجوار الكعبة وغيرهما كما أسلفنا .

في تلك الحقبة من الزمن كانت الدولة الرومانية ، والدولة الفارسية وهما الدولتان الكبيرتان تتنازعان السلطة على العالم ، والعداوة بينهما

---

(١) أقيمت سوق عكاظ قبل القرن السادس للميلاد ، على مقربة من الطائف .

قديمة موروثة ، تشتعل نيران الحرب بينهما ، والدماء تسيل على مذبح مطامع اهل الحكم والسلطان كما شرحنا هذا فيما سبق من هذا الكتاب .

ولما اشتد الظلم والطغيان من هاتين الدولتين يسوقون الناس للموت في ساحات الوغى ، لتركيز دعائم عروشهم .

وحينما غرق العالم في بحر من الظلم والجور ، وتاهت الخلائق في بيداء الضلالة ، وحيرة الجهالة . وانصرفت الى عبادة المتسلطين من الحكام ، وتقديس الاوثان ، والكواكب ، والنيران . . الى آخره .

كان العرب في ذلك الوقت كغيرهم من الأمم ، يتنافسون في القتل والقتال ، ويتباهون بالبغي والعدوان ، يشعلون نار الحرب لهفوة ، أو لغلطة او سفاهة . يغزو بعضهم بعضا ، يتفاخرون بالسطو والبطولة ، وقوة البأس ، ويتبارون في وأد البنات ويأتون المنكرات ، وينتهكون الحرمات ، ويستبيحون المحرمات ، لا يعرفون سوى الملذات والشهوات .

وعندما انحطت المدارك ، ووهنت العقول ، وفشى الظلم والجور ، واحتار المدركون ، وتناكرت الامم . .

في تلك العصور المظلمة ، قضت حكمة الخالق الجبار تعالى ان تكون ولادة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المشعل الذي بنوره اضاء الكون .

محمد بن عبد الله خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، ورحمة الله الى الخلق اجمعين . الذي انقذ العالم واخرجه من الظلمات الى النور .

محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، الرسول المنقذ ، رافع منار التوحيد ، وقائد الناس الى السعادة ، وخير الدنيا والآخرة .

محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مّن بني هاشم سادة العرب ، وخيرتهم اختاره الله سبحانه من الاصلاب الطاهرة ، والارحام المطهرة ، نبياً ورسولاً ، وهدى ورحمة للعالمين .

نسب النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

رسول الله هو ابو القاسم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بن عبد الله بن عبد المطلب ـ واسم عبد المطلب : شيبة الحمد ـ بن هاشم ـ واسم هاشم : عمرو ـ بن عبد مناف ـ واسم عبد مناف : المغيرة ـ بن قصي ـ واسم قصي زيد ـ بن كلاب ـ بن مرَّة ـ بن كعب ـ بن لؤي ـ بن غالب ـ بن فهر : والى فهر جماع قريش ، ومن كان فوق فهر فليس هو بقرشي .

وفهر هو ابن مالك ـ بن النضر ـ بن كنانة ـ بن خزيمة ـ بن مدركة ـ واسم مدركة : عامر ـ بن الياس ـ بن مضر ـ بن نزار ـ بن معد ـ بن عدنان ـ بن أدد ـ بن اليسع ـ بن سلامان ـ بن نبت ـ بن حمل ـ بن قيذار ـ بن اسماعيل الذبيح ـ بن ابراهيم الخليل (عليه السلام)[1] الى آدم (عليه السلام).

هذه الارومة الطاهرة التي فاقت السهى شرفا ، والتي أشرقت انوارها ، وانتشرت اخبارها ، وعمت فضائلها ، وحسنت أوصافها ،

(١) هذا نسب النبي (محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ما ذكره اكثر اهل التاريخ ـ والسير . مع اختلاف بسيط من ابراهيم الخليل (عليه السلام) حتى آدم (عليه السلام) في لفظ بعض الاسماء .

وطابت اصائلها ، وكثرت محاسنها ، وظهرت آياتها ، واشتهرت معجزاتها ، جاءت في ظلمة الضلالة تنير الآفاق ، وما انكر العدو فضائل هذه النخبة بفضل ما تحلت به من الكمالات .

وفضائل شهد العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الاعداء

والى شرف هذا النسب العريق يشير صاحب الهمزية بقوله :

وبدا للوجود منك كريم من كريم آباؤه كرماء
نسب تحسب العلا بحلاه[1] قلدتها نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار انت فيه اليتيمة العصماء

---

(١) بحلاه ـ المراد هنا ما تحلى به هذا النسب من الكمال والجلال .

حمل آمنة برسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

لما تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنة بنت وهب حملت برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . وذلك في دار وهيب بن عبد مناف على بعض الاقوال ، وقيل حملت آمنة برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في شعب ابي طالب عند الجمرة الوسطى وكان ذلك في ايام التشريق[1] .

ويروى عن آمنة أنها لما حملت بالنبي كانت تقول : ما شعرت أني حملت به ولا شعرت به ثقلا .

وفي رواية اخرى عن آمنة ايضا : كانت تحدث وتقول : اتاني آت حين مرَّ بي من حملي ستة اشهر في المنام وقال لي : يا آمنة انك حملت بخير العالمين ، فاذا ولدتيه فسميه محمداً واكتمي شأنك .

وفي رواية اخرى : لما حملت آمنة برسول الله كانت تقول : ما شعرت اني حملت به ولا وجدت له ثقلة[2] كما تجد النساء ، واتاني آت ،

---

(١) ايام التشريق هي : الحادي عشر ـ والثاني عشر ـ والثالث عشر من ذي الحجة وسُميت أيام التشريق لأنهم كانوا يشرقون لحوم الاضاحي فيها ـ أي ينشرونها في الشمس فتكون مشرقة عليها .

(٢) الثقلة بفتح المثلثة والقاف : الثقل عند الحمل .

وانا بين النائم واليقظان فقال : هل شعرت انك حملت ؟ فكـأني أقول : ما أدري ! فقال : انك قد حملت بسيد هذه الأمة ، ونبيها . وذلـك يوم الاثنين ، قالت : فكان ذلك مما يقن عندي الحمل ، ً

ثم أمهلني حتى اذا دنت ولادتي ، أتـاني ذلك الآتي فقـال : قولي : « أعيذه بالواحد الصمـد . . من شر كـل حاسـد اذا حسد ». قـالت : كنت أقول ذلك .

مولد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

ولد محمد الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة المكرمة عام الفيل ، وهو العام الذي غزا فيه ابرهة الحبشي مكة لهدم الكعبة . وذلك سنة (٥٧٠) ميلادية ، في زمن كسرى انوشروان ملك الفرس .

واختلف المؤرخون ، واصحاب السير في يوم ولادته (صلى الله عليه وآله وسلم) فقيل يوم الجمعة ـ أو يوم الاثنين عند طلوع الشمس ، أو عند طلوع الفجر ، او عند الزوال على اختلاف الاقوال . وذلك في السابع عشر من شهر ربيع الأول على المشهور عند الشيعة الامامية .

وقال الكليني ولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لاثنتي عشر ليلة مضت من شهر ربيع الأول ، وهو المشهور عند غير الامامية .

ذكر الحلبي في سيرته عن ابن عباس : قال : « ولد النبي يوم الاثنين في ربيع الأول ، وانزلت عليه النبوة يوم الاثنين في ربيع الأول ، وهاجر الى المدينة يوم الاثنين في ربيع الأول ، وانزلت عليه البقرة يوم الاثنين في ربيع الأول ، وتوفي يوم الاثنين في ربيع الاول »[1]وسيأتي ذكر

---

(١) السيرة الحلبية، ج ١، ص ٦٤.

وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على التحقيق في موضع آخر من هذا الكتاب .

والى التردد في وقت ولادته (صلى الله عليه وآله وسلم) هل هو في الليل أو النهار اشار صاحب الهمزية الى ذلك بقوله :

ليلة المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء
فهنيئاً به لآمنة الفضل الذي شرفت به حواء
من لحواء انها حملت احمد أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار ما لم تنله النساء

وذكر المجلسي في بحاره : « ولد النبي (صلى الله عليه وآله) لثلاث عشرة بقيت من شهر ربيع الأول في عام الفيل ، يوم الجمعة مع الزوال ، وروي عند طلوع الفجر ، قبل المبعث باربعين سنة .

وحملت به أُمه في ايام التشريق عدن الجمرة الوسطى ، وكانت في منزل عبد الله بن عبد المطلب ، وولدته في شعب أبي طالب ، في دار محمد بن يوسف في الزاوية القصوى ، وقيل : ولد يوم الاثنين آخر النهار ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعمائة للاسكندر في شعب ابي طالب ، في ملك انوشروان .

وذكر محمد بن بابويه (رضوان الله عليه) في الجزء الرابع من كتاب النبوة : أن الحمل بسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة .

وذكر شيخنا المفيد في كتاب حدائق الرياض : السبع عشرة منه

(اي ربيع الاول) مولد سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عدند طلوع الفجر من يوم الجمعة ، عام الفيل .

وعن الكافي : ولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الاول في عام الفيل يوم الجمعة مع الزوال ، وروي ايضاً عند طلوع الفجر قبل ان يبعث باربعين سنة ، وحملت به امه في ايام التشريق عند الجمرة الوسطي وكانت في منزل عبد الله بن عبد المطلب ، وولدته في شعب ابي طالب في دار محمد بن يوسف ، في الزاوية القصوى عن يسارك وانت داخل . وقد اخرجت الخيزران[1]ذلك البيت فصيرته مسجداً يصلي الناس فيه »[2].

---

(١) الخيزران : هي ام الهادي والرشيد . قال المؤرخون كانت هذه الدار للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ووهبها عقيل بن ابي طالب ، ثم باعها اولاد عقيل بعد أبيهم من محمد بن يوسف وهو اخو الحجاج ، فاشتهرت بدار محمد بن يوسف . فادخلها محمد في قصره الذي كانوا يسمونه ـ البيضاء ـ ثم بعد انقضاء دولة بني أمية ،حجت الخيزران فافرزتهامن القصر وجعلتها مسجداً يصلي الناس فيه .

(٢) بحار الانوار ـ للمجلسي ، ج ١٥ ، ص ٢٥٠ .

حديث آمنة عند ولادتها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

ذكر صاحب نهاية الارب عن آمنة حديثاً في شأن المولد : « قالت : لما ولدت محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم خرج من بطني نظرت اليه ، فاذا هو ساجد لله عز وجل ، رافع يديه الى السماء كالمتضرع المبتهل . فسمعت منادياً ينادي : طوفوا بمحمد جميع الارضين ، وعلى موالد النبيين وأعطوه خلق آدم ، ومعرفة شيث ، وشجاعة نوح ، وخلة ابراهيم[1]،ولسان اسماعيل، ورضى اسحاق ، وفصاحة صالح ، وحكمة لوط ، وبشرى يعقوب ، وجمال يوسف ، وشدة موسى ، وطاعة يونس ، وجهاد يوشع ، وصوت داود ، وحب دانيال ، ووقار الياس ، وعصمة يحيى ، وزهد عيسى ، واغمسوه في جميع اخلاق النبيين (عليه وعليهم السلام) . . . الى آخر الحديث .

وفي رواية : لما ولدت آمنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أرسلت الى جده عبد المطلب ، فجاءه البشير وهو جالس في الحجر مع ولده ورجال من قومه ، فاخبره أن آمنة ولدت غلاماً ، فسُر بذلك ، وقام هو ومن معه ، فدخل عليها ، فأخبرته بكل ما رأت ، وما

---

(١) وفي رواية وحكمة ابراهيم ، وفي رواية اشارة الى الآية ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلا ﴾ .

قيل لها فيه وما أُمرت أن تسميه[1].

قال : فاخذه عبد المطلب فادخله الكعبة ، وقام عندها يدعو الله ، ويشكره على ما اعطاه»[1].

ذكر المؤرخون ان عبد المطلب حينما جاءه البشير بولادة انبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سُر سروراً عظيماً ، فأتى آمنة واخذه منها وحمله بين ذراعيه وهو يكاد يطير من الفرح ثم ذهب به الى الكعبة وجعل يطوف به حول البيت وهو يقول :

الحمد لله الذي اعطاني ... هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان ... اعيذه بالبيت ذي الاركان
حتى اراه بالغ البنيان ... اعيذه من شر ذي شنآن
من حاسد مضطرب العنان

وقد ذكرنا فيما سبق من بحثنا انه حين ولادته (صلى الله عليه وآله وسلم) تداعى ايوان كسرى، وخمدت نيران فارس ، وغارت بحيرة ساوة ، ولم يبق صنم إلاّ خَرَّ وانكفأ على وجهه ، الى غير ذلك من البراهين . والى ذلك يشير بعض الشعراء بقوله :

لمولده ايوان كسرى تشققت ... مبانيه وانحطت عليه شؤونه
لمولده خرت على شرفاته ... فلا شرف للفرس يبقى حصينه
لمولده نيران فارس أُخمدت ... فنورهم الاخماد كان حصينه
لمولده غارت بحيرة ساوة ... واعقب ذاك المدجور يشينيه
كأن لم يكن بالامس رياً لناهل ... وورد لعين المستهام معينه

---

(١) نهاية الارب ، للنويري ، ج ١٦ ، ص ٧٠ ، ٧١ .

سبب تسمية النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بمحمد واحمد

لقد بشر جميع الانبياء والمرسلين وبعض الملوك الذين عندهم علم من الكتب التي تشير الى مولد النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعثته .

وقد تواترت الاخبار من قديم الزمان وقبل مولد الرسول أنه سيولد في الحجاز من العرب بمكة المكرمة ولد اسمه محمد ، يكون نبي الامة، ومنقذ البشرية من الضلال ، وسيكون له شأن عظيم .

طمع بعض العرب ان يكون النبي الموعود ، والمبشر به من سلالته ، ولم يكن اسم محمد معروفاً أو مُتداولاً بين العرب وقد انكر بعضهم على عبد المطلب حينما سمى النبي (محمدا) بقولهم : ما حملك على ذلك وليس من اسماء آبائك ولا قومك ؟ ! وسنذكر هذا فيما بعد .

جاء في السيرة الحلبية عن ابي جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (عليهم السلام) ، وهو الباقر ـ من بقر العلم واتقنه ـ قال : « لا يخفى ان جميع اسمائه (صلى الله عليه وآله وسلم) مشتقة من صفات قامت به توجب له المدح والكمال، فله من كل وصف اسم ، قال : أُمرت آمنة بنت وهب في المنام وهي حامل برسول الله

(صلى الله عليه وآله وسلم) ان تسميه أحمد وفي رواية أن تسميه محمداً . قال : والثاني هو المشهور في الروايات .

وفي رواية : والمسمي له بمحمد جده عبد المطلب . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عق عنه يوم سابع ولادته جده عبد المطلب بكبش وسماه محمداً فقيل له : يا ابا الحارث ما حملك على ان تسميه محمداً ، ولم تسمه باسم آبائه ؟ ! . وفي لفظ : وليس من اسماء آبائك ولا قومك قال : اردت ان يحمده الله في السماء ، وتحمده الناس في الارض.

وهذا هو الموافق لما اشتهر أن جده سماه محمداً ، بالهام من الله تعالى تفاؤلا بان يكثر حمد الخلق له لكثرة خصاله الحميدة التي يحمد عليها ، ولذلك كان ابلغ من محمود . والى ذلك يشير حسان بقوله :

فشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وهذا الالهام لا ينافي ان تكون امه قالت له انها أُمرت أن تسميه بذلك ، وقد حقق الله رجاءه بانه (صلى الله عليه وآله وسلم) تكاملت فيه الخصال المحمودة والخلال المحبوبة فتكاملت له (صلى الله عليه وآله وسلم) المحبة من الخالق ، والخليقة ، فظهر معنى اسمه على الحقيقة .

ويقول صاحب السيرة الحلبية أيضاً عن السيدة آمنة بنت وهب : قالت آمنة : واتاني آت وانا بين النائمة واليقظانة فقال : هل شعرت بانك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها . . . وسيد الانام . وامهلني حتى دنت ولادتي أتاني ذلك الآتي فقال: قولي اذا ولدتيه ، اعيذه بالواحد ـ من شر

كـل حـاسـد ، ثم سميه محمـداً ، فـان اسمــه في التـوراة والانجيــل (احمد) ، يحمده اهل السماء واهل الارض .

وفي القرآن (محمد) والقرآن كتابه .

وفي رواية : كانت آمنـة تحدث وتقـول : أتاني آت حـين مرَّ بي من حملي ستة أشهر في المنام وقـال لي : يا آمنـة انك حملت بخـير العالمـين . فاذا ولدتيه فسميه محمداً . . واكتمي شأنك »[1]

ويحـدثنا التـاريخ انـه لم يتسمى احد من العـرب باسم محمـد قبـل وجـوده (صلى الله عليـه وآله وسلم) وميـلاده الا بعد أن شـاع ان نبيـا يبعث اسمــه (محمد) وقـرب زمنـه . فسمى قـوم من العـرب ابنـاءهم بذلك وحمى الله تعالى هؤلاء ان يدعي احد منهم النبوة أو يـدعيها احـد له أو يظهر عليه شيء من سمات النبوة وعلاماتها .

وفي رواية عن محمد بن عـدي وقد قيـل له : كيف سمـاك أبوك في الجاهلية محمـداً ؛ قال : سـألت ابي عما سـألتني عنه فقـال لي : خرجت رابع اربعة من تميم نريد الشام فنزلنا عند غدير عند دير ، فاشرف علينا الديراني فقال : ان هذه للغة قوم ما هي لغة اهل هذه البلد ! فقلنا له : نحن قوم من مضر . فقال : من اي المضاير ؟ فقلنا لـه : من خندف ، فقال لنا : ان الله سيبعث فيكم نبياً وشيكاً سريعاً ، فسارعوا اليه وخذوا حظكم ترشدوا ، فانه خاتم النبيين .

---

(١) السيرة الحلبية ، على بن برهمان الدين الحلبي ، ج ، ص ٥١ ، ٨٧ .

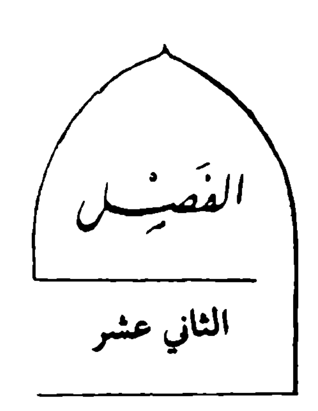
فقلنا له : ما اسمه ؟ قال : محمد . ثم دخل ديره فوالله ما بقي احد منا الا زرع قوله في قلبه فاضمر كل واحد منا ان رزقه الله غلاماً سماه (محمداً) رغبة فيما قاله .

وفي رواية ان سفيان بن مجاشع نزل على حي من تميم ، فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم وهي تقول : العزيز من والاه ، والذليل من خالاه ، فقال لها سفيان : من تذكرين لله ابوك ؟ فقالت : صاحب هدى وعلم ، وحب وسلم ، فقال سفيان : من هو لله ابوك ؟ فقالت : نبي مؤيد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث للاحمر والاسود ، اسمه محمد .

فقال سفيان : أعربي أم عجمي ؟ فقالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذوات الافنان ، انه لمن معد بن عدنان ، حسبك فقد اكثرت يا سفيان .

فامسك عن سؤالها ومضى الى اهله . وكانت امرأته حاملا فولدت له ولداً فسماه محمداً ، رجاءً منه ان يكون هو النبي الموصوف . والله اعلم بمدى واقعية هذه الرواية.

وعلى كل حال ان الذين سموا باسم محمد حين سمع اباؤهم بالنبي وبقرب زمانه ثلاثة هم محمد بن سفيان بن مجاشع ـ جد جد الفرزدق الشاعر ـ والثاني محمد بن احيحة بن جلاح ـ والثالث محمد بن حمران بن ربيعة . وقيل اربعة ـ وقيل سبعة ـ وقيل اكثر من ذلك وقد عد بعضهم ممن سُمي بمحمد ستة عشر وقيل غير ذلك والله العالم .



الفَصل

الثاني عشر

ذكر بعض احوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورضاعه

رضاع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

كان من عادات العرب واشرافهم أنهم اذا ولد لهم مولـود يلتمسون له المراضع ، وكان من القبائل العربية من اشتهر بالرضاعـة ، ومن جملة هذه القبائل قبيلة بني سعد.

وكان من عادات العـرب ايضاً أنهم يلتمسـون المراضـع التي تسكن البادية لينشأ الطفل ويترعرع وهو نشيط قوي ، على صفاء الجو ، والهواء الـطلق ، وورنق البادية حيث لا اسوار فيهـا تحد من حـريته ونشـاطه ، فيسـرح ويمرح فتنمـو بـه الارادة القـويـة ، والاعتـداد بـالنفس ، وحب الحرية والانطلاق ، علاوة على الشجاعة والفروسية والقوة البدنية ، كـما ورد عن الامـام علي بن ابي طـالب (عليه السـلام) قولـه : ـ ألم تـر ان الشجـرة البريـة اصلب عودا وابـطأ خمودا ـ الى غـير ذلك من الصفـات الحميدة التي توجد في أهل البادية .

لذلك سلَّم عبـد المطلب حفيـده العزيـز على قلبـه ـ محمد الـرسول الاعظم ـ الى حليمة السعدية لتقوم بارضاعه وتذهب الى منازل قومها في البادية كما هي عادة الاشراف وسراة القوم في ذلك الوقت .

جاء في بحار الأنوار : « روي أنه لما ولد النبي (صلى الله عليه وآله

وسلم) نـدمت حليمـة بنت أبي ذؤ يب في نسـوة من بني سعـد بن بكـر تلتمس الـرضعـاء بمكـة ، قـالت : فخــرجت معهن عـلى أتــان ومعي زوجي ، ومعنا شارف[1]لنا ما تبض بقطرة من لبن ، ومعنا ولد ما نجـد في ثديي ما نعلله به ، وما نام ليلتاه جوعا .

فلما قدمنا مكـة لم تبق منا امـرأة الا عُرِضَ عليهـا محمد ، فكـرهناه فقلنا : يتيم . وانما يكرم الظئر[2]الوالد . فكل صواحبي اخذن رضيعا ، ولم آخـذ شيئاً . فلما لم اجـد غيـره رجعت اليـه فـاخـذتـه . فـاتيت بـه الـرحل[3]فـامسيت واقبل ثـدياي بـاللبن ، حتى أرويتـه وارويت ولـدي أيضـاً ، وقـام زوجي الى شــارفنــا تلك يلمسهــا بيــده ، فــاذا هي حافل[4]، فحلبها وارواني من لبنها ، وروى الغلمان .

فقـال : يا حليمـة لقد اصبنـا نسمة مبـاركة . فبتنـا بخـير ورجعنـا فـركبت اتاني ثم حملت محمـداً معي ، فوالـذي نفس حليمـة بيـده لقـد طفت بالركب حتى أن النسوة يقلن لي : يا حليمة امسكي علينا ! أهـذه اتـانك التي خـرجت عليهـا ؟ قلت : نعم ، مـا شـأنها ؟ قلن : حملت غلاماً مباركا .

---

(١) الشارف : المسنة من النوق .

(٢) . . . الظئر : المرضعة.

(٣) الرحل : المنزل والمأوى .

(٤) الحافل : ضرع حافل أي ممتلء لبنا ـ المنجد في اللغة ـ.

ويزيدنا الله كل يوم وليلة خيراً ، والبلاد قحط والرعاة يسرحون ، ثم يريحون ، فتروح اغنام بني سعد جياعا ، وتروح غنمي شباعاً بطانا [1].

وفي تاريخ ابن الأثير : «أول من ارضع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثويبة مولاة ابي لهب بلبن ابن له يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وارضعت بعده أبا سلمة ابن عبد الاسد المخزومي ، فكانت ثويبة تأتي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة قبل ان يهاجر فيكرمها ، وتكرمها خديجة ، فارسلت الى ابي لهب أن يبيعها اياها لتعتقها ، فأبى .

فلما هاجر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى المدينة أعتقها ابو لهب . فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يبعث اليها بالصلة ، الى ان بلغه خبر وافتها منصرفه من خيبر . فسأل عن ابنها مسروح فقيل : توفي قبلها . فسأل هل لها من قرابة ؟ فقيل : لم يبق لها احد .

ثم ارضعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ثويبة حليمة بنت ابي ذؤيب واسمه عبد الله ابن الحرث من بني سعد بن بكر بن هوازن . واسم زوجها الذي ارضعته بلبنه الحرث بن عبد العزى .

واسم اخوته من الرضاعة ـ عبد الله ـ وأنيسة ـ وجذامة ، وهي الشيماء عرفت بذلك .

---

(١) بحار الانوار للمجلسي ، ج ١٥ ، ص ٣٣١ .

وكـانت الشيـماء تحضنـه (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) مـع امهـا حليمة .

وقدمت حليمة على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن تزوج خديجة ، فاكرمها ، ووصلها. وتوفيت قبل فتح رسـول الله (صلى الله عليـه وآله وسلم) مكـة ، فلما فتح مكـة قـدمت عليـه أخت لهـا ، فسألها عنها ، فاخبـرته بمـوتها ، فـذرفت عيناه ، فسـألها عمن خلفت ، فاخبرته نسألته نحلة وحاجة فوصلها .

وفي ابن الاثير ايضاً : قال عبد الله بن جعفر بن ابي طالب : كانت حليمـة السعـديـة تحدث أنها خـرجت من بلدهـا مـع نسـوة يلتمسن الرضعاء ، وذلـك في سنة شهبـاء لم تبق شيئاً ، قـالت : فخرجت عـلى اتان لنا قمـراء، معنا شـارف لنا والله مـا تبض بقـطرة، ومـا نـنـام ليلتنـا اجمع من صبينا الـذي معي ، من بكائـه من الجوع ، ومـا في ثـديي ما يغنيـه ، وما في شـارفنا مـا يغذوه ، ولكنـا نـرجـو الغيث والفـرج فلقـد ادمت[1] اتاني بالركب حتى شق عليهم ضعفاً وعجفا ، حتى قدمنا مكة ، فـما منا امـرأة الا وقد عـرض عليها رسـول الله (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) فتأباه اذا قيل لها : انه يتيم . . وذلك انا انما نرجو المعـروف من ابي الصبي ، فكنا نقول : يتيم فما عسى ان تصنع امه وجده ؟ فما بقيت امرأة معي الا أخذت رضيعاً غيري .

فلما اجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي وكان معي : إني لأكره أن أرجع

---

(١) كذا بالاصـل : وفي ابن جريـر وأذمت اتاني بـالركب : اي تهـاونت به كـما في اللسـان .

من بـين صـواحبي ولم آخـذ رضيعـاً ، والله لأذهبن الى ذلـك اليتيم فلآخذنـه ، قال : افعـلي فعسى أن الله يجعل لنـا فيه بـركة ، قـالت : فذهبت فاخذته .

فلما اخذته ووضعته في حجري اقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معـه اخوه حتى روي ، ثم نـاما ، ومـا كان ابني ينام قبل ذلك .

وقـام زوجي الى شارفنـا تلك ، فاذا أنها حـافـل فحلب منهـا ، ثم شـرب حتى روي ، ثم سقاني فشـربت حتى شبعنـا ، قـالت : خـرجنـا يقول لي صاحبي تعلمين والله يا حليمة لقد اخذت نسمة مباركة ، قلت والله لأرجو ذلك . قـالت : ثم خرجنـا فركبت أتـاني وحملته عليهـا فلم يلحقني شيء من حمـرهم حتى أن صـواحبي ليقلن لي : يـا ابنـة ذؤ يب اربعي علينا اليست هذه اتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فـاقول : بـلى والله لهي هي ، فيقلن : إن لها شأناً .

ثم قدمنا منازلنا من بني سعد وما اعلم أرضـا من ارض الله اجدب منهـا ، فكانت غنمي تـروح علي حـين قدمنـا شباعـاً لبنـاً فنحلب . . . ونشـرب وما يحلب انسـان قـطرة ولا يجـدهـا في ضـرع . حتى ان كـان الحاضر من قومنا ليقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسـرح راعي ابنة ابي ذؤ يب ، فتروح اغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة من لبن ، وتروح غنمي شباعاً لبناً . فلم نزل نتعـرف البركـة من الله والزيـادة في الخير ، حتى مضت سنتان وفصلته .

وكـان يشب شبابـاً لا يشبه الغلمـان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كـان

غلاما جفرا[1]وقدمنا به على أُمه ونحن احرص شيء على مكثه عندنا لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أُمه في تركه عندنا فاجابت[2]

والى قصة رضاع النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يشير صاحب الهمزية بقوله ·

وبدت في رضاعه معجزات	ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات	قلن ما في اليتيم عنا غناء
فاتته من آل سعد فتاة	قد ابتها لفقرها الرضعاء
ارضعته لبانها فسقتها	وبنيها البانهن الشياء
اصبحت شولا عجافاً وأمست	ما بها شائل ولا عجفاء
اخصب العيش عندها بعد محل	اذ غدا للنبي منها غذاء
يا لها منة لقد ضوعف الاجـ	ـر عليها من جنسها والجزاء،
واذا سخَّر الاله اناساً	لسعيد فانهم سعداء

(١) استجفر الصبي اذا قوى على الاكل . لسان العرب ـ لابن منظور .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

بعض الاخبار المتعلقة في رضاع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

اختلفت الروايات في امر رضاع النبي محمد، وعمره حين وفاة امه آمنة.

ذكر ابن شاذان في فضائله : « قال الواقدي : فلما اتى على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اربعة اشهر ماتت أمه آمنة بنت وهب[1] (رضي الله عنها) فبقي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بلا ام ولا أب وهو من ابناء اربعة اشهر ، فبقي يتيماً في حجر جده عبد المطلب ابي ابيه (رضي الله عنه) فاشتد على عبد المطلب موت آمنة ليتم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يأكل ، ولم يشرب ثلاثة ايام .

فبعث عبد المطلب الى عند بناته عاتكة وصفية ، وقال لهما : خذا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) والنبي لا يزداد الا بكاءً ولا يسكن . وكانت عاتكة تلعق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عسلاً صافيا ، ولا يزداد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا تمادياً في البكاء.

قال الواقدي : فضجر عبد المطلب فصار لا يتهنأ أن ينظر الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو في تلك الحالة ، فقال لابنته عاتكة :

---

(١) قال الواقدي : لما اتى على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) شهران مات وهب جده ابو أمه آمنة وجاء عبد المطلب وجماعة من قريش وبني هاشم وغسلوا وهبا وحنطوه وكفنوه ودفنوه على ذيل الصفا .

أحضري نساء قريش فلعله ان يقبل ثدي واحدة منهن ، ويرضعن ولدي وقرة عيني محمدا .

فقالت ابنته عاتكة : السمع والطاعة يا أبتي . فبعثت عاتكة بالجواري والعبيد نحو نساء بني هاشم ، وقريش ، ودعتهن الى ارضاع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فجئن الى عاتكة ، واجتمعن عندها في اربعمائة وستين جارية من بنات صناديد قريش وأصل بني هاشم . فتقدمت كل واحدة ودفعن اردانهن عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووضعن ثديهن في فم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فما قبل منهن واحدة ، وبقين متحيرات .

وكان عبد المطلب جالساً فامر باخراجهن ، فخرجن والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)لا يزداد الا بكاء وحزنا لغيبة اللبن عنه (صلى الله عليه وآله وسلم). فخرج عبد المطلب من الدار مهموماً مغموماً الى الكعبة ، وقعد عند استارها ورأسه بين ركبتيه ، كأنه امرأة ثكلى ، واذا بعقيل بن ابي وقاص قد اقبل ، وهو شيخ قريش واسنهم . فلما رأى عبد المطلب مغموما مهموما قال له : يا ابا الحارث ما لي اراك مغموما ؟

فقال له عبد المطلب : يا سيد قريش اعلم أن نافلتي[1] يبكي ، ولا يسكن شوقا الى اللبن من حين ماتت امه ، وانا لا اتهنأ بطعام ولا بشراب ، محزون على ولدي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعرضت عليه نساء قريش ، وبني هاشم فلم يقبل ثدي واحدة منهن ، وذلك أنه ما من أمرأة إلا وبها عيب ، وأن محمداً لا يقبل ثدي من بها

(١) النافلة ولد الولد ـ المنجد في اللغة .

عيب ، فلهذا امتنع فتحيرت وانقطعت حيلتي . . .

فقال عقيل : يا ابا الحارث اني لأعرف في اربعة واربعين صنديداً من صناديد العرب امرأة عاقلة افصح لسانا ، واصبح وجها ، وارفع حسباً ونسباً ، وهي حليمة بنت ابي ذؤيب بن عبد الله بن الحارث . . . الى آخره .

قال الواقدي : فقال عبد المطلب : يا سيدي وسيد قريش ، لقد نبهتني بامر عظيم وفرجت عني .

ثم دعا عبد المطلب بغلام اسمه شمر دل وقال له : قم يا غلام واركب ناقتك ، واخرج نحو حي بني سعد بن ابي بكر ، وادع لي ابا ذؤيب بن عبد الله بن الحارث السعداوي . فذهب الغلام واستوى على ظهر ناقته . وكان حي بني سعد من مكة على ثمانية عشر ميلا في طريق جده .

قال : فذهب الغلام نحو حي بني سعد ، فلحق بهم . واذا خيمتهم من مسح[1] وخوص[2] . وكذلك خيم الاعراب في البوادي . فدخل شمر دل الحي وسأل عن خيمة عبد الله بن الحارث ، فاعطوه الأثر ، فذهب شمردل الى الخيمة ، فاذا بخيمة عظيمة رخيمة زاجة في الهواء من خوص ، واذا على باب الخيمة غلام اسود فاستأذن شمردل في الدخول فدخل الغلام وقال : انعم صباحا يا ابا ذؤيب . قال : فحياه عبد الله وقال له : ما الخبر يا شمردل ؟ . . فقال : اعلم يا سيدي ان

---

(١) المسح بالكسر : الكساء من الشعر .

(٢) الخوص : ورق النخل .

مولاي ابا الحارث عبد المطلب قد وجهني نحوك ، وهو يدعوك ، فان رأيت يا سيدي ان تجيبه فافعل . قال عبد الله : السمع والطاعة .

وقام عبد الله من ساعته ودعا بمفتاح الخزانة ففتّح باب الخزانة ، واخرج منها جوشنه[1] فافرغه على نفسه فاخرج بعد ذلك درعاً فاضلا فافرغه على نفسه فوق جوشنه واستخرج بيضة عادية فقلبها على رأسه ، وتقلد بسيفين ، واعتل رمحا ، ودعا بنجيب[2] فركبه وجاء نحو عبد المطلب .

فلما دخل تقدم شمردل واخبر عبد المطلب وكان جالساً مع رؤساء مكة مثل عتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن ابي معيط ، وجماعة من قريش .

فلما رأى عبد المطلب عبد الله قام على قدميه واستقبله ، وعانقه ، وصافحه ، واقعد على جنبه ، والصق ركبتيه بركبته ، ولم يتكلم حتى استراح ، ثم قال له عبد المطلب : يا ابا ذؤيب اتدري لماذا دعوتك ؟ . . .

قال : يا سيدي وسيد قريش ورئيس بني هاشم حتى تقول فاسمع منك واعمل باحسنه . قال : اعلم يا ابا ذؤيب أن نافلتي محمد بن عبد الله مات ابوه ولم يبن عليه اثر ، ثم ماتت امه وهو ابن اربعة اشهر ، وهو لا يسكن من البكاء الى اللبن ، وقد عرضت عليه اربعا وستين

---

(١) الجوشن : جمع جواشن ـ الدرع ـ الصدر .

(٢) النجيب : الفاضل من كل حيوان ـ والنجيب من الابل : وهو القوي منها ـ الخفيف ـ السريع . لسان العرب ـ لابن منظور .

جارية من اشرف واجل بني هاشم فلم يقبل لواحدة منهن لبناً ، والآن سمعنا ان لك بنتاً ذات لبن فان رأيت ان تنفذها لترضع ولدي محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) فان قبل لبنها فقد جاءتك الدنيا باسرها وعليَّ غناك وغنى اهلك وعشيرتك . وان كان غير ذلك ترى مما رأيت من النساء غيرها فافعل .

ففرح عبد الله فرحا شديداً ثم قال : يا ابا الحارث ان لي بنتين فايهما تريد ؟ . .

قال عبد المطلب : اريد اكملها عقلاً ، واكثر لبناً ، وأصون عرضاً . .

فقال عبد الله : هاتيك حليمة . . لم تكن كاخواتها ، بل خلقها الله تعالى اكمل عقلا ، وأتم فهماً وافصح لساناً ، وأثج لبناً[1] واصدق لهجة ، وارحم قلباً منهن جميعاً.

قال الواقدي : فقال عبد المطلب اني ورب السماء ما اريد الا تلك . فقال عبد الله : السمع والطاعة .

فقام من ساعته واستوى على متن جواده ، واخذ نحو بني سعد بعد ان اضافه . فلما ان وصل الى منزله دخل على ابنته حليمة وقال لها : ابشري فقد جاءتك الدنيا باسرها .

فقالت حليمة : ما الخبر ؟ قال عبد الله : اعلمي أن عبدالمطلب رئيس قريش ، وسيد بني هاشم سألني انفاذك اليه لترضعي ولده ،

---

(١) ثج : سال .

وتبشري بالعطاء الجزيل ، والسير الخميل .

قال : ففرحت حليمة بذلك وقامت من وقتها وساعتها ، واغتسلت ، وتطيبت ، وتبخرت ، وفرغت من زينتها .

فلما ذهب من الليل نصفه قام عبد الله وزين ناقته وكانت مشرفة جليلة ، فركبت عليها حليمة ، وركب عبد الله فرسه ، وكذلك زوجها بكر بن سعد السعدي . وخرجوا من دارهم في داج من الليل ، فلما اصبحوا كانوا على باب مكة ، ودخلوها .

وذهبت حليمة الى دار عاتكة ، وكانت هذه تلاطف محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) وتلعقه العسل والزبد الطري ، فلما دخلت الدار ، وسمع عبد المطلب بمجيئها جاء من ساعته ، ودخل الدار ووقف بين يدي حليمة ، ففتحت حليمة جيبها واخرجت ثديها الأيسر ، واخذت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فوضعته في حجرها ، ووضعت ثديها في فمه ، والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يترك ثديها الأيسر ويضطرب الى ثديهاالايمن ، فاخذت حليمة ثديها الايمن من النبي ووضعت ثديها الايسر في فمه ، وذلك ان ثديها الايمن كان جهاما[1] لم يكن فيه لبن ، وخافت حليمة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا مص الثدي الايمن ولم يجد فيه شيئاً لا يأخذ بعده الايسر ، فيأمر عبد المطلب باخراجها من الدار ، فلما الحت على النبي ان يأخذ الأيسر والنبي يميل الى الايمن صاحت عليه : يا ولدي مص الايمن حتى تعلم أنه يكون جهاماً يابساً لا شيء فيه .

---

(١) جهاما ـ اي خاليا من اللبن ـ والجهام السحاب الذي لا ماء فيه .

قال : فضبط النبي على ثـديها واخـرج خلف[1]الايمن حتى امتلأت فانفتح باللبن حتى ملأ شـدقيه كفم رأس الـزق بامـر الله تعالى وببـركته (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فضجت حليمة وقالت : واعجبا منك يـا ولدي، وحق رب السماء ربيت بثديي الايسر اثني عشر ولداً ، ومـا ذاقوا من ثـديي الايمن شيئاً ، والآن قـد انفتح ببـركتك . واخبـرت بذلـك عبد الله فـامـرهـا بكتمـان ذلك .

فلما شبـع النبي (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) تـرك الخلف من ساعته ، فقال عبد المطلب : تكونين عندي نأمر لـك بافـراغ دار بجنب داري ، واعـطيك كـل شهر الف درهم بيض ، ودست ثيـاب روميـة ، وكل يوم عشرة امنان خبز حواري ، ولحماً مشوياً .

قال : فلما سمع ابوها عبد الله ذلك اوصى لها ان لا تقيمي عنده ، قـالت : يا ابـا الحارث لـو جعلت لي مال الـدنيا مـا اقمت عندك ، ولا تركت الزوج والاولاد ، قال عبد المطلب : فان كان هكذا فـادفع اليـك محمداً على شرطين قالت : وما الشرطان ؟ . . .

قال عبد المطلب : ان تحسني اليه ، وتنـوميه الى جنبـك ، وتدثـريه بيمينك، وتوسديه بيسارك ، ولا تنبذيه وراء ظهرك .

قالت حليمة : وحق رب السماء اني منذ وقـع نظري عليـه قد ثبت حبه في فؤادي ، فلك السمع والطاعة يا ابا الحارث .

---

(١) الخلف : حلمة الضرع ـ ج ـ اخلاف .

ثم قال : واما الشرط الثاني أن تحمليه الي في كل جمعة ، حتى أتمتع برؤ يته ، فاني لا اقدر على مفارقته قالت : افعل ذلك انشاء الله .

فامر عبد المطلب أن تغسل رأس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فغسلت رأسه وزرقت جبينه ، ولفته في خرق السندس .

ثم ان عبد المطلب دفعه اليها واخذ اربعة آلاف درهم وقال لها : تعالي يا حليمة نمضي الى بيت الله الحرام حتى اسلمه اليك فيه . فحمله على ساعده ودخل وطاف بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سبعاً وهو على ساعده ملفوف بخرق السندس .

ثم انه دفعه اليها ومعه أربعة آلاف درهم بيض ، واربعون ثوباً من خواص كسوته ، ووهب لها اربع جوارٍ رومية ، وحلل سندس .

ثم ان عبد الله بن الحارث اتى بالناقة ، فركبتها حليمة ، واخذت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجرها وشيعه عبد المطلب الى خارج مكة ، ثم اخذت حليمة رسول الله الى جنبها من داخل خمارها .

فلما بلغت حليمة الى حي بني سعد ، كشفت عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فابرق من وجناته نور ، فارتفع في الهواء طولا وعرضاً حتى التصق الى عنان السماء .

قال الواقدي : فلما رأى الخلق ذلك لم يبق في حي بني سعد صغير ولا كبير ، ولا شيخ ولا شاب ، الا استقبلوا حليمة وهنأوها بما رزقها الله تعالى من الكرامة الكبرى .

فذهبت حليمة الى باب خيمتها ، وبركت الناقة والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في حجرها ، فما وضعته عند الصغير الا وحمله الكبير ، وما وضعته عند الكبير الا وأخذه الصغير ، وذلك كله لمحبة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قال الواقدي : فبقي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند حليمة ترضعه ، وكانت تقول : يا ولدي ، ورب السماء انك عندي لاعز من ولدي ضمرة . يا قرة عيني أترى اعيش حتى اراك كبيراً كما رأيتك صغيرا ؟ ! . . .

وكانت حليمة تؤثر محمداً على اولادها جدا ، ولا تفارق محمداً عن عينيها »[1] .

---

(١) الفضائل ـ لابي الفضل سديد الدين شاذان .

قصة شق الصدر

أن حادثة شق الصدر التي رُويت عن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في طفولته وذلك عندما كان في بني سعد عند مرضعته حليمة ما هي الا احدى المعجزات والكرامات التي حدثت للرسول الاعظم تمهيداً لنبوته على فرض حدوثها.

وقد رواها المؤرخون واصحاب السير وغيرهم الكثير واختلف في كيفية حدوثها مما يحمل اهل العلم والمحققين على اثارة الشكوك حول حدوثها وبخاصة اذا نظرنا وتأملنا الى أسانيد هذه الحادثة.

ولكن اختلاف اسانيد هذه الحادثة المروية لا يستلزم انكارها من أساسها واتهام الرواة أو القصاصين واصحاب السير على وضعها او اختلاقها .

ويمكننا القول أن هذه الحادثة على تقدير حصولها مع النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هي من نوع الاعجاز . والعقل السليم لا ينكر هذا ما دامت قدرة الله جل وعلا تتسع لما لا تحيط به العقول ، أو تدركه الاوهام والظنون . . .

وكلنا يعلم ان حياة الرسول الاعظم قد اقترنت باكثر من حادثة من الحوادث التي هي من المعجزات والتي لم يجد لها العالم المتبحر والباحث

المحقق تفسيراً الا ارادة الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء . . وما ذلك على الله بعزيز . .

ان حادثة شق الصدر ذكرها اكثر الرواة ولكنّ باختلاف بعض العبارات ، منهم صاحب شرح النهج ، والطبري ، واليعقوبي وابن الاثير وغيرهم ولا بد من ايراد بعض ما جاء في المرويات عن حادثة شق الصدر.

جاء في الميزان عن الدر المنثور عن أبي بن كعب ان ابا هريرة قال : يا رسول الله ما أول ما رأيت من امر النبوة ؟ فاستوى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جالساً وقال : لقد سألتَ ، أبا هريرة ، إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهراً ، اذا بكلام فوق رأسي ، واذا رجل يقول لرجل : اهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم ارها لخلق قط، وارواح لم اجدها في خلق قط ، وثياب لم اجدها على احد قط ، فاقبلا الي يمشيان حتى اخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لاحدهما مساً.

فقال احدهما لصاحبه : اضجعه ، فاضجعني بلا قصر ولا هصر ، فقال احدهما افلق صدره فحوّى[1] احدهما الى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : اخرج الغل والحسد ، فاخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فاذا مثل الذي اخرج شبه الفضة . ثم هز ابهام رجلي اليمنى فقال : اغد واسلم ، فرجعت بها اغدو بها رقة على الصغير ورحمة للكبير .[2].

---

(١) حوّى تحوية : قبضه ـ تحوى الشيء : قبضه .

(٢) الميزان في تفسير القرآن : للطباطبائي ـ ج ٢٠ ـ ص ٣١٧ .

وجاء في السيرة النبوية لابن هاشم : أن نفراً من اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قالوا له : يا رسول الله اخبرنا عن نفسك ؟ قال : نعم . انا دعوة ابي ابراهيم ، وبشرى اخي عيسى ، ورأت امي حين حملت بي أنه خرج منها نورٌ أضاء لها قصور الشام واسترضعت في بني سعد بن بكر فبينا انا مع أخٍ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا ، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض ، بطست من ذهب مملؤة ثلجاً ، ثم اخذاني فشقا بطني ، واستخرجا قلبي فشقاه ، فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى انقيا . ثم قال احدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم ، فوزنتهم . ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزنني بهم ، فوزنتهم ، ثم قال : زنه بالف من اُمته ، فوزنني بهم ، فوزنتهم ، فقال : دعه عنك فوالله لو وزنته بامته لوزنها .

ويروي ابن هشام في سيرته ايضاً عن حليمة السعدية قالت : قدمنا به (اي برسول الله) على اُمه ونحن أحرص على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته . فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت بُني عندي حتى يغلظ ، فاني اخشى عليه وباء[1] مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا .

قالت : فرجعنا به ، فوالله انه بعد مقدمنا باشهر مع أخيه لفي بهم[2] لنا خلف بيوتنا ، اذ أتانا اخوه يشتد[3] فقال لي ولأبيه : ذاك اخي

(١) الوبأ (بهمز وبقصر) والوباء ـ المد : الطاعون .
(٢) البهم : الصغار من الغنم ، واحدتها : بهمة .
(٣) اشتد في عدوه : أسرع .

القرشي ، قد اخذه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه ، فشقا بطنه ، نهما يسوطانه[1] .

قالت حليمة : فخرجت انا وابوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعاً[2]وجهه ، قالت : فالتزمته والتزمه ابوه ، وقلنا له : مالك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فاضجعاني وشقا بطني ، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو . قالت : فرجعنا به الى خبائنا .

قالت : وقال لي أبوه يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد اصيب ، فالحقيه باهله قبل ان يظهر ذلك به ، قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أُمه، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر[3]؟ وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟ !

قالت حليمة : فقلت : قد بلغ الله بأبني وقضيت الذي علي ، وتخوفت الاحداث عليه ، فاديته اليك كما تحبين . قالت : ما هذا شأنك ، فاصدقيني خبرك .

قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها . قالت : افتخوفت عليه الشيطان ، قالت : قلت : نعم . قالت : كلا . . . والله ما للشيطان عليه من سبيل، وان لبني لشأنا ، افلا اخبرك خبره قالت : قلت بلى. قالت : رأيت حين حملت به انه خرج مني نور أضاء لي قصور

---

(١) يسوطانه : أي يخوضانه ويقلبانه .

(٢) منتقعاً وجهه : اي متغيراً ، يقال امتقع وجهه وانتقع : اذا تغير .

(٣) الظئر : بالكسر : العاطفة على ولد غيرها ، المرضعة له .

بُصري[1] من ارض الشام ، ثم حملت بـه ، فوالله مـا رأيت من حمل قط كـان اخف علي ولا أيسـر منه ، ووقـع حين ولـدته وانـه لواضـع يـديـه بالارض ، رافع رأسه الى السماء . دعيـه عنك وانـطلقي راشدة . . الى آخره[2].

(١) بصرى بالضم والقصر ـ من اعمال دمشق بالشام ، وهي قصبـة كورة حـوران مشهورة عند العرب قديما وحديثا ، ولهم فيها اشعار كثيرة (معجم البلدان) .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

شيخ بني عامر بين يدي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)

روى الطبري في تاريخه عن شداد بن أوس قال : « بينا نحن جلوس عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، اذ أقبل شيخ من بني عامر ، وهو مدرة[1]قومه وسيدهم ، من شيخ كبير يتوكأ على عصا ، فمثل بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قائماً ، ونسبه الى جده ، فقال : يا بن عبد المطلب ، إني انبئت انك تزعم انك رسول الله الى الناس ، ارسلك بما أرسل به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وغيرهم من الانبياء ، ألا وانك فوّهت بعظيم وانما كانت الانبياء والخلفاء في بيتين من بني اسرائيل ، وأنت ممن يعبد هذه الحجارة والأوثان ، فمالك وللنبوة ! ولكن بكل قول حقيقة ، فأنبئني بحقيقة قولك ، وبدء شأنك .

قال : فاعجب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمسألته ، ثم قال : يا اخا بني عامر ، ان لهذا الحديث الذي تسألني عنه نبأ ومجلساً ،

فأجلس ، فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير ، فاستقبله النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحديث فقال :

---

(١) مدرة الرجل بيته، يقال : فلان سيد مدرته : اي بلدته .

يـا اخا بني عـامـر ، ان حقيقـة قـولي وبـدء شـأني ، أني دعـوة ابي ابـراهيم ، وبشرى اخي عيسى بن مريم.

ثم ان أمي رأت في المنام ان الذي في بطنها نـور ، قالت : فجعلت اتبـع بصري النـور ، والنور يسبق بصـري ، حتى اضـاءت لي مشـارق الارض ومغاربها .

ثم انها ولدتني فنشأت ، فلما ان نشـأت بُغضتْ إلي أوثان قـريش، وبُغض الي الشعر ، وكنت مسترضعاً في بني ليث بن بكر ، فبينا أنا ذات يوم منتبذ من اهلي في بطن واد مـع اتراب لي من الصبيـان نتقاذف بيننـا بالجلة اذ اتانا رهط ثلاثة معهم طست من ذهب ملء ثلجـاً فاخـذوني من بين اصحابي ، فخرج اصحابي هرَّاباً حتى انتهوا الى شفير الـوادي ، ثم اقبلوا على الرهط فقالوا : ما اربكم الى هذا الغلام ، فانه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش وهو مسترضع فينـا ، من غلام يتيم ليس لـه أب ، فماذا يردّ عليكم قتله ! وما تصيبون من ذلك ؟ ولكن ان كنتم ولا بـد قاتليه فاختاروا منا ايناشئتم فليأتكم مكانـه فاقتلوه ، ودعـوا هذا الغـلام فانه يتيم .

فلما رأى الصبيـان القوم لا يحيـرون اليهم جوابـاً ، انطلقـوا هرَّابـا مسرعين الى الحي ، يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، فعمد احدهم فاضجعني على الارض اضجاعاً لـطيفاً ، ثم شق مـا بين مفـرق صدري الى منتهى عانتي ، وانا انظر اليه فلم اجد لذلك مسا . ثم اخرج احشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فانعم غسلها ، ثم اعادها مكـانها ، ثم قام

الثاني منهم فقال لصاحبه : تنح ، فنحاه عني ، ثم أدخل يده في جوفي فاخرج قلبي وانا انظر اليه فصدعه ، ثم أخرج منه مضغة سوداء ، فرمى بها ثم قال بيده يمنة منه ، كأنه يتناول شيئاً ، فاذا انا بخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبي فامتلأ نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم اعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرا . ثم قال الثالث لصاحبه تنح عني ، فأمرَّ بيده ما بين مفرق صدري الى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق باذن الله .

ثم اخذ بيدي فانهضني من مكاني انهاضاً لطيفا ، ثم قال للاول الذي شق بطني : زنه بعشرة من أُمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم ثم قال : زنة بمائة من أُمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم ثم قال : زنة بالف من أُمته ، فوزنوني بهم فرجحتهم : فقال دعوه ، فلو وزنتموه بامته كلها لرجحهم .

قال : ثم ضموني الى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ، ثم قالوا : يا حبيب ، لَمْ ترع انك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك .

قال : فبينا نحن كذلك اذ أنا بالحي قد جاؤ وا بحذافيرهم ، واذا أمي ـ وهي ظئري ـ امام الحي تهتف باعلى صوتها وتقول : يا ضعيفاه! قال : فانكبوا علي فقبلوا رأسي وما بين عيني ، ثم قالوا : حبذا انت من ضعيف ثم قالت ظئري : يا وحيداه ! فانكبوا علي فضموني وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا : حبذا انت من وحيد وماانت بوحيد ! ان الله معك وملائكته والمؤمنين من اهل الأرض .

ثم قالت ظئري : يا يتيماه ، أُستضعفت من بين اصحابك

فقتلت لضعفك ، فانكبوا علي فضموني الى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ، وقالوا : حبذا أنت من يتيم ، وما اكرمك على الله ! لو تعلم ماذا يراد بك من الخير ! قال : فوصلوا بي الى شفير الوادي ، فلما بصرت بي أمي ـ وهي ظئري ـ قالت : يا بني ألا اراك حيا بعد !. فجاءت حتى انكبت علي وضمتني الى صدرها ، فوالذي نفسي بيده ، اني لفي حجرها وقد ضمتني اليها ، وان يدي في يد بعضهم ، فجعلت التفت اليهم وظننت ان القوم يبصرونهم ، فاذا هم لا يبصرونهم .

يقول بعض القوم : ان هذا الغلام قد اصابه لمم أو طائف من الجن ، فانطلقوا به الى كاهننا حتى ينظر اليه ويداويه .

فقلت : يا هذا ، ما بي شيء مما تذكر ، ان آرائي سليمة وفؤادي صحيح ، ليس بي قلبة[1]. فقال ابي ـ وهو زوج ظئري ـ : ألا ترون كلامه كلام صحيح ! إني لأرجو ألا يكون بابني بأس .

فاتفقوا على أن يذهبوا بي الى الكاهن ، فاحتملوني حتى ذهبوا بي اليه ، فلما قصوا عليه قصتي قال: اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فانه اعلم بامره منكم ، فسألني فاقتصصت[2]عليه أمري ما بين أوله وآخره . فلما سمع قولي وثب الي فضمني[3]الى صدره ثم نادى باعلى صوته : يا

---

(١) ليس بي قلبة : أي ليس به شيء ، واصله من القلاب ، وهو داء ياخذ الابل في رؤوسها فيقلبها الى فوق ، قال في اللسان : ولا يستعمل الا في النفي .

(٢) وفي رواية ـ فقصصت .

(٣) وفي رواية ـ وضمني .

للعـرب . . . يا للعـرب! اقتلوا هذا الغـلام واقتلوني معـه ، فـوالـلات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم ، وليسفهن عقولكم ، وعقول آبائكم ، وليخالفن امركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط ! .

فعمدت ظئري فـانتزعتني من حجـره و قالت:لأنت أعته واجن من ابني هذا ! فلو علمت أن هذا يكون من قولـك ما أتيتـك به ، فـاطلب لنفسك من يقتلك ، فإنَّا غير قـاتلي هـذا الغلام . ثم احتملوني فـادوني الى اهلي فاصبحت مفزعا مما فُعل بي ، وأصبح اثر الشق ما بين صـدري الى منتهى عانتي كأنه الشراك ، فذلك حقيقة قولي وبدء شأني يا اخا بني عامر .

فقـال العـامـري . . اشهـد بـالله الـذي لا الـه غيـره[1]إن امـرك حق[2]،فـأنبأني بـاشياء أسـألك عنهـا ؟ قال : سـل عنك ـ وكـان النبي (صلى الله عله وآله وسلم) قبل ذلك يقول للسائل : سل عـما شئت ، وعما بدالك ، فقال للعامري يومئذٍ : « سل عنك » لأنها لغة بني عامر ، فكلمه بما علم ـ فقال له العامري : اخبرني يا بن عبد المطلب مـا يزيـد في العلم ؟ قـال : التعلم . قال : فـاخبرني مـا يـدل عـلى العلم ؟ قـال النبي (ص) السؤال . قـال : فاخبـرني ماذا يـزيـد في الشـر ؟ قـال : التمـادي ، قال : فـاخبرني هـل ينفع البـر بعـد الفجـور ؟ قـال : نعم التوبة تغسل الحوبة ، والحسنات يذهبن السيئات ، واذا ذكـر العبد ربـه عند الرخاء ، اغاثه[3] عند البلاء .

---

(١) وفي رواية ـ الا هو ـ.

(٢) وفي رواية ـ لحق ـ.

(٣) وفي رواية ـ أعانه .

قال العامري : وكيف ذلك يا بن عبد المطلب ؟ قال : ذلك بان الله يقول : لا وعزتي وجلالي ، لا أجمع لعبدي أمنين ، ولا أجمع له ابداً خوفين ، إن هو خافني في الدنيا أمنني يوم اجمع فيهً عبادي عندي في حظيرة الفردوس[1]، فيدوم له أمنه ولا امحقه[2]فيمن أمحق، وان هو أمنني في الدنيا خافني يوم اجمع فيه عبادي لميقات يوم معلوم ، فيدوم له خوفه .

قال العامري : يا بن عبد المطلب ، اخبرني الى ما تدعو ؟ قال : ادعو الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وان تخلع الانداد ، وتكفر باللات والعزى ، وتقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول ، وتصلي الصلوات الخمس بحقائقهن ، وتصوم شهراً من السنة ، وتؤدي زكاة مالك ، يطهرك الله بها ويطيب لك مالك ، وتحج البيت اذا وجدت اليه سبيلا ، وتغتسل من الجنابة ، وتؤمن بالموت ، وبالبعث بعد الموت ، وبالجنة والنار ، قال : يا بن عبد المطلب ، فاذا فعلت ذلك فما لي ؟

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : **﴿ جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾**[3] قال : يا بن عبد المطلب ، هل مع هذا من الدنيا شيء ؟ فانه يعجبني الوطاءة من العيش . . .

---

(١) وفي طبعة ثانية ـ القدس ـ.

(٢) وفي رواية : ـ أمحق .

(٣) سورة طه : آية ـ ٧٦ ـ.

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : نعم ، النصر والتمكن في البلاد ،

قال : فاجاب . . وأناب »[1].

---

(1) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤

نظرة وتحليل حول حادثة شق الصدر

ان حادثة شق الصدر ذكرها اكثر الرواة من المؤرخين واصحاب السير ، واوسعوها بحثاً وتدقيقاً ، وبعضهم ذكرها على انها حدثت مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو في حوالي السنة الثالثة من العمر .

وبعضهم ذكرها على انها حدثت والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في السنة الخامسة من العمر . وبعضهم ذكرها على أنها كانت قد حدثت معه وهو في العشرين من سني عمره الشريف كما جاء ذلك في كثير من كتب التاريخ والتفسير .

وعلى كل حال . . . اختلاف الروايات في تاريخ حادثة شق الصدر لا يوجب انكارها فشأن رواية هذه الحادثة كشأن الكثير من الروايات في الحوادث المختلفة من حيث اختلاف التاريخ وبعض الالفاظ .

حادثة شق الصدر هي حادثة عظيمة من قبيل الاعجاز ، ومعجزات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كثيرة لا يمكن أن نحصيها . بل نقول إن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ، وهو اعلم بحقائق الامور .

والعقل لا يمنع من ذلك لأن قدرة الله عز وجل تتسع لما لا تحيط به

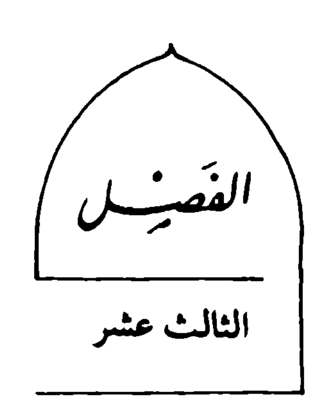
العقول ، ولا تدركه الاوهام . ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض وهو العلي العظيم** ﴾[1] .

ونرى الكثير ممن تصدى لتفسير القرآن الكريم قد أشار الى حادثة (شق الصدر) في تفسير سورة (ألم نشرح) .

وعندي ان الظاهر والله العالم في قوله سبحانه : ﴿ **الم نشرح لك صدرك** ﴾ المراد به ان البارىء تعالى شرح صدر النبي الشريف في الاسلام ، وملأه علما وحكمة ، وجعله فسيحا واسعا .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٥٥ .



الفصل

الثالث عشر

ذكر بعض احوال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)بعد وفاة ابيه

لا بد لنا من ذكر بعض احوال النبي (صلى الله عليه وآلـه وسلم) مع جده عبد المطلب بن هاشم الذي كان قد آثـره بحبه ، واغـدق عليه من العطف والحنان ما يعجز عنه البيان .

لقد سبق منا الكلام في ذكر ما تتحلى بـه شخصية عبـد المطلب من الخصال الحميدة والمزايا والمروءة ، وكيف كان فـرحه وابتهـاجه في مـولد النبي العظيم ، وكيف كان اهتمامه به وحدبه وعطفه على حفيـده الغالي الذي فقد اباه وهو لم يزل جنينا على اكثر الروايات[1]وفقـد حنان الأم ، وتجـرع مرارة اليتم وهـو في ابان طفـولته . وهـذا مـا زاد في حنـو الجـد الكريـم عبد المطلب واعزازه لحفيـده العظيم محمـد (صلى الله عليـه وآله وسلم) .

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أُمه آمنـة بنت وهب وجـده عبد المـطلب مرعيـا بعين الله وحفـظه ، ينبته الله سبحـانه

---

(١) اختلفت الروايات في ولادة الرسول الاعظم (صلى الله عليـه وآله وسلم) هـل كانت ولادته قبل وفاة ابيه عبد الله ؟ ام بعدها ؟ .

وتعالى نباتاً حسناً لما يريد له من الكرامة . بما سيحمله من اعباء الرسالة المقدسة .

= ذكر اليعقوبي في تاريخه : ص ٦ ، ج ٢ ، (توفي عبد الله بن عبد المطلب ابو رسول الله ، على ما روى جعفر بن محمد ، و بعد شهرين من مولده .

رحلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى يثرب مع أُمه آمنة

يحدثنا التاريخ : أن السيدة آمنة بنت وهب أرادت من زيارة قبر زوجها الغالي عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي رقد تحت ثرى يثرب عند اخواله بني النجار[1] أن يتعرف وحيدها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على خؤولته الذين كانوا ذوي شرف واصحاب جاه وسؤدد وكرم وسخاء .

وكم من مرة رددت السيدة آمنة امام ولدها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث ابي وهب بن عمرو وذلك حينما أرادت قريش تجديد بناء الكعبة المقدسة واجمعت على ذلك فقال لهم ابو وهب مخاطباً :

« يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيِّباً . . لا يدخل فيها مهر بغي . . . ولا بيع ربا . . . ولا مظلمة احد من الناس . . . الى آخره »

وفي ابي وهب خال عبد المطلب يقول الشاعر :

---

(١) كان هاشم بن قصي قد تزوج من سلمى بنت عمرو بن زيد من بني النجار ، فولدت له عبد المطلب (شيبة الحمد) جد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . ومن هنا كانت خؤولة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من بني النجار .

ولـو بـابي وهبٍ انخت مـطيتي غدت من نداه ، رحلها غير خائب
بأبيض من فرعي لؤي بن غالب اذا حُصِّلت انسابها في الـذوائب
أبي لاخـذا الضيم ، يرتاح للندى تـوسط جـداه فـروع الاطـايب

ويحدثنا التاريخ أيضاً : عن السيدة آمنـة وولدهـا محمد (صـلى الله عليه وآله وسلم) ومعهما جاريتهما ام أيمن (بركـة) عندمـا وصل ركبهم الى مدينة يثرب ، ونزلوا ضيوفا على بني النجار .

ذهبت آمنـة مع ولـدها محمـد (صلى الله عليـه وآله وسلم) لتـريـه البيت الذي مرض فيه ابوه عبد الله زوجها الغالي ، ولزيارة قبره .

وقفت خـاشعة عنـد القبر الـذي حـوى رفـات الـزوج الحبيب . . تستعيذ الذكـريات ، واسعفتهـا عيناهـا بما شـاءت من الدمـوع تسكبها بلوعة وحرقة .

لقـد فسحت السيدة آمنـة المجال لـولدهـا العزيـز لينطلق مـع أبناء خؤولتـه الكرام . فـانطلقـوا به الى منـازلهم ومـلاعبهم ، يسـرح معهم ويمرح ، ويسبح مثلهم في مجامع المياه .

بقيت آمنـة قرب قبـر زوجها الحبيب تنـاجيه حينـاً وتبث الـزفـرات وتصعـد الحسرات من ألم الفـراق حيناً آخـر . وهي راضيـة بقضـاء الله وقدره .

وطـاب للسيدة آمنـة وولدهـا العيش في رحاب مـدينة يثـرب ، بين الأخوال الطيبين فمكثت شهراً كـاملا في راحـة بال نفَّست في هـذه المدة عن حزنها المكبوت ، وتمتع ولدها الحبيب بالجـو اللطيف وبصحبة رفـاقه من اولاد الخؤلة .

وفاة آمنة ام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

عندما آن لآمنة أن تعود الى مكة المكرمة ، ودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقي ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم .

ولما ازمعت على المسير ركبت راحلتها ومعها ولدها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وجاريتها بركة (ام ايمن) حاضنة محمد وهي التي تركها عبد الله من جملة ما ترك . وقد كانت أم أيمن وفية مخلصة قامت بحضانة الرسول وخدمته الى آخر أيام حياتها خير قيام .

وعندما وصل الركب الى مكان يدعى (الابواء) بين مكة والمدينة ، شعرت آمنة بضعف طارىء مكّن له من جسمها الضعيف ما هاج في فؤادها من لوعة الحزن والم الفراق .

تقول بعض الروايات أيضاً أن السيدة آمنة عندما اشتد عليها المرض واحسّت بالاجل المحتوم ، تشبثت بوحيدها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) معانقة له وقد انهمرت الدموع من عينيها الذابلتين ، نظرت الى وجهه وقالت له :

بارك فيك الله من غلام
يا ابن الذي من حومة الحمام
نجا بعون الملك العلام

فـودي غـداة الـضـرب بـالـسـهـام
بمـائـة مـن ابـل سـوام[1]

ثم امسكت تستريح ، فلما التقطت انفاسها اللاهثة همست في حشرجة الاحتضار :

« كل حي ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وانا ميتة وذكري باق ، فقد تركت خيراً ، وولدت طهراً . . الى آخره »

والتفت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الى ام ايمن ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك من الكلام إلا أن تقول له : انه الموت يا بني . . ؟

وخيم على المكان صمت رهيب مزقته بعد فترة صرخة صبي مفجوع انحى على جثة أمه يبكيها بلوعة ويناديها فلم تلب النداء . . .

وقف (صلى الله عليه وآله وسلم) يتفكر متأملا بصمت وحزن يردد كلمة ام ايمن ـ انه الموت ـ

اجل انه الموت الذي افقده اباه من قبل .

اجل انه الموت الذي جرع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش ، ولا اندمل في قلبها الجرح الذي تركه فقد الزوج طيلة ايام ، واشهر ، واعوام ،

---

(١) المراد هنا الاشارة الى فداء عبد الله بمائة من الابل ـ راجع الروض الأنف للسهيلي وغيره .

انه الموت ذاك الذي يطوي الأعزاء ، والاهل في جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ذهاب ، ولا لقاء.

انـه الموت ذاك الـذي يمضي بالمسـافر الى حيث لا رجعـة للدنيا ولا عودة . . ولا مآب .

انه الموت حكمة الله تعالى وسنتـه في خلقه . . . وقضـاؤه الذي لا مرد له .

ودفنت السيدة آمنة (رحمة الله عليها ورضوانه) (بالابواء)، ورجع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يحمـل اثقال الحـزن واليتم واللوعة ، تحضنه أم أيمن لتعيده الى مكة المكرمـة بلد الأهـل والاقارب ، الى منـزل جده عبد المطلب .

بعض ما ورد في وفاة السيدة آمنة أم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

جاء في كتب التاريخ والسير : أن النبي محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما بلغ من العمر ست سنين ، على اكثر الاقوال ، توفيت أُمه آمنة بنت وهب وبقي (صلوات الله وسلامه عليه) بلا أب ، ولا أم ، يتجرع مرارة اليتم .

يقول ابن هشام في سيرته : « قال ابن اسحاق: ان ام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) آمنة توفيت ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ابن ست سنين (بالابواء) . بين مكة والمدينة .

كانت قد قدمت به على اخواله من بني عدي بن النجار ، تزيره اياهم ، فماتت وهي راجعة به الى مكة »[1].

يقول اليعقوبي في تاريخه : « توفيت امه (اي ام رسول الله) آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، بعدما اتي عليه ست سنين وثلاثة أشهر ، ولها من العمر ثلاثون سنة .

وكان وفاتها بموضع يقال له (الابواء) بين مكة والمدينة . وكان عبد المطلب جد رسول الله يكفله »[2].

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٧ .

جاء في نهاية الارب : « قال الواقدي وغيره من أهل العلم : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما بلغت سنه ست سنين ، خرجت به الى اخواله بنيّ عدي بن النجار، بالمدينة تزورهم به ومعه ام ايمن تحضنه ، وهم على بعيرين .

فنزلت به في دار النابغة ، فاقامت به عندهم شهرا ، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يذكر اموراً كانت في مقامه ذلك ، لما نظر الى اطم بني عدي بن النجار عرفه وقال :

كنت مع غلمان من اخوالي ، ونظر الى الدار فقال : ها هنا نزلت بي امي ، وفي هذه الدار قبر ابي عبد الله ، واحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار .

وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون اليه[1]فقالت ام أيمن : فسمعت احدهم يقول : هذا نبي الأمة ، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامه .

ثم رجعت به (برسول الله) الى مكة ، فلما كانوا بالابواء[2]توفيت آمنة بنت وهب . فقبرها هناك .

فرجعت به (برسول الله) أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما الى مكة ، وكانت تحضنه مع أمه ، ثم بعد أن ماتت .

---

(١) وفي رواية : ـ ينظرون الي .

(٢) الابواء: بفتح الهمزة ـ موضع بين مكة والمدينة ، وهو الى المدينة اقرب . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٢ .

ولما مرَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في عمرة الحديبية قال : « ان الله اذن لمحمد في زيارة قبر أُمه » فاتاه (صلى الله عليه وآله وسلم) فاصلحه ، وبكى عنده . وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له : فقال :

ـ ادركتني رحمتها فبكيت . . . والله الرحمن . »[1]

---

(١) نهاية الارب في فنون الادب ، النويري ، ج ١٦ ، ص ٨٧ .

الرسول الاعظم في كفالة جده عبد المطلب

يحدثنا التاريخ من صدى السنين الغابرة عن عبد المطلب بن هاشم سيد قريش وكيف قام برعاية حفيده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خير قيام .

كان يؤثره على اولاده وعلى جميع اقاربه ولم يتقاعس في يوم من الايام او ساعة من الساعات عن الاهتمام بشؤونه (صلى الله عليه وآله وسلم) والمحافظة عليه وكان نصب عينيه دائماً وابدا .

لقد تلقى عبد المطلب حفيده الغالي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد عودته مع أم أيمن من يثرب . وبعد أن رجع من رحلته مخلِّفاً بالابواء جثمان أُمه الطاهر (آمنة بنت وهب) واصبح يتيم الابوين .

ضمه جده اليه وغمره بعطفه وحبه واعزازه وضاعف هذا الحب حرمان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من حنان الابوين فاحاطه بالرعاية والعناية مؤثراً إياه على اولاده فكان يقربه منه ويدنيه ، ويعزه ويكرمه ، ولا يرضى بابعاده عنه ، ويلبي له جميع طلباته ورغباته وهو مرتاح الضمير لما يصنعه مع حفيده من الاكرام . وكان يحافظ عليه محافظة الصدر على جنانه والطرف على انسانه وذلك لما كان سمعه من

الاساقفة والملوك وخصوصاً سيف بن ذي يزن ملك اليمن الذي بشر عبد المطلب بعظمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ونبوته كما اسلفنا .

يقول الحلبي في سيرته : « قال لعبد المطلب قوم من بني مدلج » وهم القافة[1] العارفون بالآثار والعلامات ، احتفظ به (اي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فانا لم نر قدماً اشبه بالقدم التي في المقام منه ، وهي قدم ابراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) ، فان ابراهيم (عليه الصلاة والسلام) أثّرت قدماه في المقام ، وهو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت ، وهو الذي يزار الآن بالمكان الذي يقال له مقام ابراهيم . وقد اشار الى ذلك عمه ابو طالب (اي عم رسول الله) في قصيدته بقوله مقسماً :

وبالحجر المسود اذ يلثمونه   اذا اكتنفوه في الضحى والاصائل
وموطىء ابراهيم في الصخر رطبة   على قدميه حافيا غير ناعل[2]

---

(١) القائف جمع قافة : الذي يتتبع الآثار يعرفها ـ الذي يعرف النسب بفراسته ونظره الى اعضاء المولود . يقال : هو اقوف الناس للاثر أي احذقهم « المنجد » وقد برع قوم من العرب في الجاهلية ـ بالقيافة ـ والعِرافة . وغير ذلك .

(٢) قال الحافظ ابن كثير : يعني ان رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة .
وعن أنس : رأيت في المقام اثر اصابع ابراهيم (عليه السلام) وعقبيه ، وأخمص قدميه ، غير ان مسح الناس بأيديهم اذهب ذلك . ومشابهة قدمه (صلى الله عليه وآله وسلم) لقدم سيدنا ابراهيم (عليه السلام) تدل على ان تلك الاقدام بعضها من بعض كما تقدم في قول (مجزز المدلجي) في=

ويذكر الحلبي ايضاً : بينا عبد المطلب يوما في الحجر وعنده اسقف نجران ، وذلك الاسقف يحادثه ويقول له : انا نجد صفة نبي بقي من ولد إسماعيل ، وهذا البلد مولده ، ومن صفته كذا وكذا . . واذا برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد اتى . فنظر اليه الاسقف ، والى عينيه ، والى ظهره ، والى قدميه . وقال : هو هذا . . . ! ما هذا منك ؟

قال عبد المطلب : هذا ابني ، قال الاسقف : ما نجد اباه حيا ! قال : هو ابن ابني . . وقد مات ابوه وأمه حبلى به . قال : صدقت . . .

فقال عبد المطلب لبنيه : تحفظوا بابن اخيكم ، ألا تسمعون ما يقال فيه . ؟ !

وفي السيرة الحلبية عن ام ايمن ايضاً قالت : كنت احضن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واقوم بتربيته وحفظه ، فغفلت عنه يوما ، فلم ادر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسي يقول : يا بركة ؟ قلت : لبيك .

قال : اتدرين اين وجدت ابني ؟ قلت : لا ادري . قال : وجدته

= زيد بن اسامة وقد ناما وغطيا رؤوسهما ، وبدت اقدامهما ، ان هذه الاقدام بعضها من بُعض فسر بذلك (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن في ذلك رداً على من كان يطعن في نسب زيد. وذكر بعضهم ان نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) أثرَّ قدمه في الحجر ايضاً وقد أثر في صخرة بيت المقدس ليلة الاسراء ، وان ذلك الاثر موجود الى الآن .

مع غلمان قريباً من السدرة . لا تغفلي عن ابني فان اهل الكتاب ومنهم سيف بن ذي يـزن[1]يزعمـون أنه نبي هـذه الأمـة . وانـا لا آمن عليـه منهم .

وكـان عبـد المـطلب لا يـأكـل طعـامـا الا يقـول : عـليَّ بـابني . احضروه .

وكان عبد المطلب اذا اتي بطعام اجلس رسول الله (صـلى الله عليه وآله وسلم) الى جنبه ، وربما اقعده على فخذه ، فيؤثره باطيب طعامه .

وفي السيرة الحلبية عن ابن عبـاس قال : سمعت ابي يقـول : كان لعبد المطلب مفرش في الحجر ، لا يجلس عليـه غيره ، وكـان حرب بن أمية فمن دونه من عظماء قريش يجلسون حوله دون المفرش.

فجـاء رسول الله (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) يومـا وهو غـلام لم يبلغ الحلم فجلس عـلى المفرش فجـذبه رجـل فبكى رسـول الله (صـلى الله عليـه وآله وسلم) فقـال عبد المـطلب وذلك بعـدما كف بصـره. ما لابني يبكي . . ؟! .

---

(١) يقول اليعقوبي في تاريخه : ج ٢ ، ص ٩ « كان عبد المطلب قد وفـد على سيف بن ذي يزن (ملك اليمن) مع جلة قومه ؛ لما غلب على اليمن . فقدمه سيف عليهم جميعاً وآثره ، ثم خلا به ، فبشـره برسـول الله ووصف له صفتـه فكبـر عبد المـطلب ، وعرف صـدق ما قـال سيف ، ثم خرَّ سـاجـداً ، فقـال سيف : هل أحسست لما قلت نبأ ؟ فقال له : نعم . ولد لابني غلام على مثال ما وصفت أيها الملك . قال : فاحذر عليه اليهود . . وقومك . .
وقومك اشد من اليهود . والله متمم أمره ، ومُعلٍ دعوته .

قالوا : اراد أن يجلس على المفرش فمنعوه .

فقال عبد المطلب : دعوا إبني يجلس عليه ، فانه يحس من نفسه بشرف . . . وارجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده . فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عبد المطلب او غاب . » .

وفي السيرة الحلبية أيضاً : « قال ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رَمَدَ وهو صغير ، فمكث اياماً يشكو ، فقال قائل لجده عبد المطلب : ان بين مكة والمدينة راهباً يرقى من الرمد ، وقد شفي على يديه خلق كثير .

فاخذه جده عبد المطلب وذهب به الى ذلك الراهب ، فلما رآه الراهب دخل الى صومعته فاغتسل ولبس ثيابه ، ثم اخرج صحيفة فجعل ينظر الى الصحيفة واليه (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال : هو والله خاتم النبيين .

ثم قال : يا عبد المطلب هو ارمد ؟ قال : نعم . . . قال : إن دواءه معه يا عبد المطلب ، خذ من ريقه وضعه على عينيه .

فاخذ عبد المطلب من ريقه (صلى الله عليه وآله وسلم) ووضعه على عينيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فبرأ لوقته .

ثم قال الراهب : يا عبد المطلب وتالله هذا هو الذي أُقسم على الله به فابرىء المرضى ، واشفي الاعين من الرمد »[١]

---

(١) ومن هذا القبيل ما ورد في خصوص علي بن ابي طالب (عليه السلام) حينما طلبه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بعض الحروب لحمل الراية على ما =

. . . .

= سيأتي انشاء الله . فقيل له يا رسول الله انه أرمد العين . فجاءه علي (عليه السلام) فجعل النبي من ريقه في عين علي فبرىء لساعته والى هذا يشير الشاعر بقوله :

واتاه الوصي ارمد عين   فسقاها من ريقه فشفاها

حرص عبد المطلب الشديد على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

نستمع الى التاريخ وهو يحدثنا باسهاب عما بلغ من حرص عبد المطلب الشديد على حفيده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فيا لروعة الايمان ، وصدق العقيدة ، وعنوان المحبة والاخلاص . .

سبحانك اللهمَّ وبحمدك . . جعلت في قلب عبد المطلب حباً شديداً ، وانرت بصيرته بالحكمة والهداية ، وزودته بالعطف والحنان ، وجعلته لرسولك (صلى الله عليه وآله وسلم) مربياً ، ومحامياً ، وكفيلا .

اجل لم يأل عبد المطلب بن هاشم جهداً في الحفاظ على حفيده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) طرفة عين ، كما سبق منا الكلام .

كان اذا غاب عن عينه حفيده الغالي يشتاق اليه ، ويحن لرؤياه وكأنه غاب عنه مدة طويلة .

كان عبد المطلب اذا سمع عن حفيده الغالي شيئاً من مرض او رمد او غير ذلك لا يستقر ولا يهدأ حتى يفعل ما يرتاح له ضميره ويهنأ به عيش محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

من هنا نرى جميع الكتاب والمؤرخين واصحاب السير ، يذكرون في كتبهم ومقالاتهم حرص عبد المطلب الشديد ومحافظته على راحة حفيده.

العظيم . وذلك لأنه كان قد حصل له الايمان الصادق والاعتقاد الكامل ، بان حفيده محمد سيلي أمراً عظيماً ويكون له من الشأن الكبير ما لم يكن لغيره من قبله ومن بعده . وما حصل هذا الاعتقاد والايمان لعبد المطلب بحفيده الا بعدما أُخبره به من ارباب العلم والمعرفة من أهل الكتب والديانات واصحاب الكهانة والملوك كسيف بن ذي يزن وغيره . علاوة عما كان يراه من خوارق العادات التي تحصل لحفيده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وما حباه البارىء سبحانه من نبل وشهامة واخلاق ومزايا ميزته عن جميع الخلائق من بني البشر .

كان عبد المطلب يرى في حفيده العظيم صلاح قريش ، وصلاح العرب ، بل وصلاح العالم اجمع . وهو الذي في توفيق الله وعنايته سينقذ العالم من الجهالة وحيرة الضلالة ويخرجه من الظلمات الى النور الى الطريق الواضح والصراط المستقيم .

ونستدل على شدة حرص عبد المطلب وعنايته الفائقة بالنبي الكريم من خلال مواقفه المتكررة منها ما رواه الحلبي في سيرته . قال : « ذكر ابن اسحاق أن حليمة مرضعة النبي لما قدمت به مكة لترده على امه بعد حادثة شق صدره (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد بلغ اربع سنين ـ او خمساً ـ أو ستاً على ما تقدم ، أضلّته في اعالي مكة ، فأتت جده عبد المطلب فقالت : اني قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت باعالي مكة اضلني ، فوالله ما ادري اين هو ؟ . . .

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله ان يرده عليه ، وأنشد :

يا رب ردَّ ولدي محمدا   أردده ربي واصطنع عندي يدا

وتكرر ذلك منه ، فسمع هاتفاً من السماء يقول : أيها الناس لا تضجوا ان لمحمد ربا لن يخذله ، ولا يضيعه .

فقال عبد المطلب : من لنا به ؟ ! فقال : انه بوادي تهامة عند الشجرة اليمنى . فركب عبد المطلب نحوه ، وتبعه ورقة بن نوفل ، فوجداه (صلى الله عليه وآله وسلم) قائماً تحت شجرة يجذب غصناً من اغصانها ، فقال له جده : من انت يا غلام[1] ؟ فقال : انا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال : وانا عبد المطلب جدك فدتك نفسي ، واحتمله وعانقه وهو يبكي .

ثم رجع عبد المطلب الى مكة وهو قدامه على قربوس فرسه ، ونحر الشياه والبقر واطعم اهل مكة .

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : ظللت عن جدي عبد المطلب وانا صبي ، فصار ينشد وهو متعلق باستار الكعبة :

يا رب ردُّ ولدي محمدا اردده ربي واصطنع عندي يدا

---

(١) اقول وقول جده له : من انت يا غلام ؟ لعله لكونه وجده على حالة لا توجد لمن يكون في سنه عادة كما روي عن حليمة السعدية من قولها : كان محمد يشب شباباً لا يشبه الغلمان .

وفي السيرة الهشامية ان الذي وجده هو ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب .

ويقال : ان عمرو بن نفيل رآه وهو لا يعرفه فقال : من أنت يا غلام ؟ فقال : انا محمد بن عبد الله بن عد المطلب بن هاشم فاحتمله بين يدي على الراحلة حتى اتى به عبد المطلب .

فجاء بي ابو جهل بين يديه على ناقة وقال لجدي : ألا تدري ما وقع من ابنك ؟ ! .

فسأله جدي فقال : انخت الناقة واركبته من خلفي فابت أن تقوم ، فاركبته من امامي فقامت .[1]

---

(١) انسان العيون ، المعروفة بالسيرة الحلبية : علي بن برهان الدين الحلبي .

وصية عبد المطلب بحفيده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

يا لعظمة الاخلاص والوفاء .. ويا لروعة التضحية والايثار في ادق مراحل حياة الانسان واصعبها، عند حشرجة الموت، وعندما يذهل المرء حتى عن نفسه.

في هذا الوقت العصيب نرى سيد قريش عبد المطلب في آخر لحظات حياته لم يشغله شاغل ولم يفكر بشيء سوى تأمين الرعاية والحماية لحفيده الغالي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

اجل لننظر الى عبد المطلب هذا السيد الكريم ومدى اهتمامه بالحفيد العظيم، هذا الاهتمام الممزوج بالحب والعطف، والتقدير، والاعظام.

روى المؤرخون أنه حينما احس عبد المطلب بدنو الاجل وانتهاء حياته في خضم الدنيا الفانية، لم تشغله امور الدنيا، ولم ينظر بامور الاهل والاولاد، ولم يكن همه سوى رعاية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والعناية به والمحافظة على سلامته. ليرحل الى دار القرار مطمئن البال فقد قام باداء واجبه المقدس.

ذكر شاذان في فضائله: «قال الواقدي: ودب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). ودرج واتى عليه ثمان سنين وثمانية اشهر وثمانية

ايام . فعندها اعتل عبد المطلب علة شديدة فامر أن يحمل سريره الى عند بيت الله الحرام ، وينصب هناك عند استار الكعبة ، وكان لعبد المطلب سرير من خيزران ، اسود ، ورثه من جده عبد مناف ، وكان السرير له شبكات من عاج وآبنوس وصندل، وعمود احسن ما يكون احكاما وهيئة .

وامر عبد المطلب ان يزين السرير بالوان من الفرش والديباج الرقاق ، وأمر أن ينصب فوق سريره فسطاط من ديباج احمر ، ففعل ذلك .

وحُمل عبد المطلب الى بيت الله الحرام ، ونام على ذلك السرير المزين ، وقعد حوله اولاده ، وكان له من البنين عشرة انفس ، فمات عبد الله وبقي بعده تسعة شجعان ، يعد كل واحد منهم بالف .

قعدوا حوله ، وحفوا بعبد المطلب يبكون ودموعهم تتقاطر على خدودهم كالمطر . وقعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واجتمعت عند عبد المطلب بطون العرب وكبار قريش مصطفين ، ما منهم احد الا وعيناه تهملان بالدموع .

فعند ذلك ظهر ابو لهب لعنه الله تعالى واخزاه ، واخذ برأس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليحنيه ، وينحيه عن عبد المطلب . فصاح عبد المطلب وانتهره وقال له : مه . . . يا عبد العزى انت من عدوانك لا تنفك من اظهارك لبغضك محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اقعد مكانك واسكت عنه .

فقام ابو لهب وقعد عند رجلي عبد المطلب خجلا مخذولا . لأن ابا

لهب كان من الفراعنة المبغضين لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ثم انقلب عبد المطلب الى جنبه ، واقبل بوجهه على ابي طالب ، والقى اليه النبي[1]، لأنه لم يكن في اولاد عبد المطلب ارفق برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا أميل منه . ثم انشأ عبد المطلب يقول :

اوصيك يا عبد مناف بعدي	بواحد بعد ابيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد	فكنت كالام له في الوجد
الصقه بين الحشى والكبد	حتى اذا خِفتُ فراق الوجد
اوصيتُ ارجى اهلنا بالود	لابن الذي غيبته في اللحد
بالكره مني ثم لا بالعمد	وخيرة الله يشأ في العبد

ثم قال عبد المطلب : يا ابا طالب انني القي اليك وصيتي ، قال ابو طالب : وما هي ؟ .

قال : يا بني اوصيك بعدي بقُرَّة عيني محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فانت تعلم محله مني ومقامه لديَّ فاكرمه باجل الكرامة ، ويكون عندك ليله ونهاره ، ما دمت في الدنيا ، ثم الله في حبيبه .

ثم قال لاولاده : اكرموا وجللوا محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) وكونوا عند اعزازه واكرامه ، فسترون منه امراً عظيماً عليا ،

---

(١) هكذا في الاصل ـ والظاهر القى اليه امر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والله العالم .

وسترون آخر امره ما انا اصفه عند بلوغه . فقالوا باجمعهم : السمع والطاعة يا أبانا نفديه بانفسنا واموالنا ونحن له فدية .

قال ابو طالب : قد أوصيتنا بمن هو افضل مني ومن اخواني قال : نعم .

ولم يكن في اعمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ارفق من ابي طالب قديماً وحديثاً بامر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). ثم قال : ان نفسي ومالي دونه فداء. أنازع معاديه ، وأنصر مواليه فلا يهمنك امره .[1]

قال الواقدي : ثم أن عبد المطلب اغمض عينيه وفتحهما ، ونظر قريشاً ، وقال : يا قوم اليس حقي عليكم واجباً ؟ فقالوا باجمعهم : نعم ـ حقك على الكبير والصغير واجب ، فنعم القائد أنت ، ونعم السائق فينا ـ كنت فينا فجزاك الله تعالى عنا خيرا . وهوّن عليك سكرات الموت وغفر لك ما سلف لك من ذنوبك .

فقال عبد المطلب : اوصيكم بولدي محمد بن عبد الله ، فاحلوه محل الكرامة فيكم ، وبروه ولا تجفوه ، ولا تستقبلوه بما يكره .

فقالوا كلهم : قد سمعناك . . . واطعناك فيه .

---

(١) كان ابو طالب اكثر اعمام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حباً له وعطفاً عليه لأنه كما يذكر اهل التاريخ ان ام ابي طالب وعبد الله والد الرسول واحدة : فهو اخوه لامه وابيه . علاوة على ان ابا طالب حفظ وصية ابيه عبد المطلب وحمل الامانة واداها بكل اخلاص وتضحية شأن العظماء . وقد أسلم ودافع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما سيأتي .

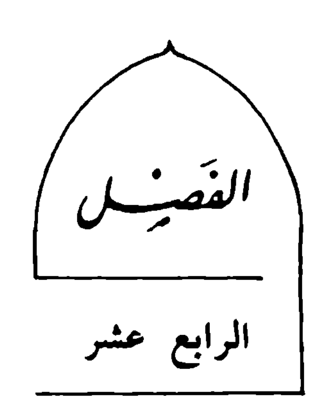
فعند ذلك تغير وجه عبد المطلب واخضرت اظافير يديه ورجليه ، ووقع على وجنتيه غبار الموت ، واكثر التقلب من جانب الى جانب مرة يقبض رجلا ومرة يبسط اخرى ، والخلائق من قريش وبني هاشم حاضرون ، وقد صارت مكة في ضجة واحدة .

واراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يقوم من عنده ففتح عبد المطلب عينيه وقال : يا محمد تريد أن تقوم ؟ قال : نعم . فقال عبد المطلب : يا ولدي فاني وحق رب السماء لفي راحة ما دمت عندي .

قال : فقعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فما كان إلا عن قليل حتى قضى نحبه »[1] .

---

(١) كتاب الفضائل ـ لشاذان : ص ، ٤٤ ، ٤٥ .


الفصل
الرابع عشر

الرسول الاعظم في كفالة عمه ابي طالب

نقف هنيهة نسائل التاريخ : ماذا جرى لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد وفاة جده عبد المطلب : ؟ هل أنه اصبح بعده يتيماً بكل معنى اليتم لا ناصر له ولا معين ؟ !

أم وجد محمد من يحنو عليه حنو المرضعات على الفطيم ؟
أم وجد من يكفله ويرعاه مثل جده واكثر . .
ونجد الجواب صريحاً ، واضحاً في بطون الكتب من روايات واحاديث . . في منعطفات التاريخ .

كلا ـ ان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يبق اليتيم او الوحيد الذي لا ناصر له ولا معين بعد فقد الاب ـ والام ـ والجد الكريم .

اجل لقد وجد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في ظل عمه أبي طالب سيد قريش وزعيمها ما يغني عن عطف الأب والأم والجد .

سبحانك رب العزة والقدرة ، لقد القيت في قلب ابي طالب محبة عظيمة وحناناً فياضاً ليجد نبيك العظيم في ظل عمه الكفيل من الرعاية والعناية الشيء الكثير .

اجل لقد كان ابو طالب المحامي والمدافع عن محمد دفاع المستميت ، دفاع الابطال ، دفاع المخلصين الاخيار، دفاع من لا تأخذه

في الله لومة لائم ، في نصرة ابن اخيه حامل الرسالة المقدسة ، نصرة دين الله القويم وصراطه المستقيم .

اجل ان ابا طالب كان لا يهنأ له عيش اذا فارقه ابن اخيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اذ كان يحافظ عليه حفاظ الصدر على جنانه والطرف على انسـانه. فكان يجفوه الرقاد فلا تغمض له عين الا أن يكون ابن اخيه الغالي الى جنبه وفي حجرته . وقد حفظ وصية ابيه فيه بكل معنى الكلمة وقام بها خير قيام فكان يؤثره على اولاده كما كان يقول ويردد :

إن ابن آمنة النبي محمـداً عنـدي يفوق منـازل الاولادِ

كان ابو طالب (رضوان الله عليه) اذا ذهب الى مكان أو الى تجارة يصحبه معه ولا يفارقه كما تقول الروايات . فاذا سافر في تجارة او غيرها كان معه اينما حل وحيثما ارتحل لئلا يغيب عنه ، وهذا هو غاية المحافظة والايثار .

روى ابن هشام في سيرته : « كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد عبد المطلب مع عمه ابي طالب ، وكان عبد المطلب ـ فيما يزعمون ـ يوصي به عمه ابا طالب ، وذلك لان عبد الله ابا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وابا طالب اخوان لأب وأم . امهمافاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

وكان ابو طالب هو الذي يلي امر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد جده . . فكان اليه ومعه »[1]

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

قصة بحيرى الراهب مع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وابي طالب

ذكر ابن هشام في سيرته : « قال ابن اسحاق ان ابا طالب خرج في ركب تاجراً الى الشام ، فلما تهيأ للرحيل واجمع المسير صبا به[1] رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فرق له ابو طالب وقال : والله لاخرجن به معي ، ولا يفارقني ، ولا افارقه ابداً.

فخرج به معه[2] فلما نزل الركب بُصرى[3] من ارض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرى[4] في صومعة له ، وكان اليه علم اهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب اليه يصير علمهم

---

(١) صبابه : مال اليه ـ وفي رواية تعلق به وأمسك .

(٢) أي رسول الله : ويقال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ ذاك ابن تسع سنين ، وقيل ابن اثنتي عشرة سنة ، وقيل غير ذلك والله العالم .

(٣) بصرى : مدينة بحوران ـ فتحت صلحاً لخمس بقين من ربيع الاول سنة ثلاث عشرة ـ وهي اول مدينة فتحت بالشام ـ وقد وَرَدَها (صلى الله عليه وآله وسلم) مرتين .

(٤) واسم بحيرى جرجيس ويقال : سرجس : كما يقال : جرجس . وفي بعض الروايات أن بحيرى كان حبراً من احبار يهود تيماء ـ كما يقال انه كان نصرانياً من عبد القيس وهو ما ذهب اليه ابن اسحاق هنا وقد اختلفت الروايات في شأن بحيرى والله العالم .

عن كتاب فيها . يتوارثونه كابرا عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العامّ.

فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته . يزعمون أنه رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهو في صومعته ، في الركب حين اقبلوا وغمامة تظله من بين القوم .

قال : ثم اقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه . فنظر إلى الغمامة حين اظلت الشجرة ، وتهصرت[1]اغصان الشجرة على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى استظل تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ثم ارسل اليهم فقال : اني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، فانا أحب ان تحضروا كلكم ، صغيركم وكبيركم ، عبدكم وحركم ، فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشاناً اليوم ! فما كنت تصنع بنا هذا وقد كنا نمر بك كثيراً ! فما شأنك اليوم ؟ ! .

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول . . ولكنكم ضيف وقد احببت ان اكرمكم واصنع لكم طعاماً فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا اليه وتخلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من

---

(١) تهصرت : مالت وتدلت ـ وتقول : هصرت الغصن ، وذلك اذا جذبته اليك .

بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن احد منكم عن طعامي ؟ !.

قالوا له : يا بحيرى[1] ما تخلف عنك احد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو احدث القوم سناً فتخلف في رحالهم فقال : لا تفعلوا . . . ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

قال : فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى ، ان كان للؤم بنا ان يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام اليه احتضنه . واجلسه مع القوم .

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ـ وينظر الى اشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام اليه بحيرى فقال له : يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الا ما اخبرتني عما اسألك عنه ؟ وانما قال له بحيرى ذلك لانه سمع قومه يحلفون بهما .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) له : لا تسألني باللات والعزى فوالله ما ابغضت شيئاً قط بغضهما .

فقال له بحيرى ؛ فبالله الا ما اخبرتني عما اسألك عنه ، فقال له : سلني عما بدا لك .

---

(١) بحيرى : بفتح الباء وكسر الحاء المهملة آخره الف مقصورة وقيل ممدودة .

فجعل يسأله عن اشياء من حاله في نومه وهيئته واموره . فجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

قال ابن اسحاق : فلما فرغ اقبل على عمه ابي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني .

قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام ان يكون ابوه حياً ، قال : فانه ابن اخي ، قال : فما فعل ابوه ؟ قال : مات وامه حبلى به ، قال : صدقت ، فارجع بابن اخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغونه شراً. فانه كائن لابن اخيك هذا شأن عظيم فاسرع به الى بلاده .

فخرج به عمه ابو طالب سريعاً حتى اقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ، فزعموا فيما روى الناس : ان زريراً وتمّاما ، ودريساً وهم نفر من اهل الكتاب ، قد كانوا رأوا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مثل ما رآه بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه ابي طالب ، فارادوه . فردهم عنه بحيرى ، وذكّر هم الله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وانهم ان اجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا اليه ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ، وصدقوه بما قال فتركوه وانصرفوا عنه »[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج١ ، ص ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ .

من شعر ابي طالب في قصة بحيرى الراهب

ذكر الشيخ الاميني في كتابه الغدير قصة الراهب بحيرى وما كان حديثه مع ابي طالب رضوان الله عليه بخصوص النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ووصيته له بالمحافظة عليه من الاعداء .

وبما أننا ذكرنا آنفاً قصة بحيرى كما رواها ابن هشام في سيرته نكتفي الآن بذكر ما قاله ابو طالب (رضي الله عنه) من الشعر في ذلك :

ألم تـــرني مـن بعــد همٍّ هممتــه	بفــرقـة حــر الـوالــدين حــرام
باحمد لما ان شددت مطيتي	بـرحلي وقـد ودعتـه بسـلام
بكى حزناً والعيس قد فصلت بنا	واخذت بالكفين فضل زمام
ذكرت اباه ثم رقرقت عبرة	تجود من العينين ذات سجام
فقلت : ترحَّل راشدا في عمومة	مواسير في البأساء غير لئام
فجاء مع العير التي راح ركبها	شآمي الهوى والاصل غير شآم
فلما هبطنا ارض بصرى تشرفوا	لنا فوق دور ينظرون جسام
فجاء بحيرا عند ذلك حاشداً	لنــا بشرابٍ طيب وطعــام
فقال : اجمعوا اصحابكم لطعامنا	فقلنا : جمعنا القوم غير غلام
يتيم ، فقال : ادعوه ان طعامنا	كثير عليه اليوم غير حـرام

فلولا الذي خبرتم عن محمد ... لكنتم لدينا اليوم غير كرام

فلما رآه مقبــلاً نحـو داره ... يوقِّيه حر الشمس ظل غمام

حنى رأسه شبه السجود وضمه ... الى نحره والصدر أي ضمام

واقبل ركب يطلبون الذي رأى ... بحيرى من الاعلام وسط خيام

فثار اليهم خشية لعرامهم[1] ... وكانوا ذوي بغي لنا وعرام

دريس وتمام وقد كان فيهم ... زبير[2]وكل القـوم غير نيـام

فجاؤوا وقد همّوا بقتل محمد ... فـردهم عنه بحسن خصـام

بتـأويله التـوراة حتى تيقنـوا ... وقال لهم : رمتم اشد مرام

اتبغون قتلا للنبي محمد ؟ ! ... خصصتم على شؤم بطول انام

وان الذي نختاره منه مانع ... سيكفيه منكم كيد كل طغام[3]

فـذلك من اعـلامه وبيـانـه ... وليس نهار واضح كظلام[4]

---

(١) العرام : الشراسة والأذى.

(٢) دريس ، وتمام ، وزبير ، وفي بعض النسخ : زدير ، احبار من اليهود .

(٣) الطغام : اوغاد الناس ـ والعامة تقول أوباش ـ رذال .

(٤) كتاب الغدير : الشيخ عبد الحسين الأميني : ج ٧ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

استسقاء ابي طالب بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

مهما قلنا أو كتبنا في عظمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكرامته على الله لمن نكن ذكرنا شيئاً مما هو فيه من عظيم الشأن وجلاله .

لقد كتب كتاب العالم ومؤ رخوه واسهبوا وحاولوا ان يستقصوا جميع ما كان عليه النبي من الافعال الجليلة النفع والاقوال العظيمة الفائدة فلم يتمكنوا من الاحاطة والاستيعاب .

ولهذا كثرت الابحاث ، وكثرت السير حتى لم يخل عصر من العصور الا وتقرأ الكتب الكثيرة التي تتضمن سيرته سلام الله عليه من طفولته الى صباه الى آخر ايام حياته الشريفة الى لقاء ربه تعالى أليس هو معجزة الكون ومنقذ الانسان .

يحدثنا التاريخ أن أهل مكة كانوا إذا نزلت بهم نازلة او اصابهم قحط أو أجدبت ارضهم وحبست السماء ماءها عنهم يلجأون الى عبد المطلب بن هاشم في ايامه وبعده الى ابنه ابي طالب ـ ليدعوا الله تفريج كربهم او الاستسقاء لهم ـ وذلك ببركة سيدنا ونبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

جاء في كتاب الغدير للأميني قوله : اخرج ابن عساكر في تاريخه

عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش : يا اباطالب : اقحط الوادي ، واجدب العيال ، فهلم واستسق ؟

فخرج ابو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن وحوله أغيلمة ، فاخذه ابو طالب فالصق ظهره بالكعبة ، ولاذ باصبعه الغلام ، وما في السماء قزعه[1]فاقبل السحاب من ها هنا وها هنا ، واغدق واغدودق ، وانفجر له الوادي ، واخصب البادي والنادي ، ففي ذلك يقول ابو طالب :

وابيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان عدل لا يخيس شعيرة ووزان صدق وزنه غير هائل[2]

اقول : لقد ذكر البعض من المؤرخين واهل السير أن ابا طالب (رضوان الله عليه) استسقى بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في زمن ابيه عبد المطلب ، وذلك عندما كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) رضيعاً .

يقول الشيخ الاميني في غديره : « ذكر الشهرستاني في الملل والنحل بهامش الفصل - ٣ - ٢٢٥ سيدنا عبد المطلب وقال : ومما يدل على

---

(١) القزعة : القطعة من السحاب .
(٢) راجع شرح البخاري للقسطلاني / ٢ : ٢٢٧ ، المواهب الدنية - ١ : ٤٨ - الخصايص الكبرى - ١ : ٨٦ ، ١٢٤ - شرح بهجة المحافل - ١ : ١١٩ - السيرة الحلبية - ١ : ١٢٥ - السيرة النبوية لزيني دحلان هامش الحلبية -١ : ٨٧ - طلبة الطالب - ص ٤٢ .

معرفته بحال الرسالة وشرف النبوة أن أهل مكة لما اصابهم ذلك الجدب العظيم ، وامسك السحاب عنهم سنتين ، أمر (عبد المطلب) ابا طالب ابنه ان يحضر المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو رضيع في قماط . فوضعه على يديه واستقبل الكعبة ورماه الى السماء وقال : يا رب بحق هذا الغلام . ورماه ثـانياً . . . وثالثاً، وكان يقول : بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً ، دائماً هاطلاً ، فلم يلبث ساعة ان طبق السحاب وجه السماء وامطر حتى خافوا على المسجد وانشد ابو طالب ذلك الشعر اللامي الذي منه ـ وابيض يستسقى الغمام . . . الى آخره.[1].

اقول وحديث الاستسقاء ذكره غير واحد من المؤرخين واصحاب السير في معنى واحد لكن مع اختلاف في بعض العبارات والالفاظ.

---

(١) الغدير ، للشيخ الاميني ، ج ٧ ، ص ٣٤٦

حـرب الفجار

اجمع المؤرخون واهل السير أن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في جميع مراحل حياته ، من طفولته . . الى صباه . . الى شبابه يتقدم بخطى واسعة نحو الخصال الحميدة بنبله ، ومكارم اخلاقه ، علاوة على نضارة شبابه ، وصحة جسمه ، وكمال عقله.

لقد اصبح محمد في ريعان شبابه ملء السمع والبصر فكان عونا لاعمامه وخصوصاً لابي طالب (العم والكفيل) الذي كان يفديه بنفسه عـلى ما سيأتي البحث في ذلك.

تقول الروايات أنه حينما وقعت حرب الفجار بين كنانة وقيس كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عوناً وسنداً للمظلومين على الظالمين . وببركة حضوره الميمون الطالع كان النصر حليف كنانة ضد قيس .

ذكر اليعقوبي في تاريخه عن حرب الفجار بقوله : « وشهد رسول الله الفجار وله سبع عشرة سنة ، وقيل عشرون سنة ، وكان سبب الفجار ـ وهي الحرب التي كانت بين كنانة وقيس ـ أن رجلا من ضمرة يقال له (البراض) بن قيس ـ وكان بمكة في جوار حرب بن امية ـ وثب على رجل من هذيل يقال له (الحارث) فقتله واخرجه حرب بن أمية من جواره فلحق بالنعمان بن المنذر، فاجتمع هو وعروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب .

وكان النعمان يوجه في كل سنة بلطيمة[1] الى عكاظ[2] للتجارة ، ولا يعرض لها احد من العرب حتى قتل النعمان اخا بلعاء بن قيس . فكان بلعاء بعد ذلك يغير على لطائم النعمان ، فلما اجتّمع عـروة والبراض عنده قال : من يجير لطائمي ؟ فقال البراض : أنا ، وقال عروة : انا مثله : فتنازعا كلاماً.

فلما خرجا وتوجه عروة لينصرف عرضه البراض فقتله ، واخذ ما كان معه من لطائم النعمـان . فاجتمعت قيس على قوم البراض ولجأت كنانة الى قريش فاعانتها ، وخرجت معها . فاقتتلوا في رجب ، وكان عندهم الشهر الحرام الذي لا تسفك فيه الدماء.

فسمي الفجار لأنهم فجروا في شهر حرام . وكان على كل قبيل من قريش رئيس ، وعلى بني هاشم الزبير بن عبد المطلب .

وقيل : ان ابا طالب كان يحضر في الايام ومعه رسول الله ، فاذا حضر هزمت كنانة قيساً ، فعرفوا البركة بحضوره فقالوا : يا ابن مطعم الطير ، وساقي الحجيج لا تغب عنا فانا نرى مع حضورك الظفر والغلبة . قال : فاجتنبوا الظلم والعدوان والقطيعة والبهتان ، فاني لا أغيب عنكم ، فقالوا : ذلك لك . فلم يزل يحضر حتى فتح عليهم .

وروي عن رسول الله أنه قال : شهدت الفجار مع عمي ابي طالب وانا غلام.

---

(١) اللطيمة : وهي العير التي تحمل المسك وبزَّ التجار، لسان العرب، مـادة لطم.

(٢) عكـاظ سوق كـانت تجتمع بهـا العرب ، لتبـادل التجارة ، وللتفـاخر والجـدل وانشاد الشعر .

حلف الفضول

بعدما انتهت قريش من حرب الفجار كما قدمنا ، كان بعدها حلف الفضول الذي تعاهدت فيه ان تأخذ للمظلوم حقه من الظالم.

كان على ما يروى : ان الفجار في شوال ، وحلف الفضل في ذي القعدة ـ وهو اشرف حلف كان قط.

يحدثنا التاريخ ان عبد المطلب وابناءه من بعده كانوا أهل المروءة والفضائل يسارعون لفعل الخير من اغاثة الملهوفين ونصرة المظلومين .

وقد دعا كل من ابي طالب واخيه الزبير الى عقد حلف الفضول عندما سمعا صوت رجل من زبيد وهو يستغيث ويتظلم ، ويطلب النصرة والانصاف .

فهاجت بهما النخوة والحمية فلم يقر لهما قرار حتى يأخذا له بحقه ، وينصفاه ممن ظلمه واعتدى عليه.

ومما زاد في اهمية هذا الحلف وشرفه حضور الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) (حتى بعد مبعثه) دائما يذكر حلف الفضول ويثني عليه بقوله : لقد شهدت في دار

عبد الله بن جدعان[1]حلفاً ما احب أن لي به حمر النعم[2]ـ ولو ادعى به في الاسلام لأجبت .

ذكر المسعودي في مروجه : « وكان حلف الفضول في ذي القعدة بسبب رجل من زبيد من اليمن ، وكان باع سلعة له من العاص بن وائل السهمي ، فمطله هذا بالثمن حتى يئس ، فعلا جبل ابي قبيس وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى بشعر يصف فيه ظلامته رافعاً صوته منادياً يقول :

يا للرجال لمظلوم بضاعته[3] ببطن مكة نائي الحي والنفر
ومحرم اشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت حرامته[4] ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فمشت قريش بعضها الى بعض ، وكان اول من سعى في ذلك الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، واجتمعت قبائل قريش في دار الندوة ، وكانت للحل والعقد[5].

---

(١) كان عبد الله بن جدعان في مكة يحترمه قومه لكبر سنه وشيخوخته ، ولسخائه وثرائه .

(٢) لعل مراده (صلى الله عليه وآله وسلم) : أي لا احب نقض حلف الفضول وان دفع لي حمر النعم في مقابلة ذلك . والله العالم .

(٣) وفي رواية ابن هشام ـ يا آل فهر المظلوم بضاعته .

(٤) وفي رواية : ان الحرام لمن تمت كرامته :

(٥) وفي سيرة ابن هشام : قام الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مَترَك . فاجتمعت هاشم ، وزهرة ، وتيم بن مرة في دار ابن جدعان ، فصنع لهم طعاماً وتعاقدوا ، وكان حلف الفضول . وكان بعدها أن أنصفوا الزبيدي من العاص .

وكان ممن اجتمع بها من قريش بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو المطلب بن عبد مناف ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، وبنو الحارث بن فهر ، فاتفقوا على أنهم ينصفون المظلوم من الظالم ، فساروا الى دار عبد الله ابن جدعان ، فتحالفوا هناك ، ففي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وان كنا جميعا اهل دار
نسميه الفضول اذا عقدنا يعزبه الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا اباة الضيم نهجر كل عار[1]

وجاء في تاريخ ابن الاثير: « قال ابن اسحاق : وكان نفر من جرهم وقطوراء يقال لهم : الفضيل بن الحرث الجرهمي ، والفضيل بن وداعة القطوري ، والمفضل بن فضالة الجرهمي ، اجتمعوا فتحالفوا ان لا يقروا ببطن مكة ظالماً ، وقالوا لا ينبغي الا ذلك لما عظم الله من حقها فقال عمرو بن عوف الجرهمي[2].

ان الفضول تحالفوا وتعاقدوا ان لا يُقر ببطن مكة ظالم
امر عليه تعاهدوا وتوافقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

ثم درس ذلك فلم يبق الا ذكره في قريش ، ثم ان قبائل من قريش تداعت الى ذلك الحلف[3]فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه »[4]

---

(١) مروج الذهب : للمسعودي، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

(٢) وفي رواية : ان القائل هذين البيتين هو الزبير بن عبد المطلب . وهو الأصح .

(٣) واول من تكلم بهذا الحلف الزبير بن عبد بن عبد المطلب لأن رجلاً من زبيد اتى بتجارة الى مكة فاشتراها العاص بن وائل السهمي فحبس حقه فاستعدى قبائل قريش والاحلاف فابوا أن ينصروه فوقف عند الكعبة وانشد (يا =

وذكر اليعقوبي في تاريخه قصة حلف الفضول وزاد عليها بقوله : « وقد قيل لم يكن رجل من بني أسد ، ولكنه قيس بن شيبة السلمي ، باع متاعاً من ابي خلف الجمحي ، وذهب بحقه . فقال هذا الشعر . . الذي منه :

يا اهل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة ناء الاهل والنفر

وقيل بل قال :

يال قصي كيف هذا في الحرم ؟ ! وحرمة البيت واخلاق الكرم

أظلم لا يمنع مني من ظلم . . !

فتذممت قريش ، فقاموا فتحالفوا أن لا يظلم غريب ولا غيره ، ولأن يؤخذ للمظلوم من الظالم . . .

واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التميمي ، وكانت الاحلاف هاشم ، واسد ، وزهرة ، وتيم ، والحارث بن فهر. فقالت قريش: هذا فضول من الحلف[1] فسمي حلف الفضول.[2].

= للرجال ـ الابيات) وقيل بل سمي كذلك لأنهم تحالفوا ان ترد الفضول على اهلها والا يغزو ظالم مظلوما .

(٤) تاريخ ابن الاثير ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(١) الفضول : للمبالغة . وهو افضل حلف من احلاف العرب .

قال البعض سمي حلف الفضول لأنه حضره ثلاثة نفر يقال لهم : الفضل بن فضاعة ـ والفضل بن حشاعة ـ والفضل بن بضاعة .

وقد قيل : أن هؤلاء النفر حضروا حلفا لجرهم فسمي حلف الفضول بهم وشبه الحلف في تلك السنة .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٤ .

حلف الفضول ـ وتأثيره الاجتماعي

لقد أثر حلف الفضول تأثيره الاجتماعي الكامل في عصره ، فلم يجرأ احد على مخالفته في تلك الحقبة من الزمن ، ولم يحصل تعد من احد على احد بواسطته ، وما ذاك الا لانه فعل خير ، واحقاق حق ، واقامة عدل ، ونصرة مظلوم .

وليس اجدر من حلف يحمل هذه الخصال الحميدة من الاستمرارية في عصره وبعد عصره . لأنه حق ، والحق يستمر ، والحق لا يموت وان طال الزمن . والحق احق أن يتبع .

اجل لقد بقي حلف الفضول ساري المفعول حتى بعد البعثة النبوية الشريفة ، الى صدر الاسلام الأول وفي زمن ريحانة الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، الحسين بن عليه (عليهما السلام) .

ذكر ابن هشام في سيرته : « قال ابن اسحاق : وحدثني يزيد بن عبد الله بن اسامة بن الهادي الليثي ان محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي حدثه :

أنه كان بين الحسين بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنهما) ، وبين الوليد ابن عتبة بن ابي سفيان . ـ والوليد يومئذٍ أمير على المدينة

أمّره عليها عمه معاوية بن ابي سفيان ـ منازعة في مال كان بينهما بذي المروة[1] .

فكان الوليد تحامل على الحسين (رضي الله عنه) في حقه لسلطانه ، فقال : له الحسين : (أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم لادعونّ بحلف الفضول.

قال : فقال عبد الله بن الزبير ، وهو عند الوليد حين قال الحسين (رضي الله عنه ما قال : وانا احلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ، ثم لاقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا .

قال : فبلغ المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري، فقال مثل ذلك . وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي ، فقال مثل ذلك.

فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة انصف الحسين من حقه [2].

---

(١) ذو المروة : قرية بوادي القرى ، وقيل بين خشب ووادي القرى . (راجع معجم البلدان) لياقوت .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

من هو ابو طالب (رضي الله عنه) ؟

ابوطالب هو عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي . . .

تسنم ابو طالب رئاسة مكة المكرمة ـ وزعامة قريش بعد ابيه عبد المطلب ، فقام بها احسن قيام .

لقد سوده قومه عليهم لحصافة رأيه ، وعظيم قدره ، وعلو همته ، وجلال شأنه ، علاوة على أنه سليل المجد والسؤدد والبيت الرفيع الذي فاق السهى شرفا.

كان لا تنزل نازلة في قريش الا كان ابو طالب هو الملجأ والمفزع وصاحب الرأي والمشورة . وكان الرؤساء من قريش لا تجتمع لأمر عظيم تريده الا حطت رحالها في رحابه . واذا دارت رحى حرب بين قريش وبين احد من العرب كانت لابي طالب كلمة الفصل في الدفاع عن الحق واهله .

لقد كان ابو طالب متجلببا برداء الفخر والكرامة مع العزة والمنعة ، بالاضافة الى الشجاعة والرحمة مع طيب النفس وصفاء السريرة وعلو الهمة .

اجل لم يكن ابو طالب اكبر القوم سناً فقد كان في قومه من هواسن

منه ، حتى من اخوته اذ كان اخوه الحارث أسن منه . ولا أيسر قومه مالاً فقد كان العباس (رضي الله عنه) بن عبد المطلب اكثر مالا وثراء ويسارا منه . . .

فلا عجب أن يسود ابو طالب قومه على قلة ماله وكثرة عياله .

جاء في تاريخ اليعقوبي قوله : « كفل رسول الله بعد وفاة عبد المطلب ابو طالب عمه . فكان خير كافل. وكان ابو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً مع املاقه .

قال علي بن ابي طالب (عليه السلام) : ابي ساد فقيراً . . وما ساد فقير قبله »[1] .

ولما كانت حرب الفجار كان ابو طالب هو رئيس القوم والمشار اليه وقد اصطحب معه ابن اخيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لاجل البركة والنصر ـ لاعتقاده الجازم بان وجود النبي الميمون الطالع له تأثير كبير على سير المعركة ثم النصر . فكانت النتيجة الغلبة لقريش (كنانة) على قيس .

ولما كان حلف الفضول كان ابو طالب (رضوان الله عليه) هو مؤسسه والسباق اليه، وهو اشرف حلف قط كان في الجاهلية قبل الاسلام كما اسلفنا والى هذا الحلف يشير الزبير بن عبد المطلب بقوله :

---

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١١ .

نسميه الفضول اذا عقدنا يعز به الغني لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت أنا اباة الضيم نمنع كل عار[1]

---

(١) ذكر الحلبي في سيرته ، ج ١ ، ص ١٤٦ ، : ان رجلا من خثعم قدم مكة معتمراً ومعه بنت له من اضوأ نساء العالمين ، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج ، فقيل له : عليك بحلف الفضول . فوقف عند الكعبة ونادى : يا لحلف الفضول . . فاذا هم يعنقون اليه من كل جانب وقد انتضوا أسيافهم وجردوها يقولون : جاءك الغوث فما لك ؟ فقال : ان نبيهاً ظلمني في بنتي فانتزعها مني قسرا . فساروا اليه حتى وقفوا على باب داره ، فخرج اليهم فقالوا له : اخرج الجارية ، ويحك فقد علمت من نحن ! وما تعاهدنا عليه . فقال : افعل ولكن متعوني بها الليلة . . . فقالوا : لا والله . . ؟ ! ولا شخب لقحة ـ أي مقدار زمن ذلك ـ فاخرجها اليهم .

سفر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الى الشام ثانيا في تجارة خديجة (رض)

جاء في السيرة الحلبية في باب سفر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الى الشام للمرة الثانية قوله : « لما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خمساً وعشرين سنة ـ على الراجح وعليه جمهور العلماء ـ وليس له (صلى الله عليه وآله وسلم) اسم بمكة الا الأمين لما تكامل فيه من خصال الخير كما تقدم.

وسبب ذلك (سفره) أن عمه (صلى الله عليه وآله وسلم) ابا طالب قال له : يا ابن أخي انا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان ، والحت الايام ، ودامت سنون منكرة شديدة الجدب ، وليس لنا مادة أو ما يمدنا ، وما يقومنا ولا تجارة . وهذه عير قومك[1] قد حضر وقت خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها ، فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع . فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت اليك وفضلتك على غيرك . لما يبلغها عنك من طهارتك . وان كنت لأكره ان تأتي الشام، واخاف عليك من يهود ، ولكن لا تجد لك من ذلك بدا.

---

(١) العير : هي الابل التي تحمل الميرة : وفي رواية عيرات جمع عير وهي القافلة .

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فلعلها ان ترسل الي في ذلك.

فقال ابو طالب : اني اخاف أن تولي غيرك ، فتطلب امراً مدبراً. . فافترقا.

فبلغ خديجة (رضي الله تعالى عنها) ما كان من محاورة عمه ابي طالب له ، فقالت ما علمت انه يريد هذا . !

ثم ارسلت اليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالت : اني دعاني الى البعثة اليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم امانتك ، وكرم اخلاقك، وانا اعطيك ضعف ما اعطي رجلا من قومك ؟ !.

ففعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ واجاب ـ ولقي عمه ابا طالب فذكر له ذلك ، فقال : ان هذا لرزق ساقه الله اليك.

فخرج (صلى الله عليه وآله وسلم) مع غلامها ميسرة يريد الشام . وقالت خديجة لميسرة : لا تعص له أمراً. . . ولا تخالف له رأيا .

وجعل عمومته (صلى الله عليه وآله وسلم) يوصون به اهل العير حين سيره (صلى الله عليه وآله وسلم) . ومن حين سيره (صلى الله عليه وآله وسلم) اظلته الغمامة .

فلما قدم (صلى الله عليه وآله وسلم) الشام نزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له (نسطورا) . فاطلع الراهب الى ميسرة وكان يعرفه فقال : يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت

الشجرة ؟ ! فقال ميسرة : رجل من قريش من اهل الحرم .

فقال له نسطورا الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبي لقد صانها الله تعالى عن أن ينزل تحتها غير نبي .

ثم قال له : أفي عينيه حمرة[1]قال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو ـ هو ـ وهو آخر الانبياء ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج . . . ويبعث . فوعى ذلك ميسرة .

ويقول الحلبي ايضاً : وفي الشرف للنيسابوري : فلما رأى الراهب الغمامة تظله (صلى الله عليه وآله وسلم) فزع ، وقال : ما انتم عليه ؟ وأي شيء انتم عليه ؟ قال : مسيرة غلام خديجة (رضي الله تعالى عنها) .

فدنا (الراهب) الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سراً من ميسرة وقبل رأسه وقدمه ، وقال : آمنت بك . . . وانا أشهد انك الذي ذكره الله في التوراة، ثم قال : يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها الدالة على نبوتك المذكورة في الكتب القديمة ، خلا خصلة واحدة ، فاوضح لي عن كتفك ؟ فاوضح له فاذا هو بخاتم النبوة يتلألأ .

فاقبل عليه يقبله ويقول : اشهد ان لا إله الا الله . . . وأشهد انك رسول الله ، النبي الأمي ، الذي بشر بك عيسى بن مريم ، فانه قال :

---

(١) الحمرة كانت في بياض عينيه (صلى لله عليه وآله وسلم) وهي الشكلة ، ومن ثم قيل في وصفه (صلى الله عليه وآله وسلم) أشكل العينين ـ فهذه الشكلة من علامات نبوته (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكتب القديمة .

لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة الا النبي الأمي الهاشمي العربي المكي صاحب الحوض والشفاعة ، وصاحب لواء الحمد.

ويقول الحلبي أيضاً : ونزل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تحت شجرة يابسة نخر عودها ، فلما اطمئن تحتها اخضرت ونورت[1]واعشوشب ما حولها ، واينع ثمرها ، وتدلت اغصانها ترفرف على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وفي رواية ان النبي (كان اذا استند الى شجرة يابسة قد ماتت تورق ويخرج ثمرها في الحال.

ويقول الحلبي ايضاً : ولما رأى الراهب ما ذكر ـ من اخضرار الشجرة وسير الغمامة فوقه تظله ـ لم يتمالك الراهب أن انحدر من صومعته وقال : باللات والعزى . . . ما اسمك ؟ . فقال له اليك عني ثكلتك امك .

ومع ذلك الراهب رق مكتوب ، فجعل ينظر في ذلك الرق ثم قال : هو ـ هو ، ومنزل التوراة . فظن بعض القوم ان الراهب يريد بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مكراً . فانتضى سيفه وصاح : يا آل غالب ـ يا آل غالب .

فاقبل الناس يهرعون اليه من كل ناحية يقولون : ما الذي راعك ؟
فلما نظر الراهب الى ذلك أقبل يسعى الى صومعته فدخلها ، واغلق عليه بابها ، ثم أشرف عليهم فقال : يا قوم ما الذي راعكم مني ؟ !

---

(١) نورت الشجرة ، أي ازهرت .

فوالذي رفع السماوات بغير عمد اني لاجد في هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين (صلى الله عليه وآله وسلم) يبعثه الله بالسيف المسلول ، وبالربح الاكبر، وهو خاتم النبيين . فمن اطاعه نجا ، ومن عصاه غوى.

ثم حضر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سوق بصرى ، فباع سلعته التي خرج بها ، واشترى.

وكان بينه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين رجل اختلاف في سلعة ، فال الرجل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : احلف باللات والعزى . . . فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما حلفت بهما قط . فقال الرجل : القول قولك.

ثم قال الرجل لميسرة وقد خلا به : يا ميسرة هذا نبي ، والذي نفسي بيده انه لهو الذي تجده احبارنا منعوتاً في الكتب . فوعى ميسرة ذلك.

وقبل ان يصلوا الى بصرى عيي بعيران لخديجة ، وتخلف معهما ميسرة ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في أول الركب ، فخاف ميسرة على نفسه وعلى البعيرين ، فانطلق يسعى الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاخبره بذلك . فاقبل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى البعيرين فوضع يده على اخفافهما وعوذهما ، فانطلقا في اول الركب ولهما رغاء.

وفي رواية : أنهم باعوا متاعهم وربحوا ربحاً ما ربحوا مثله قط .

قال ميسرة : يا محمد اتجرنا لخديجة اربعين سنة ما ربحنا ربحاً قط

اكثر من هذا الربح على وجهك ؟ ! .

ثم انصرف اهل العير جميعاً راجعين الى مكة ، وكان ميسرة يرى ملكين يظللانه (صلى الله عليه وآله وسلم) من الشمس وهو على بعيره اذا كانت الهاجرة واشتد الحر.

وقد القى الله تعالى محبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قلب ميسرة ، فكان كأنه عبده.

فلما كانوا بمر الظهران[1] قال ميسرة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : هل لك ان تسبقني الى خديجة فتخبرها بالذي جرى ؟ ! لعلها تزيدك بكرة الى بكرتيك ـ وفي رواية تخبرها بما صنع الله تعالى لها على وجهك .

فركب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة . وخديجة في عليه وهي غرفة مع نساء لها فرأت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين دخل وهو راكب على بعيره ، وملكان يظللانه عليه . فأرته نساءها ، فعجبن لذلك.

ودخل عليها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخبرها بما ربحوا ، وهو ضعف ما كانت تربح ، فسُرت بذلك وقالت : اين ميسرة ؟ قال : خلفته في البادية . قالت : عجل اليه ليعجل بالاقبال . . . وانما ارادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره .

---

(١) مر الظهران : هو واد بين مكة ـ وعسفان : وهو الذي تسميه العامة ـ بطن مرو : وهو المعروف الآن باسم وادي فاطمة .

فركب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصعدت خديجة تنظر... فرأته على الحالة الأولى. فاستيقنت انه هو...

فلما دخل عليها ميسرة ، اخبرته بما رأت ، فقال لها ميسرة : قد رأينا هذا منذ خرجنا من الشام والى ذلك اشار السبكي بقوله :

وميسرة قد عاين الملكين اذ   اظلاك لما سرت ثاني سفرة

واخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا . وقول الآخر الذي خالفه واستحلفه في البيع . وقصة البعيرين . وحينئذٍ اعطت خديجة له (صلى الله عليه وآله وسلم) ضعف ما سمته له . وما سمته له ضعف ما كانت تعطيه لرجل من قومها كما تقدم »[1].

وذكر المجلسي في بحاره عن محمد بن اسحاق انه قال : « كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم منه . وكانت قريش قوماً تجاراً . فلما بلغها عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من صدق حديثه ، وعظيم أمانته ، وكرم اخلاقه ، بعثت اليه وعرضت عليه ان يخرج في مالها تاجراً الى الشام ، وتعطيه ما كانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة.

---

(١) السيرة الحلبية ـ علي بن برهان الدين الحلبي ، ج ١ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

فقبله منها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخرج في مالها ذلك ، ومعه غلامها ميسرة حتى قدم الشام ، فنزل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب . . الى آخر الحديث الآنف الذكر »[1].

(١) بحار الانوار ، للمجلسي ، ج ١٦ ، ص ٩ .
وهذا الحديث ذكره ابن هشام في سيرته ، وابن كثير في البداية والنهاية وغيرهم .

حديث رعي الغنم

جاء في السيرة الحلبية عن ابي هريرة أنه قال : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما بعث الله نبياً الا رعى الغنم.

قال له اصحابه : وانت يا رسول الله ؟ قال : وانا رعيتها لأهل مكة بالقراريط.

وجاء ايضاً في طبقات ابن سعد عن ابي هريرة : قال « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما بعث الله نبياً الا راعي الغنم . قال له اصحابه ، وانت يا رسول الله : ؟ قال : وانا رعيتها لاهل مكة بالقراريط » الى آخر ما جاء في حديث رعي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من المرويات .

اقول : لقد اطنب بعض اصحاب السير والرواة في حديث (رعي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) للغنم وانه قد رعى الغنم في شبابه (بالقراريط) .

واكبر الظن انه لم يذكر حادثة رعي الغنم اصحاب السير إلا لأنه ذكرها ابو هريرة . . وان ابا هريرة معروف مشهور بكثرة رواياته عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . كأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن يلازم احداً في حله وارتحاله سوى ابي هريرة .

وان النبي لم يكن عنده ما يشغله سوى التحدث مع ابي هريرة .

ولم يكن احد من الناس يركن اليه الا ابو هريرة . .

مع العلم ان ابا هريرة لم يكن من الصحابة البارزين ، ولم يعاصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كغيره من الصحابة . وليس له من صحبة سوى مدة يسيرة.

لقد روى عن النبي الأعظم في مدة يسيرة من الروايات الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ، في حين لم يروها بكثرتها ـ كما روى ابو هريرة ـ المقربون من الرسول الاعظم ـ من آله ـ او من ذويه ـ او من اصحابه .

فكيف وعى ابو هريرة الاحاديث الكثيرة التي تفوق حد الاحصاء على ما ذكرنا آنفاً.

والعجب ان جُل الروايات التي اعتمد عليها اصحاب السير وأهل التاريخ . . . حتى الفقهاء والمحدثين من غير الامامية ، تُنسب الى ابي هريرة ـ وقد جعلوا له مقاماً مرموقاً بين الصحابة الاجلاء ، وحتى جعلوا له عنواناً يزيد عن واقعه بكثير .

ولكن لماذا ؟ . . . هل لانه كان له المنزلة العالية والمقام الرفيع في نظر المسلمين الأول ، وبين الصحابة والتابعين ؟ ! .

أم لأمر آخر . . . ؟ !

أقول : لا بد ان يكون لأمر آخر . . . لأنه سار على طبق ما يريد اعداء اهل بيت الرسول العظيم من الحط من كرامتهم و و و . . . .

واكبر الظن أن ابا هريرة لم يتمكن من النيل من كرامة اهل بيت النبي لكنه روى الاحاديث الكثيرة في فضل أعدائهم ، وخصوصا بني أُمية ومن لف لفهم ، ونسج على منوالهم .

ولا يغيب عن الأذهان أن أبا هريرة كان والياً لمعاوية بن ابي سفيان ومعلوم أن معـاويـة بن ابي سفيـان بن هنـد ـ آكلة الأكبـاد ـ من اعـداء اهل البيت (عليهم السلام) .

أليست هند والدة معاوية وزوجة ابي سفيان التي لاكت كبد الحمزة عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أحد.

أليست هند ام معاوية هي التي حرَّضت مشركي قريش على نبش قبر آمنة بنت وهب والدة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) كما تحدثنا الدكتورة بنت الشاطىء حيث تقول : « لقد عرفت قريش من محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) (حبه وحنينه وتقديره لوالدته) وهي تعلن الحرب عليه وعلى من آمنوا معه ، حتى ان هنداً بنت عتبة حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه الى المدينة ليثأر لقتلى بدر ، لم تر ما تؤذي به بطل الاسلام ، أقسى من نبش قبر أُمه آمنة ، ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك . رووا عن هشام بن عاصم الأسلمي أنه قال :

لما خرجت قريش الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة أحد فنزلوا بالأبواء ، قالت هند بنت عتبة لزوجها ابي سفيان بن حرب : لو بحشتم قبر آمنة ام محمد فانه بالابواء ، فان أُسِر احد منكم افتديتم كل انسان بإرب من آرابها[1]؟!

لكن ابا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش ، حتى اخذ منها الفزع كل مأخذ، فصاحت بالرجل : « لا تفتح علينا هذا الباب » ـ وكأنما

---

(١) الارب بكسر الهمزة : العضو ـ جمعها آراب ـ أي الاعضاء .

روعها تمثل غضبة ابن آمنة والمسلمين للفعلة النكراء!

وانصرفت قريش عن الأبواء لم تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذي استودعه الصبي اليتيم جثمان امه منذ اكثر من اربعين سنة ، ثم لم ينسها بعد ذلك أبداً . . »[1].

ويحدثنا التاريخ ان ابا هريرة كان يقضي نهاره برعي الغنم وليس له من انيس سوى هرة صغيرة يتلهى بها ، تلازمه لا يفارقها أينما ذهب حتى أنه لقب بابي هريرة .

بالاضافة الى ان ابا هريرة لم يكن من المسلمين الاول الاجلاء كما أسلفنا .

من اجل هذا كله عمد الى ان يروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه كان يرعى الغنم ، حتى اذا قيل أن أبا هريرة كان من رعاة الغنم ـ قيل ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سيد ولد آدم كان يرعى الغنم . . .

فاذن قد ازاح ابو هريرة بذكائه وفطنته صفة الفاقة والرعي ـ وجعل من رعي الغنم مهنة سامية ومثلاً أعلى.

وبعد هذا كله يكون ابو هريرة قد جعل من نفسه شخصية مرموقة وقدوة صالحة . . . لان له اسوة بالرسول الاعظم كما ذكرنا آنفاً.

ولا نغالي أو ننحاز اذا وصفنا ابا هريرة بما ذكرنا من المزايا والخصال فكتب التاريخ ، وتراجم الرجال موجودة فمن تتبعها بدقة وامعان يجد صدق ما ذكرناه .

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة ـ الدكتورة بنت الشاطىء ، ص ١٧٥ .

حول حديث رعي الغنم

ذكر بعض اصحاب السير كما سبق الكلام أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رعى الغنم في مكة كما جاء في طبقات ابن سعد : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما بعث الله نبياً الا راعي الغنم ، قال له اصحابه : وانت يا رسول الله ؟ قال : وانا رعيتها لاهل مكة بالقراريط »[1].

أقول : لنسأل المؤرخين واصحاب السير ممن روى حديث رعي الغنم . . . هل أن النبي الاعظم رعى الغنم لاهل مكة . . متى . . . وكيف . . . ؟!

هل كان رعيه للغنم في ايام صباه وهو في حضانة جده عبد المطلب بن هاشم سيد قريش ؟ الذي كان يضع الطعام للوحش والطير في الفلوات علاوة على كرمه وجوده .

وهل كان رعيه للغنم في زمن شبابه حينما كان في كفالة عمه أبي طالب ، الزعيم المهاب والسيد المطاع في قومه ؟ والذي كان يحافظ على النبي الاعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) اكثر من اولاده ؟ !

---

(١) القراريط ـ اجزاء من الدراهم يشترى بها الحوائج الحقيرة ، راجع الطبقات لابن سعد ، ج ١ ، ص ٨٠ ، السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ١٣٩ ، السيرة النبوية ، لابن دحلان على حاشية السيرة الحلبية وغيرهم .

اجل كان ابو طالب يحافظ على ابن اخيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) محافظة الطرف على انسانه ، والصدر على جنانه حتى أن زوجته الزكية الصالحة البارة ـ فاطمة بنت اسد ـ والدة علي بن ابي طالب (عليه السلام) ، كانت تحافظ على رسول الله محافظة لم يعرف لها مثيل . ويستفاد ذلك . من موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما توفيت (رضوان الله عليها) كما سنذكر ذلك في بابه .

لقد كانت فاطمة بنت أسد دائماً تؤثر محمداً على اولادها وتحنو عليه حنو المرضعات على الفطيم لا بل اكثر .

وما كانت المبالغة في العناية به والمحافظة عليه الا لأنه كان مغروساً في نفوسهم أن محمداً سيكون له شأن عظيم وهو النبي المنتظر وذلك من حديث سيف بن ذي يزن ملك اليمن مع جده عبد المطلب كما أسلفنا .

وايضاً من الروايات الدالة على ظهوره ، والمبشرات بنبوته (صلى الله عليه وآله وسلم) من اصحاب الكتب القديمة . . . ومن الاحبار والرهبان وغيرهم .

فكيف يمكن والحالة هذه أن يُهمل محمد أو يترك وهو الذي تنتظره النبوة ـ والزعامة ـ والفخر العظيم .

أجل كيف يترك محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وحده في الجبال والشعاب ليرعى غنم اهل مكة بالقراريط ؟ !

كيف يؤجر محمد نفسه تجاه نزر قليل من المال ، لا يسمن ولا يغني من جوع ؟ !

وهل تجتمع زعامة مكة وقريش ـ وهي سيدة العرب ، لابي طالب شيخ البطحاء وابن اخيه العزيز عليه يرعى غنم اهل مكة بالقراريط ؟

وكيف كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) موضع اعظام واجلال واكبار بين جميع قومه وهو يرعى غنمهم باجر زهيد كالاجير ؟ !

وكيف ؟ ! . . وكيف ؟ ! . وكيف ؟ ! .

واذا صح ما ورد من حديث رعي الغنم فليس معناه انه رعى الغنم بالقراريط لأهل مكة[١]

وكل ما يمكن أن يقال : ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا كان رعى الغنم على فرض صحة الرواية ، انما رعاها حينما كان في بادية بني سعد وهو صغير يلهو مع اخوته من الرضاعة عند مرضعته حليمة السعدية . وهذا كل ما يمكن أن تحمل عليه هذه الرواية وما شابهها .

جاء في السيرة الحلبية عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما بعث الله نبياً الا رعى الغنم » .

---

(١) ذكر الحلبي في سيرته : ان القراريط موضع بمكة . وقيل أنها نوع من الدراهم الحقيرة ـ اقول : يستدل علي أن المراد بالقراريط نوع من الدراهم وذلك لما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله : « ستفتحون ارضاً يذكر فيها القيراط » ومعنى ذلك ان العرب لم تكن تعرف القراريط التي هي قطع الدراهم .

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « بعث موسى وهو وهو راعي غنم . . . وبعث داود وهو راع . . وبعثت أنا وانا راعي غنم اهلي باجياد .

وقوله (صلى الله عيه وآله وسلم) ايضاً : « وما من نبي الا وقد رعاها . . الى آخره »[1] .

اقول : لا ينسى أخي القارىء ان الناس يختلفون بتصرفاتهم حسب ظروفهم الاجتماعية والمعيشية وهكذا.

فحينما رعى موسى بن عمران (عليه السلام) الغنم عند نبي الله شعيب (عليه السلام) كان مضطراً وبحاجة الى كسب القوت وقد حكمت عليه ظروفه المعيشية بذلك لأنه (سلام الله عليه) كان فاراً من فرعون ، وكان خائفاً على نفسه من القتل . وبطبيعة الحال لا بد له من عمل يعمله فالتزم برعي الغنم ليعيش بعزة وكرامة من كد يمينه ومن عرق جبينه .

« ذكر الطبري عن سعيد بن جبير انّ موسى لم يكن له طعام سوى ورق الشجر . وأنه خرج حافياً ، فلما وصل الى مدين حتى وقع خف قدمه ـ أي ان الجلدة الملاصقة للارض من قدمه قد أضَرَّ بها السير الحثيث المتواصل حتى سقطت .

وعن ابن عباس أنه ـ أي موسى (عليه السلام) ـ ورد ماء مدين

---

(١) السيرة الحلبية ـ علي بن برهان الدين الحلبي ، ح ١ ، ص ١٤٠ ، وقد ذكر ذلك ابن دحلان في سيرته ايضاً . وغيرهما .

وأن خضرة البقل لتتراءى من بطنه من الهزال »[1].

هذا حال نبي الله موسى بن عمران عندما رعى الغنم في مدين لنبي الله شعيب وكان قد استأجره ليرعى غنمه كما في قوله تعالى :

﴿ قال إني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشراً فمن عدنك وما أُريد أن أشق عليك ستجدني انشاء الله من الصالحين ـ قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل ﴾[2].

واما نبي الله داود فانه لم يكن من الأثرياء، فرعى الغنم لاجل العمل كما أسلفنا وليعيش عيشة شريفة والله العالم[3].

وخلاصة القول : ليس معنى حديث رعي الغنم أنه لا بد من أن يلازم الرعي كل نبي . وأن من جملة صفات النبوة رعي الغنم وهذا المعنى غير صحيح .

وكل ما يمكن أن يقال : ان رعي الغنم من جملة المهن التي يمتهنها الانسان في حياته في بعض الاحيان لضرورة المعاش والكسب ، والعمل

---

(١) قصص الانبياء ، عبد الوهاب النجار ، ص ١٦٥ .

(٢) سورة القصص، آية ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) ذكر الطبرسي في تفسيره مجمع البيان ، أن الذي استأجر موسى هو شعيب (عليهم السلام) وقيل : هو يثرون ابن أخي شعيب وكان شعيب مات قبل ذلك بعدما كف بصره ودفن بين المقام وزمزم .

ضرورة من ضروريات الحياة وقد حثَّ الاسلام على العمل والسعي وراء الرزق : قال تعالى : **﴿ هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾**[1]..

«ورد عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب في وصيته لولده الحسن (عليهما السلام) : (يا بني اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

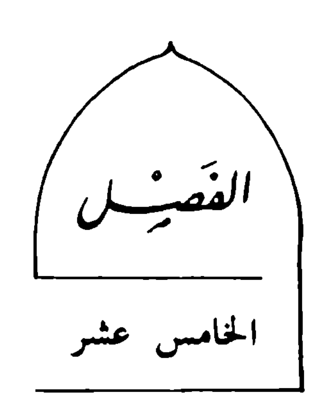
وجاء عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : اني لأركب في الحاجة ما اركب فيها إلا التماس ان يراني الله أضحي في طلب الحلال ، اما تسمع قول الله عز اسمه : (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله).

وقال ايضاً : ارأيت لو أن رجلا دخل بيتا وطين بابه عليه ، ثم قال : رزقي ينزل علي . . . أكان يكون هذا ؟ ! .[2].

---

(١) سورة الملك ، آية ١٦ .

(٢) الاخلاق الاسلامية للمؤلف ، ص ١٣ .



الفَصْلِ

الخامس عشر

محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخديجة بنت خويلد (رض)

يحدثنا التاريخ في صفحاته عن شخصية الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، الذي فقد الأب والأم ، واستكان الى كفالة الجد والعم الذين اعطياه من الحب والرعاية الشيء الكثير حتى فضلاه على الاهل والولد .

لذلك ترعرع (صلى الله عليه وآله وسلم) حاملاً بين جنبيه تلك النفس العظيمة التي تجلت فيها بعد آثارها .

اجل نفس محمد العظيمة التي كانت وما يزال يغمر العالم ضياؤها .
اجل كانت نفس محمد العظيمة توّاقة الى الكمال ، ترغب عن كل ما يشينها . . . حتى اللهو واللعب الذي كان وما زال يصبو إليه كل فتى يافع . . لأن محمداً تربى في بيت العز والكرم . . . في بيت المجد والسؤدد بيت عبد المطلب زعيم قريش وسيد البطحاء .

ولأن الله سبحانه وتعالى قد أعدَّ محمداً ليحمل اعباء رسالة عظيمة مقدسة خالدة .

لذلك ظهر (صلى الله عليه وآله وسلم) منذ الصبا الأول بمظهر الكمال والعفة ، والرجولة ، مع أمانة وصدق ، وعظمة في النفس ،

حتى دعاه اهل مكة جميعاً بالامين كما سيأتي .

لقد اختار الله سبحانه وتعالى محمداً ليكون نبياً ورسولا فهداه إلى الحق ، وعصمه من الزلل ، ونَزَّهه عن الخطأ ، وطَهَّره من الرجس . فلم تبهره مظاهر الحياة الصاخبة ، ولم ينجرف في تيار الملذات ، والانغماس في الشهوات ، شأن اترابه من ابناء الاشراف والذوات .

بل انصرف محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الى التفكير والتأمل في عظمة الخالق ، وضعف المخلوق .

نراه (صلى الله عليه وآله وسلم) يطيل التأمل في فسحة الجو الطلق في البادية اثناء النهار . وفي لمعان النجوم المتلألئة اذا جن الليل فيسرح تفكيره ، ويذهب بتأمله في هذه الافلاك ، والعوالم التي يراها امامه في فسحة هذا الكون المنبسط المتصلة بعضها ببعض في نظام محكم ، ودقة متناهية وشكل هندسي يأخذ في العقول ويحير الالباب .

يا لعظمة المدبر . . ويا لروعة التدبير . . . ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾[1] .

ويمعن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في الوحدة وينصرف الى التفكر والتأمل ليجد لذة الروح مع لذة الجسد.

فهذا التأمل وهذا التفكير من شأنهما صرف صاحبهما عن الالتفات الى شهوات الدنيا ، وملذاتها ، وزخارفها الكاذبة .

---

(١) سورة يس ، آية ، ٤٠ .

لذلك ارتفع محمد العظيم عن كل ما يمس ، أو يشين الانسان الكامل من الشوائب.

هكذا كان محمد الهاشمي القرشي ، عريق الأصل ، الطيب المنبت ، الذي اختاره الله سبحانه للقيام باعباء الرسالة المقدسة .

ومما لا ريب فيه ان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد امضى اعوامه الاولى كما اسلفنا في بادية بني سعد فتركت هذه التربية البدوية والنشأة العربية طابعها الخاص في شخصيته .

لأنه من المعروف أن للبادية سحر جمالها، وصفاء طبيعتها ، ونقاء هوائها ، وفصاحة لغتها العربية . اذا قيست الى بيئة متحضرة كبيئة مكة المكرمة بلد الرسول التي عرفت الاختلاط بكثير من البلدان قبل الاسلام.

لقد كانت مكة المركز الديني والتجاري . فاليها كان حج العرب (للكعبة) من جميع الاقطار والامصار .

ومنها كانت تنطلق القوافل في رحلاتها التجارية الى اليمن والشام ، ـ رحلة الشتاء والصيف.

ولكن الأيام التي قضاها الرسول الاعظم في بادية بني سعد اكسبته (صلى الله عليه وآله وسلم) صحة الجسم ، وكمال النفس ، وصلابة العود مع قوة الاحتمال للشدائد ، والصبر على النوائب ، والشعور المبكر بالمسؤولية .

لقد اصبح محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في ابان شبابه الرجل

الناضج ، الجلد الصبور تلمح في شخصيته الفذة آثار البادية بصفائها ونقائها ، ومميزاتها . . .

وتتراءى في سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة التي كان يتميز بها اهل الحرم ، مهبط الحجاج ، ومركز القوافل ، ومسكن قبيلة (قريش) التي كانت تتولى الزعامة ، والنقل التجاري بين الاطراف المتحضرة في الجزيرة العربية.

كما كانت تلوح في محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) تجارب الحياة الجادة العاملة وتتجلى فيه جميع الصفات الحميدة.

أجل كانت تتجلى فيه شمائل فتى عربي، هاشمي، قرشي، لم يفسده الفراغ، والمال، وهو ابن عبد المطلب السيد المطاع.

ولم يصبه الترف بآفات النعومة واللين كما افسد غيره من ابناء الرؤساء، والزعماء الاثرياء كقول الشاعر :

خُلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

هكذا كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حين سمعت به السيدة خديجة بنت خويلد . تلك السيدة الناضجة التي بلت الدنيا وعرفت الناس.

وبلغها ما يتحدث به الناس عن محمد الرجل الكامل ، من الصدق والجد، والأمانة ، والاستقامة ، والعفة ، والكرامة . . . و و و .

وحدثها غلامها ميسرة عن جميع ما شاهد من المعجزات التي حصلت مع محمد عندما كان في تجارتها الى الشام.

فارسلت اليه وعرضت عليه نفسها ودعته الى الزواج كما يحدثنا التاريخ بذلك . فمن هي هذه المرأة الذكية يا ترى.؟

ومن هي هذه المرأة التي بذكائها ، وفطنتها ، وعقلها ، سجلت اسمها باحرف من نور على صفحات التاريخ وكر العصور.

انها خديجة بنت خويلد ام المؤمنين وزوجة الرسول العظيم .

خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)

ذكر أهل التاريخ واصحاب السير نسب خديجة ام المؤمنين وزوجة الرسول العظيم والجدة الاولى للأئمة الاطهار (عليهم السلام) كما يلي :

- « هي خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر .

امها فاطمة بنت زائدة بن الاصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيط بن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر »[1] .

وعلى هذا فان السيدة خديجة تلتقي بنسبها العريق وأرومتها الطيبة مع النبي العظيم محمد عند الجد الاكبر (قصي) .

اذاً فهي من اقرب نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليه نسبا .

ذكر ابن سعد في طبقاته : « كانت خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى امرأة حازمة ، جلدة ، شريفة ، مع ما اراد الله بها من الكرامة والخير .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

وهي يومئذٍ اوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، واكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك.

لقد طلبوها وبذلوا لها الأموال »[1].

ويذكر الاستاذ عمر رضا كحالة في كتابه اعلام النساء : « ولدت السيدة خديجة بنت خويلد سنة ـ ٦٨ ـ قبل الهجرة ، من بيت مجد وسؤدد ، ورياسة . فنشأت على التخلق بالاخلاق الحميدة ، واتصفت بالحزم والعقل والعفة ، حتى دعاها قومها في الجاهلية بالطاهرة[2].

تقول الدكتورة بنت الشاطىء : « لم تكن السيدة خديجة إذ ذاك بالفتاة الغريرة، بل كانت السيدة الناضجة المجربةِ التي بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك ـ (أي قبل زواجها بمحمد) رجلين من سادة قريش ، وعاملت رجالاً آخرين كانوا يخرجون في مالها الى الشام . وان في اعجاب مثلها « بمحمد » وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت في شخصيته الآسرة اللافتة ، ما لم تجده في أي رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها .

ولسنا بحاجة الى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذٍ سوى الرجل المثالي ، لا النبي المنتظر .[3].

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج ١ ، ص ٨٤.
(٢) اعلام النساء ـ عمر رضا كحالة ، ج ١ ، ص ٣٢٦.
(٣) تراجم سيدات بيت النبوة ، الدكتورة بنت الشاطىء ، ص ٢٠٢ .

وقد تزوجت من ابي هالة بن زرارة التميمي ، ومات أبو هالة في الجاهلية ، وقد ولدت له خديجة هنداً الصحابي ، روى حديث صفة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد شهد بدراً ، وقيل أحداً.

وقد روى عن (هند) الحسن بن علي (عليه السلام) فقال : حدثني خالي . . . لأنه اخو فاطمة لأُمها .

وكان هند فصيحاً بليغاً وصافاً ، وكان يقول : انا اكرم الناس أباً ـ وأماً ـ وأخاً ـ واختاً . ابي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[1] واخي القاسم ـ وأُختي فاطمة ـ وأُمي خديجة (سلام الله عليهم) وقتل هند مع علي (عليه السلام) يوم الجمل .

كما ولدت خديجة (رضي الله عنها) لأبي هالة أيضاً : هالة بن أبي هالة ، وكان له صحبة .

وبعد أن مات ابو هالة عن السيدة خديجة تزوجها عتيق بن عابد المخزومي ، فولدت له بنتاً اسمها هند. وقد اسلمت ولها صحبة .

---

(١) المراد من قول هذا (أبي رسول الله) لأن الرسول زوج أُمه خديجة فهو بمثابة أبيه لأنه ربيب الرسول .

زواج النبي المبارك من خديجة بنت خويلد

لقد سبق الكلام عن بعض ما كان من امر السيدة خديجة واستدعائها محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ليذهب باموالها تاجراً الى الشام.

وبعد أن اخبرها غلامها ميسرة عن اخلاق محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وما رأى من خوارق العادات ـ كتظليل الغمامة له حيثما سار ـ واخضرار الشجرة وتظليلها له من الشمس .

وما كان ايضاً من أمر اصحاب الأديرة والرهبان من اعجابهم به وتبشيرهم بنبوته .

كما رأت السيدة خديجة أن تجارة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هي الرابحة ضعف ما كانت تربح في تجاراتها السابقة ببركته ويمن طالعه .

عرفت السيدة خديجة محمداً الهاشمي القرشي صاحب الشمائل الحلوة ، والشباب النضر، والصادق الأمين . خيرة شباب مكة المكرمة ، بل الجزيرة العربية حينذاك وفي ذلك الوقت .

عرفت السيدة خديجة ما كان من امر محمد يوم حرب الفجار. . وحلف الفضول حينما كان مع اعمامه سادات قريش الذين هبُّوا لنصرة

المظلوم على الظالم . كيف كانت الحرب يوم الفجار وكيف كانت تهب رياح النصر ببركته (صلى الله عليه وآله وسلم) للجهة التي هو فيها ـ لانتصار الحق على الباطل ـ وهكذا . . .

لقد شاهدت السيدة خديجة الكثير من اطوار حياة محمد الرائعة حتى ازدادت اعجاباً بشخصيته الفذة التي تتجلى فيها بوادر النبوة والرسالة . فاحبت أن يكون لها نصيب في ذلك الشرف العظيم فارسلت اليه ودعته الى الزواج منها وبذلت له كل غال ونفيس في سبيل ذلك . وهي العاقلة النجيبة ، الذكية ، المجربة للامور ، سيدة نساء قريش في ذلك الوقت ، وذات المال الوفير والجاه الكبير.

آثرت محمداً على غيره لما علمته من أنه سيكون له شأن كبير، وقد اشار الى ما ذكرنا صاحب الهمزيه بقوله :

ورأته خديجة والتقى والز   هد فيه سجية والحياء
وأتاها أن الغمامة والسر   ح اظلته منهما افياء
واحاديث ان وعد رسول   الله بالبعث حان منه الوفاء
فدعته الى الزواج وما احسن ما يبلغ المنى الاذكياء

جاء في السيرة الحلبية عن نفيسة بنت منية وهي اخت يعلي بن منية قالت : « كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة ، ضابطة ، جلدة ، قوية شريفة، مع ما اراد الله تعالى لها من الكرامة والخير ، وهي يومئذٍ اوسط نساء قريش نسباً ، واعظمهم شرفا ، واكثرهم مالاً، وأحسنهم جمالاً، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة.

وكانت يقال لها سيدة قريش لأن الوسط في ذكر النسب من أوصاف المدح والتفضيل.

وكان كل قومها حريص على نكاحها لو قدر على ذلك، لقد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل.

فارسلتني دسيسا[1]الى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد أن رجع في عيرها من الشام . فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : ما بيدي ما اتزوج به . .

قلت : فان كفيت ذلك ودعيت الى المال والجمال ، والشرف والكفاية ، ألا تجيب ؟

قال : فمن هي ؟ ! قلت : خديجة . . .
قال : وكيف لي بذلك ؟

قلت : بلى . . وانا افعل.
فذهبت فاخبرتها ، فارسلت اليه أن إئت الساعة كذا وكذا.

فارسلت الى عمرو بن اسد ليزوجها . فحضر.

ودخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في عمومته فزوجه احدهم وهو ابو طالب على ما سيأتي من خطبته .

ثم قال : ان ابن أخي محمد له في خديجة بنت خويلد رغبة . . ولها فيه مثل ذلك.

---

(١) دسيساً ، أي خفية .

فقال عمرو بن أسد : هذا الفحل لا يقدح انفه[1]»

وفي رواية ان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما ذكر امر زواجه من خديجة بنت خويلد لاعمامه خرج معه منهم حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن اسد فخطبها اليه ففعل.

وحضره أبو طالب ورؤساء مضر فخطب ابو طالب خطبته[2]

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، قوله هذا الفحل لا يقدح أنفه لكونه كريماً.

(٢) يقال : أن الذي نهض مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو ابو طالب . وهو الذي خطب خطبة النكاح . وذكر ابن اسحاق وغيره أن خويلداً كان اذ ذاك قد هلك ، وان الذي أنكح خديجة (رضي الله عنها) هو عمها عمرو بن اسد . كما يقال أيضاً بان الذي أنكحها هو اخوها عمرو بن خويلد . والله العالم .

الخطبة الشهيرة لابي طالب يوم زواج الرسول
(صلى الله عليه وآله وسلم)

ذكر اكثر اهل التاريخ واصحاب السير : أنه عندما حضر ابو طالب ورؤساء مضر زواج الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) قام ابو طالب وخطب خطبة النكاح - كما في نهاية الارب للنويري.

قال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضىء[1] معد ، وعنصر[2] مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس .

ثم ان ابن اخي هذا محمد بن عبد الله ، لا يوزن به رجل الا رجح به ، فان كان في المال قل . . . فان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، ومحمد من قد عرفتم قرابته .

---

(١) ضئضىء معد - أي معدنه واصله .

(٢) عنصر مضر - أي اصله . ويقال : انه لكريم العنصر - أي - الحسب - والهمة .

وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالي . . . كذا.

وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطبٌ جليل.

فتزوجها (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ابن خمس وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام . وخديجة يومئذٍ بنت ثمان وعشرين سنة ، وقيل : بنت اربعين سنة ، واصدقها (صلى الله عليه وآله وسلم) ثنتي عشرة أوقية ونشاً ذهباً »[1].

ذكر الحلبي في سيرته ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) جاء مع عشرة من قومه وهم اعمامه من بني هاشم ، رؤساء مضر. وان ابا طالب خطب يومئذٍ فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضىء معد ، وعنصر مضر . . . وجعلنا حضنة بيته ، المتكفلين بشأنه ، وسواس حرمه ، القائمين بخدمته ، وجعله لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً وجعلنا حكام الناس.

ثم ان ابن اخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ، ونبلاً ، وفضلاً ، وعقلاً . وان كان في المال قل . . . فان المال ظل زائل ، وأمر حائل ، وعارية مسترجعة .

وهو والله بعد هذا ، له نبأ عظيم ، وخطر جليل .

---

(١) قال المحب الطبري : النش عشرون درهماً ـ والأوقية اربعون درهماً وكانت الاواقي والنش من الذهب . فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعي .

وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشرة أوقية ونشاً . وقيل اصدقها عشرين بكرة[1].

ويقول الحلبي في سيرته ايضاً ؛ بعد أن خطب ابو طالب بما تقدم ، قام ورقة بن نوفل فخطب وقال :

« الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب ، وقادتها . وانتم اهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد احد من الناس فخركم ، وشرفكم ، ورغبتنا في الاتصال بحبلكم فاشهدوا عليَّ معاشر قريش اني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله ، وذكر المهر.

فقال ابو طالب قد احببت ان يشركك عمها ؟

فقال عمها : اشهدوا عليَّ معاشر قريش اني قد انكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

وفرح ابو طالب فرحاً شديداً وقال : الحمد لله الذي اذهب عنا الكرب ، ودفع عنا الغموم[2].

---

(١) قال البعض : يجوز أن يكون ابو طالب اصدقها ما ذكر وزاد (صلى الله عليه وآله وسلم) من عنده تلك البكرات في صداقها فكان الكل صداقاً والله أعلم.

(٢) السيرة الحلبية ـ علي بن برهان الدين الحلبي ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

وفي خطبة ابي طالب يوم زواج الرسول المبارك يقول الشاعر الفرطوسي :

وارتقى منبر العلى في قـريش   خـاطبـاً للنبي خـير النسـاء
معلنـاً بالـزواج بعـد خـطاب   فيه قد كان افصح الفصحاء
ولـقـاء مـبـارك غـمـرتـه   بركات من فيض رب العطاء[1].

---

(١) ملحمة اهل البيت (عليهم السلام) للشاعر الفرطوسي ، ج ١ ، ١٤١ .

حياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الزوجية مع خديجة

تزوج النبي محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) واستقرت به الدار وسارت الحياة هادئة جميلة مطمئنة .

ابتدأ (صلى الله عليه وآله وسلم) صفحة جديدة من تاريخ حياته المليئة بالكفاح والجهاد .

ابتدأ حياته الزوجية الموفقة الهنية من جانبه وجانب خديجة ، فقد ارتاحت نفسه الزكية لهذه الزوجة الصالحة الوفية ، التي لم تأل جهداً في وقت من الاوقات من المحافظة عليه ، وتأمين راحته واستقراره .

انتقل (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بيت خديجة ليبدأ وإياها صفحة جديدة من صفحات الحياة ، صفحة الزوجية والابوة ، وليبادلها من جانبه حب شاب في الخامسة والعشرين من عمره لم يعرف نزوات الشباب ، ولا نزقه ، ولا طيشه . ولا هو عرف الحب الاهوج الذي يمارسه غيره من الشباب ، فيبدأ حبه كأنه الشعلة المتوهجة لينطفىء من بعد ذلك ، ويخبو سراجه .

لكن حياة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مع خديجة كانت على أتم وفاق ، تتجلى فيها معاني الحب والأيثار ، والاخلاص والوفاء ،

لقد بذلت خديجة لزوجها النبي العظيم كل ما في وسعها في سبيل اسعاده ، واطلقت له اليد في التصرف في جمييع أموالها ، وجعلت له الارادة الكاملة فيما يصنع في ادارة تجارتها وممتلكاتها . فهو مالك القلب والمال عندها.

لقد كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنسبة لخديجة كل شيء في حياتها فهو الزوج العظيم ... والحبيب المفدى .. والسيد المطاع .

كما انه وجد (صلى الله عليه وآله وسلم) في زوجته خديجة المرأة العاقلة التي بلغت الاربعين من حياتها[1] والتي بلت الدنيا وعرفت الناس هي الزوجة الوفية الناضجة ، المدبرة ، العارفة بامور الحياة ومتطلباتها .

اجل وجد عندها كل ما كان يرغب من الحياة الزوجية الهادئة ووجد عندها الحنان والاخلاص والعطف.

هذا الحنان الذي افتقده عند موت امه آمنة في صغره وهذا العطف الذي كان يحن اليه لقد وجده في زوجته خديجة ، المرأة المحبة والمقدرة له والوفية الصالحة . ولا عجب فهي سيدة نساء قريش في وقتها ومحل الاعجاب والاكبار الذي حازته باخلاقها الفاضلة ومزاياها الحميدة .

على ان السيدة خديجة وجدت في محمد الشاب الهاشمي ، غصن

---

(١) قيل ان السيدة خديجة كانت في سن الخامسة والثلاثين من عمرها حينما تزوجها محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقيل كانت في الاربعين من عمرها وهو المشهور على اصح الاقوال . وقيل غير ذلك والله العالم .

دوجة الشرف ، وينبوع المكارم ، الواسع التفكير ، الناضج ، العاقل الذي لم يعرف له نظير بمكارم اخلاقه وحسن سيرته علاوة على شبابه النظر الجميل الذي لم يعرف له مثيل في شباب عصره.

ذكر المجلسي في بحاره عن السيدة خديجة حيث قالت لصفية بنت عبد المطلب عمة الرسول : « قالت خديجة : انا خطبت محمداً لنفسي ، وتحملت عنه مهري ، واني قد علمت أنه مؤيدٌ من رب السماء . فتبسمت صفية وقالت : والله انك لمعذورة فيمن احببت ، والله ما شاهدت عيني مثل نور جبينه ، ولا اعذب من كلام ابن اخي ، ولا احلى من لفظه . فقالت خديجة :

الله اكبر كل الحسن في العرب   كم تحت غرة هذا البدر من عجب
قوامه ثم ان مالت ذوائبه   من خلفه فهي تغنيه عن الأدب
تبت يد اللائمي فيه وحاسده   وليس لي في سواه قط من ارب[1]

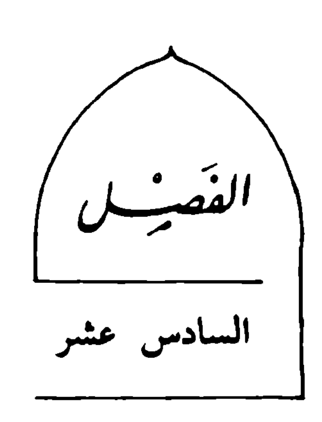
لقد رأت خديجة أن محمداً محل احترام وتقدير من جميع اهل مكة وعارفيه لما يتحلى به من الصفات والمزايا الحميدة.

كما أنها اعتقدت أنه النبي المنتظر بما شاهدته من خوارق العادات التي كانت تحصل له مثل تظليل الغمامة ـ وغير ذلك كما اسلفنا .

ومن هذا كله اندفعت (رضي الله عنها) تشاطره الحب وتحتسي معه كؤوس الهناء مترعة ، وتعيش في سعادة ورخاء ووئام ينجبان معا البنين والبنات في ظل هذا الزواج المبارك .

---

(١) بحار الانوار ، للمجلسي ، ج ١٦ ، ص ٥٧ .



الفصل

السادس عشر

أولاد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) من خديجة (رضي الله عنها)

حينما تزوج الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) ، ارتاحا لهذا الزواج المبارك ، وعاشا معا حياة طمأنينة وسعادة ورخاء . ودعة وهناء .

وتوالت الأيام ، وتعاقبت السنون ، ومحمد العظيم يشارك اهل مكة في حياتهم الاجتماعية العامة فلم يتوان عن السعي والتجارة في اموال خديجة (التي اصبحت تحت تصرفه وارادته) والكسب الحلال، علاوة عما يقوم به من اصلاح ذات البين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويأوي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الى بيته ليجد بانتظاره زوجته خديجة خير النساء ، التي غمرته بمحبتها ومودتها ووفائها.

اجل ، زوجته خديجة ، الزوجة الصالحة . . . الودود الولود ، التي بذلت جهدها لاسعاد زوجها العظيم محمد.

خديجة الزوجة المخلصة الأمينة التي انجبت له الذرية من الابناء الذكور ـ القاسم ـ وعبد الله الملقب بالطاهر أو الطيب .

وانجبت له ايضاً من البنات - زينب - ورقية - وأم كلثوم[1]وفاطمة الزهراء (عليها السلام).

اما القاسم والطاهر فقد ماتا وهما طفلان صغيران ، فلم يتركا اثراً أو ذكراً يبقى بعدهما في خضم الحياة سوى حزن عميق.

لقد ترك موتهما من غير شك بنفس والديهما محمد - وخديجة ما يتركه موت الابن من الأثر في نفس الوالدين.

ذكر ابن سعد في طبقاته عن ابن عباس قال : « كان أول من ولد لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة قبل النبوة - القاسم - وبه كان يكنى.

ثم ولد له زينب - ثم رقية - ثم فاطمة - ثم ام كلثوم . ثم ولد له في الاسلام - عبد الله - فسمي الطيب والطاهر . وامهم جميعاً خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي. وامها فاطمة بنت زائدة ابن الأصم.

فكان أول من مات من ولده (صلى الله عليه وآله وسلم) القاسم . ثم مات عبد الله بمكة .

فقال العاص بن وائل السهمي : قد انقطع ولده . . فهو أبتر .

---

(١) الظاهر ان رقية وام كلثوم ، على فرض وجودهما ، هما ربائب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، لكن شاعت المرويات بتحريض من الامويين وهم الحكام في ذلك العصر ان تلحقهما بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على انهما بناته ، ويتزوجها عثمان بن عفان الواحدة بعد الاخرى - ليلقب - بذي النورين -.

فانزل الله تبارك وتعالى ﴿ ان شانئك هو الأبتر ﴾[1].

ويقول صاحب الطبقات أيضاً : أن القاسم بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مات وهو ابن سنتين .

وعن محمد بن عمر : « كانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبِّل خديجة في ولادتها وكانت تعق عن كل غلام بشاتين وعن الجارية بشاة وكان بين كل ولدين سنة وكانت تسترضع لهم وتعد ذلك قبل ولادتها »[2].

وجاء في البداية والنهاية عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال : اكبر ولده (عليه الصلاة والسلام) القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية . وكان أول من مات من ولده القاسم ، ثم عبد الله . وبلغت خمساً وستين سنة ، ويقال خمسون . وهو الأصح .

وقال غيره : بلغ القاسم أن يركب الدابة ، والنجيبة ، ثم مات بعد البعثة ، وقيل مات وهو رضيع فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ان له مرضعة في الجنة يستكمل رضاعه » والمعروف ان هذا في حق ابراهيم .

وعن ابن عباس قال : ولدت خديجة لرسول الله (صلى الله عليه

---

(١) سورة الكوثر ، آية ، ٣ .

(٢) طبقات ابن سعد الكبرى ، ج ١ ، ص ٨٥ .

وآله وسلم) غلامين واربع نسوة : القاسم ، وعبد الله ، وفاطمة ، وام كلثوم ، وزينب. ورقية.

وقال الزبير بن بكار : عبد الله هو الطيب وهو الطاهر ، سُمي بذلك لأنه ولد بعد النبوة .

واما بناته فادركن البعثة ، ودخلن في الاسلام وهاجرن معه (صلى الله عليه وآله وسلم)»[1].

واما ابراهيم بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو من مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب الاسكندرية وسنأتي على ذكره في باب ازواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند ذكر والدته مارية انشاء الله.

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ج ٢ ،ص ٢٩٤ .

محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في دار خديجة (رضي الله عنها)

لنقف قليلا في منعطف التاريخ ونلقي نظرة على البيت الذي ضم في رحابه سيد البشر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وزوجته المؤمنة الصالحة خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها).

هذا هو التاريخ يحدثنا على صفحاته أنه كان في جوار الحرم المكي المقدس حيث احاطت دور قريش بالبيت العتيق دار خديجة بنت خويلد.

بين دور قريش التي فازت بالشرف العظيم دون سائر القبائل هنالك قامت دار خديجة تلك الدار التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يسجل لها المكانة السامية ، والرفعة ، والعظمة التاريخية مدى الدهر.

دار خديجة ـ التي كُتب لها أن تذهب دون سائر المنازل بالشرف العظيم ، فتشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمي ، وزواجه الميمون ، واقامته المباركة .

دار خديجة التي استقبلت محمداً الرسول سيد البشر مرات عديدة.

استقبلته يوم ذهب للشام في تجارة خديجة.

استقبلته يوم أتى يخطب بنت خويلد بعد أن دعته لتعرض عليه الزواج .

استقبلته يوم أتى يحف به اعمامه والسراة من بني قومه ليشهد الجميع حفلة الزواج المبارك الميمون .

استقبلته بعد زواجه بخمسة عشر من الأعوام عندما عاد من غار حراء ليلة القدر يرتجف وقد أوحي اليه باقدس رسالة ، أتاه بها الأمين جبرائيل من رب السماوات والأرضين .

دار خديجة التي اصبحت محل اقامة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد زواجه ، يقضي جل أوقاته بالتأمل ، والتهجد ، والتفكير في ملكوت السماوات والارض، وعظمة الخالق وضعف المخلوق.

جاء في تاريخ الطبري : « كان منزل خديجة يومئذٍ المنزل الذي يعرف بها اليوم ، فيقال : منزل خديجة .

ويذكر أنه صار فيما بعد مسجداً يصلي فيه الناس.

وأما الحجر الذي على باب البيت عن يسار من يدخل البيت ، فان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يجلس تحته يستتر به من الرمي اذا جاءه من دار أبي لهب ، ودار عدي ابن حمراء الثقفي خلف دار ابن علقمة ، والحجر ذراع وشبر في ذراع »[١]

ونهل الزوجان (محمد ـ وخديجة) من نبع السعادة ما شاء لهما ، وعاشا حياة زوجية هانئة ، يظللها الحب والوفاء والاخلاص . وتوالت الايام لم يشبها شائبة من كدر .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

وتقـول الروايـات أنه لم يمض عـلى زواج هذين السعيـدين عـامـان حتى بدت بوادر الثمر المبارك .

وتأتي خديجة لتزف الى محمد النبأ السار. . . انها حامل . . ويخفق قلب محمد العظيم بالفرح والسرور.

ويمضي (صـلى الله عليه وآلـه وسلـم) في تـأمـلاتـه : يـوشـك عن قريب ان يصبح ابا .

لا شك لقد اثارت الابوة المرتقبة في نفس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اعمق العواطف، وارق الانفعالات .

الابوة . . ما أعذبها من كلمة . عما قريب سيشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة ـ هذه الحياة الصاخبة ـ وتكون امتداداً لحياته . أليس هذا أمل كل رجل من البشر؟ انها سنة الله في خلقه .

الذكريات والتصورات

نتصوره ينطلق (صلى الله عليه وآله وسلم) ويمضي في تأملاته ، ويسرح نظره في الافق البعيد ، ويمتد به التفكير وترجع به الذكريات الى اعوام مضت يوم كان طفلا صغيرا.

وأخذته الذكريات : ذكر والدته آمنة بنت وهب التي رحلت عن هذه الدنيا الفانية وتركته وهو لم يتجاوز السادسة من عمره ذاق اليتم وهو صبي صغير.

نتصوره يفكر في ابيه عبد الله بن عبد المطلب الذي ثوى تحت ثـرى يثرب ، وخَلَفه جنيناً في رحم امه على بعض الروايات ـ أو وليداً صغيراً على بعض روايات أُخر.

ونتصوره تمنى (صلى الله عليه وآله وسلم) لو أنهما عاشا وشاهدا وحيدهما الغالي وشاركاه فرحته بمولوده المنتظر.

ونتصوره تذكر جده عبد المطلب بن هاشم ذلك الشيخ العظيم ، الذي كان له من بعد أبيه أباً رحيماً. عبد المطلب الذي بذل له من العطف والحنان ، واحاطه بالرعاية التامة ما انساه مرارة اليتم وحرمان الأبوين..

وكأني به (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما وصل الى هذا الحد

رقَّ قلبه الشريف وهو يستعيد كل هذه الذكريات ـ ذكريات الماضي ـ دمعت عيناه رحمة وحنانا .

وكأني بخديجة الزوجة الوفية المخلصة لزوجها العظيم محمد تروح في الدار وتغدو بخطوات اثقلها الحمل، ولكن وجهها المشرق يتألق بسنا السعادة والحبور.

لم تكن هذه أول مرة تحمل بها السيدة خديجة ، ولم تكن هذه هي تجربتها الاولى في الأُمومة .

لقد انجبت (رضي الله عنها) البنين ـ والبنات من زوجيها السابقين ـ زوجها عتيق بن عائذ المخزومي ـ وبعد وفاة عتيق تزوجت من ابي هالة بن زرارة التميمي .

ولكن هذه المرة كانت خديجة متلهفة على أن يكون لها ولد من زوجها الحبيب محمد الذي اختارته وفازت به ، وصرفته عن العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا الندي والحسن النظير . . . وهي الأرملة ذات الاعوام الاربعين .

معاذ الله ان خديجة أُنثى لا يمكن تجريدها من واقعها الانثوي والفطرة النسوية في كل إمرأة في ظروف خديجة وسنها تتلهف على انجاب ولد يؤكد حيويتها ، ويثبت أنها ما تزال فتية منجبة .

خصوصاً عندما ترى زوجها العزيز محمد في عنفوان شبابه . . وعز فتوته .

وقد بدأت هي في العقد الخامس من عمرها .

ومن سُنَّة الفطرة البشرية أن تكون قد ساورت خديجة مخاوف كثيرة واشفقت جزعاً من ان لا تجود بولد لهذا الزوج الكريم الذي لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف الأولاد كما عرفت هي .

وكأني بخديجة (رضي الله عنها) قد استسلمت لذكريات لطيفة وحوادث مضت في السنين الغابرة.

ويمر شريط الذكريات في مخيلتها ، فاندية قريش ما تزال تستعيد ذكريات قصة (ابنة نوفل) التي تعرضت لعبد الله والد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد اثارت هذه الذكريات مناسبة زواج محمد بن عبد الله من خديجة .

هذه مسامر مكة لم تنس قصة ابنة عم خديجة (رقية) بنت نوفل ، وكانت فتاة ثرية ناضجة ، اختارت فتى وسيماً هاشمياً صاحب طلعة وبهاء وهو عبد الله والد الرسول الأعظم ، وعرضت عليه نفسها كما تقول الروايات ولكن ارادة الله سبحانه وتعالى تأبى ذلك ، فلم يستجب عبد الله لها ولم يلتفت لعَرضها .

ويحدثنا التاريخ ان (رقية)[1]اخت ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد

---

(١) رقية هو اسم المرأة التي تعرصت لعبد الله وتكنى : ام قتال . ويقال ان عبد الله قال حين ذاك :

اما الحرام فالحمام دونه والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

راجع شرح السيرة النبوية ـ لابن هشام ، ج ١ ص ١٦٤ .

العزى كانت قد رأت عبد الله اثر انصرافه من الكعبة بعد أن فداه ابوه ، ونحر مائة من الابل كما أسلفنا ـ لمحت عليه سيماء العز والمجد ، وآنست فيه نوراً يتلألأ في جبينه .

وكانت رقية هذه قد قرأت في الكتب القديمة ، وسمعت من اخيها ورقة من بشائر واخبار عن نبي منتظر .

لذلك عرضت نفسها على عبد الله . . . وله مثل الابل التي نحرت عنه .

لكن عبد الله اعتذر منها وتلطف . . وذهب فتزوج من فتاة بني زهرة (آمنة بنت وهب) .

وتمضي الأيام . . وتتعاقب السنون . . فتأتي (خديجة) إبنة عم (رقية)، تسعى جاهدة بكل ما لديها من جاه ، وثراء، واعتزاز وتتقدم الى ابن عبد الله (محمد) فتعرض نفسها عليه ، وتطلب منه الزواج لعلها تفوز منه بنسمة مباركة وتحوز شرف النور العظيم الذي رأته ابنة عمها (رقية) في وجه ابيه (عبد الله).

يتجاذب اهالي مكة اطراف الاحاديث الخاصة بزواج محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) من خديجة ويشيرون الى ورقة بن نوفل الذي عاش وطال به العمر ليسمع استجابة محمد بن عبد الله لطلب خديجة بنت خويلد ، ابنة عمه وليشهد حفلة العرس ، وليلقي خطبته المشهور.

وقد كان ورقة هذا قد شهد قبل سنوات انصراف عبد الله والد محمد عن اخته (رقية بنت نوفل) التي رأت النور يتلألأ بوجه عبد الله كما أسلفنا فارادت ان تذهب بشرف محمد العظيم.

ولكن ارادة الله سبحانه تأبى الا أن تكون آمنة بنت وهب هي والدة سيد البشر.

وتأتي خديجة بنت خويلد فتذهب بشرف الأمومة لاولاد النبي المختار وتكون الوعاء للذرية الطاهرة وجدة للأئمة الاطهار (عليهم السلام) .

الابوة الرحيمة

قضت خديجة (رضي الله عنها) فترة الحمل وهي تستعد لاستقبال المولود الجديد.

وحان الوقت ، ودنا أوان الوضع ، وأخذ خديجة الطلق والألم الذي تكابده كل أنثى عند الولادة .

وهنا نتمثل الرسول العظيم وقف في محرابه يبتهل ويتضرخ للخالق سبحانه ان يشمل زوجته بعين عنايته .

وأتت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب[١] وكانت قابلة نساء بني هاشم تحمل الى الاب الكريم (محمد) طفلته الأولى (زينب) .

ويتوالى الثمر المبارك من البنين والبنات .

ولكن ارادة الباري عز وجل شاءت ان يموت الذكور[٢] ويبقى

---

(١) راجع طبقات ابن سعد ، ج ١ ، ص ٨٥ .

(٢) قال ابن هشام في سيرته : ج ١ ؛ ص ٢٠٢ ، اكبر اولاد رسول الله القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ، واكبر بناته رقية ثم زينب ثم ام كلثوم ثم فاطمة ، ويروى أن الطاهر والطيب شخصان ، والمعروف أنهما لقبان لعبد الله ، بن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

البنات في بيئة قريش والمجتمع الجاهلي القبلي الذي كان يكره الانثى ولا يريد لها البقاء.

اما محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد كان يؤمن بالله واليوم اخر ويعلم حق العلم أنه لا فرق بين الذكر والانثى ، وان المجد والعزة والمنعة من الله سبحانه وتعالى فلا رافع لمن يضعه الله ـ ولا واضع لمن يرفعه الله ـ وانما المطلوب ان يكون الولد صالحاً (وكلنا يتمنى الذرية الصالحة) .

ان كتب التاريخ شاهدة على أن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) قد اغدق على بناته زينب ـ وام كلثوم ـ ورقية ـ وفاطمة (عليها السلام) من الحب ، والعطف والحنان ما يعجز عنه البيان . في بيئة تنكرت للبنات فترى وأدها من المكرمات .

اجل لقد جارت المجتمعات الجاهلية في اكثرها على البنت وتشددت على هذا المخلوق الضعيف ولم تعطه أي حق من العزة والكرامة بل كان الناس في ذلك الوقت يعاملون البنت بمنتهى الذلة والمهانة ليس لها اي حق من الحقوق فهي اما خادمة او سلعة تباع وتشترى.

هذا اذا بقيت البنت المسكينة على قيد الحياة ، فتعيش بينهم حياة ذل وهوان ، او يئدونها فتدفن حية دفعاً للعار والشنار على زعمهم الباطل .

لكن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ينظر الى البنت بعين الرحمة ، والعطف ، والحكمة إذ هي عطية من الباري سبحانه

وتعالى . . وكل عطاء يأتي من الله عز وجل محبوب لدى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعطف بل يكرم كل انثى فاضلة ، طاهرة ، صالحة ، نقية ، تقية .

ان محمداً الرسول يعلم حق العلم انه لولا الانثى (المرأة) لما كان الرجل - ولولا الرجل لما كانت المرأة .

كذلك (صلى الله عليه وآله وسلم) يعرف حق المعرفة حياة النوع البشري وامتداد بقائه بالحفاظ على الانسان من ذكر وانثى.

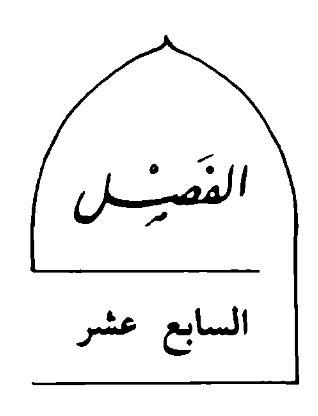
اذا . . . المرأة شريكة الرجل في الخلق والخُلق ولا بد من وجودها صالحة لاستكمال مسيرة الحياة الانسانية .

ان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يهمه بطبيعة الحال ان تكون المرأة كريمةالخلق ، طيبة الاصل ، عفيفة النفس ، حميدة الذكر ، تقية فاضلة . لانها المربية الأولى للاجيال المتتالية .

فحرص محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على وجود المرأة الكاملة الصالحة ، حرص من يهتم في شؤون المجتمع الانساني وحياته الهادئة السعيدة .

سبحانك يا ذا الجلال والاكرام . . جلت عظمتك وحكمتك لقد اعطيت لرسولك الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عاطفة عظيمة واخلاقاً عالية فنشأ على الاعتداد بالفضائل والاعتماد على النفس وعدم الاستنصار بالولد الذكر كما كانت بيئته القرشية تتباهى بذلك.

فكان (سلام الله عليه) في ابوته الرحيمة لبناته العزيزات قدوة صالحة للمؤمنين ، ونبراساً للمهتدين السائرين على هدى رسالته المقدسة التي اعزت الانوثة ، ورفعت الظلم عن المرأة ، وأقرت لها من الحقوق والواجبات ما لا تطمح أو تصبو إلى مثله نساء العصر الحاضر اللواتي ينادين بالحرية والمساواة .



الفَصْل

السابع عشر

كيف كانت تعامل البنت قبل البعثة النبوية

لنلقي نظرة خاطفة على حالة المرأة قبل مبعث الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)

وكيف كانت تعامل البنات في ايام العهد الجاهلي عهد الظلم والانحطاط ، تلك الايام العصيبة التي جارت على المرأة واذاقتها انواع الذل والحرمان والاضطهاد.

في ذلك الوقت كان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يتلقى ولادة البنت ببشاشة ورحابة صدر والشكر للباريء عز وجل على نعمه وآلائه . يحنو على وليدته ويشملها بعطفه ورعايته .

كـان رســول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على عكس اهل زمانه من عرب وغيرهم مخالفاً لعاداتهم نابذاً لتقاليدهم .

كان الرجل الجاهلي يصاب بضيق صدر ، وهم بالغ ، وحزن عميق، اذا قيل له ان زوجته وضعت انثى وقد اشار الباريء سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله : **﴿ واذا بشِّر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ـ يتوارى من القوم من سوء ما بشِّر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾**[1].

---

(١) سورة النحل ، آية ، ٥٨ ، ٥٩ .

ذكر الطبرسي في تفسيره ﴿ **وإذا بشِّر احدهم بالانثى** ﴾ أي واذا بشِّر واحد منهم بانه ولد له بنت ـ ظل وجهه مسوداً ـ أي صار لون وجهه متغيراً الى السواد لما يظهر فيه من اثر الحزن والكراهة ، فقد جعلوا لله ما يكرهونه لانفسهم[1] وهذا غاية الجهل ﴿ **وهو كظيم** ﴾ أي ممتلىء غيظاً وحزنا .

﴿ **يتوارى من القوم من سوء ما بشر به** ﴾ يعني ان هذا الذي بُشِّر بالبنت ، يستخفي من القوم الذين يستخبرونه عما ولد له ، استنكافاً منه وخجلاً وحياء، من سوء ما بشِّر به من الانثى وقبحه عنده.

﴿ **أيمسكه على هون ام يدسه في التراب** ﴾ يعني يخيِّر نفسه ويدبر في أمر البنت المولودة له ، أيمسكه على ذل هوان ، أم يخفيه في التراب ويدفنه حياً ، وهو الوأد الذي كان من عادة العرب، وهو أن احدهم كان يحفر حفيرة صغيرة ، واذا ولد له انثى جعلها فيها وحثا عليها التراب ، حتى تموت تحته ، وكانوا يفعلون ذلك مخافة الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن ومخافة سبيهن .

﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾ أي بئس الحكم ما يحكمونه ، وهو ان يجعلوا لنفوسهم ما يشتهون ، ولله ما يكرهون . وقيل : معناه ساء ما

---

(١) اشارة الى قوله تعالى: ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون** ﴾ وهو قولهم الملائكة بنات الله : كما قال سبحانه : وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ثم نزه سبحانه نفسه عما قالوا ، فقال : ويجعلون لانفسهم ما يشتهون ويحبونه من البنين دون البنات .

يحكمونه في قتل البنات ، مع مساواتهن للبنين في حرمة الولادة ، ولعل الجارية خير من الغلام.

وروي عن ابن عباس أنه قال : لو عطاء الله الناس في الناس لما كان الناس ، لأنه ليس أحد الا ويحب أن يُولد ذكر ، ولو كان الجميع ذكوراً لما كان لهم أولاداً فيفنى الناس »[1]

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي . هكذا وردت في الأصل ـ.

وأد البنات

من ابشع العادات وأفظعها ، عادة وأد البنات ، التي تميز بها عرب الجاهلية ، وعدُّوها من المكرمات قال الشاعر :

القبـــر اخفى ستـرة للبنـــات ودفنهـا يـروى من المكـرمـات

وقال آخر :

سميـتهـــا إذ ولـــدت تمـــوت والقبر صهر ضـامن زميت[1]
لـــيس لمـــن ضُـــمِّـــنـــه تـــربـيـــت[2]

لقد كان وأد البنـات عند العـرب في الجاهليـة امراً مستحسنـاً لعدة منهـا : خوف العـار ووقوع البنت في الأسـر بيد الاعـداء كما سنـوضـح ذلك .

ومنها أنها عبؤ ثقيل على ذويها لأنها لا تقدر على الحرب ولا تصد غارات الاعداء وتحمي الديار .

ومنها الضيق الاقتصادي الذي كان في ذلك العهد فكان الرجل يئد ابنته خشية الاملاق.

---

(١) الزميت : القليل الكلام ـ كالصميت ـ وقيل الساكت . بمعنى الساكن .
(٢) التربيت : حبسك الانسان عن حاجته وامره بعلل . وربتـه حبسه وصـرفه .
لسان العرب : لابن منظور .

لكن أهم الدوافع التي كانت تحمل الرجل الجاهلي على وأد ابنته هو خوف العار من وقوعها بيد الأعداء. فكانت تدفن حية وليس للبنت المسكينة اي ذنب سوى أنها خلقت انثى.

وبقيت عادة وأد البنات سارية المفعول حتى جاء الأسلام بعدله وحرَّم كثيراً من السنن والعادات التي لم يكن اهل الجاهلية يرونها منافية.

فالاسلام قد حرم وأد البنات وحفظ بل أبقى على هذا المخلوق البريء حياته قال سبحانه وتعالى: ﴿ **واذا الموؤدة سئلت ـ باي ذنب قتلت** ﴾[١].

قال الطبرسي في تفسيره: «معنى قوله سئلت ﴿ **بأي ذنب قتلت** ﴾ أن الموؤدة تسأل فيقال لها: بأي ذنب قتلت؟. ومعنى سؤالها توبيخ قاتلها لأنها تقول: قتلت بغير ذنب»[٢].

ان مسألة الوأد جديرة بان نوليها الاهتمام، فهي نقطة هامة في الحياة الاجتماعية.

هذه العادة القبيحة البشعة، اللا انسانية، كانت واسعة الانتشار، يتوارثونها في أيام الجاهلية في الجزيرة العربية، عند اهل البادية في الصحراء وفي المدن المتحضرة..

---

(١) سورة كورت ـ آية، ٨، ٩.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي.

يقول الدكتور جواد علي في تاريخه : « وقد اختلف في هذا القول (أي مسألة الوأد) . فقال (لين بول) : أنها كانت عادة سيئة ، ولكنها كانت نادرة الحدوث في الصحراء . ولكن الميداني يقول : أن عادة وأد البنات كانت متبعة عند قبائل العرب قاطبة ، وظلت هذه العادة جارية ومتبعة عند جميع القبائل العربية حتى جاء الاسلام فابطلها وحرمها »[1] .

جاء في تفسير ابن كثير عن عمر بن الخطاب في قوله تعالى : ﴿ **واذا الموؤدة سئلت** ﴾ قال : جاء قيس بن عاصم الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا رسول الله اني وأدت بناتاً لي في الجاهلية.

قال : « اعتق عن كل واحدة منهن رقبة » قال : يا رسول الله إني صاحب ابل ، قال : « فانحر عن كل واحدة منهن بدنة ».

ويذكر ابن كثير ايضاً : « والموؤدة هي التي كان اهل الجاهلية يدسونها في التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموؤدة على أي ذنب قتلت ؟ ! ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فانه اذا سئل المظلوم فما ظن الظالم اذاً ؟ . . . .

وعن ابن عباس : ﴿ **واذا الموؤدة سئلت** ﴾ أي سألت . . . سألت أي طالبت بدمها »[2].

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الدكتور جواد علي .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٧٨ .

ذكر الطنطاوي في تفسيره : في معنى قوله تعالى : ﴿ **واذا الموؤدة سئلت** ﴾ اي المدفونة حية ، وكانت العرب تئد البنات مخافة الاملاق ، ولحوق العار بهم من اجلهن .

وانما سميت موؤدة لأنهم يلقون عليها التراب فيثقلها ، فتموت .

وكانت المرأة في الجاهلية اذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفيرة صغيرة فتمخضت على رأس الحفيرة ، فان ولدت جارية رمت بها في الحفيرة ، واذا ولدت غلاماً حبسته .

وقوله تعالى : ﴿ **بأي ذنب قتلت** ﴾ معناه تسأل الموؤدة . . باي ذنب قتلت ؟ ومعنى هذا التوبيخ لقاتلها ، لانها قتلت بغير ذنب »[1] .

وفي مجمع البحرين في معنى قوله تعالى : ﴿ **واذا الموؤدة سئلت** ﴾ الموؤدة بنت تدفن حية ، وكانت كندة تدفن البنات .

وعن الصادق (عليه السلام) واذا الموؤدة . . بفتح الميم والواو قيل والمراد بالموؤدة ، الرحم ـ والقرابة . وانه تسأل قاطعها سبب قطعها[2] ؟

---

(١) تفسير الجواهر ، للطنطاوي ، ج ٢٥ ، ص ٧٨ .
(٢) مجمع البحرين للطريحي .

بعض ما جاء في وأد البنات

الاخبار في كيفية وأد البنات كثيرة وقد وردت في أساليب شتى، في بعضها أنها تُدفن في حفيرة وهي حية ، وفي بعضها تُلقى في بئر ، وفي بعضها يذبحها وليها وهكذا. . .

جاء في المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : « أنهم (اي العرب) كانوا يحفرون حفرة ، فاذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموا بها في الحفرة . أو أنهم كانوا يقولون للأم بان تُهيء ابنتها للوأد وذلك بتطييبها وتزيينها[1] .

فاذا زُينت وطُيبت ، اخذها أبوها الى حفرة يكون قد احتفرها ، فيدفعها فيها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة في الأرض .

وذكر ايضاً : أن بعضهم كان يغرقها ، او يقوم بذبحها ، ليتخلص بهذه الطرق منها .

---

(١) اقول : لقد كان العرب يفعلون كغيرهم من الأمم السالفة . كانوا يزينون البنت ويطيبونها قبل أن يئدوها ، وكانوا في بلاد النيل يزينون الفتاة باجمل زينة ثم يلقونها في مياه النيل حتى يفيض عليهم هذا النهر بخيراته . وكان الهنود يزينون المرأة بزينتها التامة قبل أن يحرقوها .
واغلب الظن ان هذه العادات هي من بقايا الوثنية ، والتقاليد والطقوس التي كانوا يتدينون بها اذ كانوا يقدمون القرابين والضحايا باجمل زينة .

وذكر أن الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت ، فاراد أن يستحييها ، البسها جبة من صوف أو شعر ، ترعى له الابل والغنم في البادية ، وان اراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية[1] فيقول لإمها : طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى أحمائها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها : انظري فيها . . ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب ، حتى تستوي البئر في الأرض .

ويرجع بعض اهل الاخبار تاريخ الوأد الى ايام (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فيقولون ان (بني تميم) منعوا الملك ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم ، فجرد الملك حملة عليهم كان اكثر رجالها من بني بكر بن وائل ، أوقعت بهم وسبت ذراريهم .

فلما أرضوا الملك وكلموه في الذراري ، (حكم النعمان) بان يجعل الخيار في ذلك الى النساء، فاية امرأة اختارت زوجها ، رُدَّت عليه فاختلفن في الخيار .

وكانت فيهن بنتٌ لقيس بن عاصم المنقري ، فاختارت سابيها على زوجها ، فنذر قيس بن عاصم أن يدس كل بنت تولد في التراب ، فوأد بضع عشرة بنتاً .

وبصنيع قيس بن عاصم وايجاده هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات .

---

(١) سداسية : أي اذا بلغت من العمر ست سنوات .

ورجع بعض الأخباريين الوأد الى قبيلة ربيعة . زعموا ان بنتا لرئيسها وسيدها وقعت اسيرة في ايدي قبيلة اغارت عليها : فلما عقد الصلح ، لم تشأ العودة الى بيتها ، فاختارت بيت آسرها ، فغضب رئيس ربيعة لذلك ، واستن هذه السنة وقلده بقية العرب حتى فشت بين القبائل »[1].

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

قصة رجل وأد ابنته وقد اظهر ندمه بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

يذكر أهل الاخبار ان رجلا من اصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مالك تكون محزوناً؟

فقال : يا رسول الله، اني أذنبت ذنباً في الجاهلية فاخاف ألّا يغفره الله لي وان أسلمت .

فقال له : اخبرني عن ذنبك ؟

فقال : يا رسول الله ، اني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت فتشفعت إلي إمرأتي أن أتركها ، فتركتها حتى كبرت وادركت ، وصارت من اجمل النساء ، فخطبوها ، فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي ان أزوجها ، أو أتركها في البيت بغير زواج ، فقلت للمرأة : إني أريد أذهب الى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي .

فسرت بذلك وزينتها في الثياب والحلي واخذت علي المواثيق بالا اخونها ، فذهبت الى رأس بئر ، فنظرت في البئر ففطنت الجارية إني أُريد أن القيها في البئر فالتزمتني ، وجعلت تبكي ، وتقول : يا ابت

ايش[1] تـريد أن تفعـل بي ؟. فرحمتهـا . ثم نـظرت في البئـر فـدخلت علي الحمية .

ثم التزمتني وجعلت تقول : يا أبت ، لا تضيع أمانة أُمي ! . . فجعلت مرة أنظر في البئر، ومرة أنظر اليها فارحمها ، حتى غلبني الشيطان فاخذتها والقيتها في البئر منكوسة ، وهي تنادي في البئر : يا أبت . . قتلتني . . يا ابت قتلتني . . .

فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت .

فبكى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واصحابه ، وقال : لو أُمرت أن اعاقب احداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك »[2] .

اقول : ولما كان الاشمئزاز والكراهية للبنت عند العرب في الجاهلية ، من الاسباب المألوفة لاستقبالها من حين ولادتها ، وتكون لعنة على ذويها على حد زعمهم كانوا كثيراً ما يكرهون المرأة التي تلد البنات وربما أدى ذلك الى هجر زوجها لها وفراقه اياهـا ، وفراره من بيتـه ومن رؤ يتها ورؤ ية المولودة التي ولدتها .

وتشتد الكراهية والبغض للمرأة التي لم ترزق الذكور ، وتكون خصبة في ولادة البنات ، فتهجر المرأة المسكينة وتلقى من الذل والهوان ، والاهمال والحرمان الشيء الكثير . لا لذنب جنته سوى أنها تلد البنات .

---

(١) هكذا وردت في الاصل .
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الدكتور جواد علي ، ج٥ ـ ص ٩٣ .

ومن جملة ما رواه غير واحد من اهل الاخبار : أن امرأة ولدت لرجل بنتاً سمتها الذلفاء، فكانت هذه البنت سبباً في هرب الرجل من البيت فقالت :

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا
يحرد ان لا نلد البنينا   وانما نأخذ ما يعطينا

ويروي بعض اهل الاخبار هذه الرواية بوجه آخر .

ونسبت هذه الرواية مع ابيات من الشعر الى امرأة أبي حمزة الضبي ، الذي هجر زوجته ولجأ الى خيمة جيرانه يبيت فيها فراراً من زوجته التي ولدت له بنتاً فاخذت المرأة المسكينة وقد آلمها هجران زوجها لها وعدم رجوعه الى بيته ، بل بقي في بيت جيرانه امام عينيها ، وهذا انكى لها واشد، فسمعها يوماً تهز سرير ابنتها وتنشد بكل لوعة وحسرة وتأوه الابيات التالية :

ما لابي حمزة لا يأتينا   يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا   تالله ما ذلك في أيدينا
وانما نأخذ ما يعطينا   ونحن كالارض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

قتل الأولاد خشية الاملاق

يـذكر بعض اهـل التاريـخ أن الوأد كـان مستعمـلا في قبـائـل العـرب قاطبة كما اسلفنا .

ولكن بني تميم كـانت اكثر القبـائل التي عـرف فيها الـوأد خوف القهـر عليهم وطمع غير الاكفاء فيهن .

كـذلـك كـانت قبيلة كنـدة ، قيس ، وهـذيـل ، واسـد ، وبكـر بن وائـل ، من القبـائـل التي عـرف فيهـا الـوأد ـ وهم العـرب الـذين تغلبت الاعرابية على حياتهم .

ويروى ان بعض الأعراب في الجـاهلية كـان يقتل ابنتـه مخافـة الاملاق والفاقة ، ويغذو كلبه .

وقـد نهى الله سبحانـه وتعالى عن قتـل الأولاد خشية الامـلاق وخـوف الفقـر والفاقـة بقولـه عـزَّ من قـائـل : ﴿ ولا تقتلوا اولادكم خشيـة امـلاق نحن نرزقهم واياكم إن قتلهم كان خـطئاً كبيراً ﴾[1] .

وقـال تعـالى : ﴿ وكـذلـك زيَّن لكثـير من المشـركـين قتـل اولادهم

---

(١) سورة الاسراء ـ آية ٣١ .

شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم ومايفترون ﴾[1] .

ذكر الطبرسي في تفسيره : (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤ هم) يعني اي مشركي العرب وشركاؤ هم ، وهم الشياطين الذين زينوا لهم قتل البنات ، ووأدهن احياء خيفة العيلة والفقر والعار[2] .

وقال تعالى : **﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾[3] .**

يقول الطبرسي : « ثم جمع سبحانه بين الفريقين الذين قتلوا اولادهم ـ والذين حرموا الحلال . فقال : (قد خسر الذين قتلوا اولادهم) خوفاً من الفقر ، وهرباً من العار ، وهلكت نفوسهم على ذلك باستحقاقهم على ذلك عقاب الابد والخسران »[4] .

وقال تعالى : **﴿ قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾[5] .**

---

(١) سورة الانعام ، آية ، ١٣٧ .
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .
(٣) سورة الانعام ، آية ، ١٤٠ .
(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ، ح ٧ ص ٢١٢ .
(٥) سورة الانعام ، آية ١٥١ .

اقـول : يستفـاد من ظـاهـر الآيـات الكـريمـة المتقـدمــة النهي من البـاري عز وجـل عن جميع انـواع قتل الأولاد ، لا فـرق في ذلك بـين الذكور والاناث .

ونهى الباري سبحانه عن القتل مهما كلف الأمر سـواء كان الـدافع للقتـل هو خـوف السبة والعـار . . او الفقر والامـلاق او غـير ذلـك من الاسباب .

عـلى ان المراد من كلمـة أولادكم (البنـات) لأن المقصـود وأد البنـات وذلك من قوله تعالى : ﴿ **واذا الموؤدة سئلت** ﴾ وهكذا غـير ظاهـر .

وذهب بعض المؤرخـين واهـل التفســيرعـلى أن المــراد من الأولاد في بعض الايــات مثـل قــولـه تعــالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم** ﴾ الــذكــور والاناث .

امـا بخصوص الانـاث فقد تقـدم الكـلام عـلى ـ الـوأد ـ واسبـابـه ، وكيفية تنفيذه .

وامـا بخصوص الـذكور فقـد كان القتـل قبل الاسـلام الدافـع له هـو العامل الديني في الاغلب .

ويتبـين ذلك من قصـة عبد المـطلب جد الـرسول الأعـظم (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) حينـما نـذر ان رزقـه الله عشـرة أولاد ذكـور أن يـذبـح احدهم عند الكعبـة تقربـا للباري عـز وجل كـما اسلفنا وهـذا ما يحـدثنا بـه التاريخ والله العالم .

ذكر بعض من انكر الوأد

روي عن صعصعة بن ناجية المجاشعي جد الفرزدق : أنه لما أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا رسول الله ، اني كنت اعمل عملا في الجاهلية ، أفينفعني ذلك اليوم ؟

قال : وما عملك ؟ . . .

قال : أضللت ناقتين عشراوين ، فركبت جملا ومضيت في بغائهما فرفع لي بيت جريد ، فقصدته فاذا رجل جالس بفنائه ، فسألته عن الناقتين فقال : ما نارهما ؟

قلت : ميسم بني دارم .

قال : هما عندي ، وقد احيا الله تعالى بهما قوماً من اهلك من مضر واذا عجوز قد خرجت من كسر البيت ، فقال لها : ما وضعت ؟ فان كان سقباً[1] شاركنا في اموالنا ، وان كانت حائلاً[2] وأدناها .

فقالت العجوز : وضعت انثى ، فقلت : أتبيعها ؟

قال : وهل تبيع العرب أولادها ؟

قال : ـ قلت : احتكم ، قال : بالناقتين والجمل .

---

(١) معنى قوله فان كان سقباً ـ أي ذكراً .

(٢) وقوله ايضاً ـ وان كانت حائلاً ، أي أنثى .

قلت : لك ذلك ، على ان تبلغني الحمل واياها ففعل .

فآمنت بك يا رسول الله ، وقد صارت لي سنة على أن اشتري كل موؤدة بناقتين عشراوين وجمل ، فعندي الى هذه الغاية ثمانون ومائتا موؤدة قد انقذتها .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبتغ به وجه الله تعالى ، وان تعمل في اسلامك عملا صالحاً تثب عليه ، ففي ذلك يقول الفرزدق مفتخراً .

وجدي الذي منع الوائدين   واحيا الوئيد فلم توأد[1]

« وكان عمرو بن نفيل يحي الموؤدة لأجل الاملاق . يقول للرجل اذا أراد أن يفعل ذلك : لا تفعل ! انا اكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فاذا ترعرعت قال لأبيها : ان شئت دفعتها اليك . . . وان شئت كفيتك مؤونتها »[2] .

---

(١) نهاية الارب في فنون الادب ـ للنويري ـ ج ٣، ص ١٢٦ . وفي رواية اخرى أنه قال :

ومنا اللذي احيا الوليد وغالب   وعمرو ومنا حاجب والاقارع

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الدكتور جواد علي، ج ٥ ص ٩٧ .

نظرة حول وأد البنات

يـروي بعض المؤ رخين ان سنين شديـدة كانت تنـزل بالنـاس تكـون قـاسية عـلى اكثرهم ، ولا سيـما الفقراء ، فيـأكلون (العلهز) وهـو الـوبـر المخلوط بالدم ، وذلك من شدة الحاجة والفقر والجوع .

فهـذا الفقر ، وهـذه الفاقـة ، وذلك الامـلاق ، كل ذلـك حمل بعض العـرب في الجاهليـة على وأد بنـاتهم حـذر الـوقـوع في الغـوايـة وخـوفـاً من السبي والاسترقاق ، فتلحق السبة باهل البنت وعشيرتها وقبيلتها .

وخـلاصة القـول . . مهما كـانت كيفية الـوأد واختلاف اسبـاب هـذه العـادة البشعة القـاسيـة المنكـرة المجـردة من كـل انسـانيـة ، فقـد حـاربهـا الإسـلام اشـد المحـاربـة ، ونـدد بفـاعليهـا وعـاقب عليهـا وجعلهـا من الكبـائر ، حتى محى أثـرها من الـوجود ، واصبحت قصـة الوأد بعـد ظهور الاسـلام . . قصة يـرويها الـرواة وتتناقلهـا الألسن من جملة ما يـروونـه من اخبار الماضين .

وقـد ذكر مؤ رخـو العرب وصف حـال من يئد البنـات وحـال المـرأة في تلك العهود المظلمة ، من الذل والهوان والاضطهاد والحرمان .

ويـرجع سبب قتـل البنت المؤ دة ، أو اضـطهـادهـا الى عجـزهـا عن

العمل والمقاومة ، في حين البنين اقوى من البنات ويتاح لهم ما لا يتاح لهن .

فالولد الذكر في نظر عرب الجاهلية عنصر مهم في الحياة الاقتصادية . والحياة الاجتماعية ، حيث يكون عدة لوالده ، ولأهله ، وعشيرته في الحروب ، ويذود عن الحمى عند الغارات .

ثم ان أسر الولد الذكر في الحرب لا يرونه بنظرهم شائناً ولا سبة يلحق بهم العار مثل اسر البنات .

فالمرأة بالاسر تكون فريسة للآسرين لضعفها وعجزها عن المقاومة .

والمرأة ايضاً بزعمهم ليست قادرة كالرجل على تحصيل المال في اعالة نفسها وغيرها من ذويها .

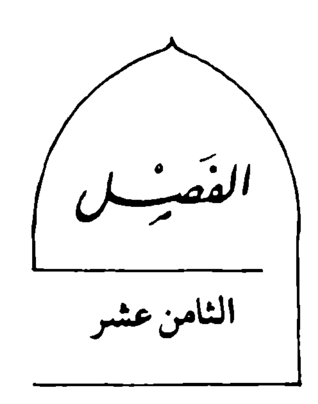
والمرأة أيضاً ليست قادرة على الغزو والذود عن الحمى كما كانوا يتوهمون .

وللاسباب التي ذكرناها كانت البنت هدفاً للوأد ، والذل ، والاحتقار كما قال بعض العرب في وصف هواجسه وتفكيره في حال ابنته من بعده .

وزادني رغبة في العيش معرفتي	ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
اخشى فظاظة عم او جفاء أخ	وكنت ابكي عليها من اذى الكلم
تهوى حياتي واهوى موتها شفقاً	والموت اكرم نزال على الحرم
اذا تذكرت بنتي حين تندبني	فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدم

ووصف ســروره واستقـراره بعــد ان تخلص من ابنتـه ووأدهــا حيث يقول :

فــالآن تـمت فــلا هـم يـؤرقـني بعــد الهـدوء بــلا وجــد ولا حلم


الفصل
الثامن عشر

بعض اوصاف النبي محمد (ص) وشمائله

يحدثنا التاريخ عن الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الرجل العظيم انه كامل في خلقه . . . وخلقه . . . وجميع صفاته .

ليس من عيب يذكر فه او مزية غير مستحسنة ، والأجدر به أن يقال في حقه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

لقد كان الرسول الأعظم ، وسيم الطلعة ، جميل الصورة ، صاحب هيبة وجمال ، لم يكن له (صلى الله عليه وآله وسلم) من نظير بين الناس ، وقد كان مضرب المثل في شمائله وكرم اخلاقه .

اليس هو سيد البشر وخاتم النبيين . ؟ !

وقد جاء في وصف النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وطلعته البهية الشيء الكثير ، بين اسهاب وايجاز ، ولكنه متقارب جداً مع تغيير في بعض الألفاظ . وهي غرف من بحر وكلها مروية عن الصحابة الاجلاء .

ولكننا الآن نكتفي ببعض ما جاء في وصف الرسول ا(صلى الله عليه وآله وسلم) .

« عن انس بن مالك ، قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ابيض ، مشرباً حمرة ، ضخم الرأس ، ازج الحاجبين[1] ، عظيم العينين ، أدعج[2] ، اهدب[3] ، شثن الكفين[4] والقدمين .

اذا مشى تكفأ كأنما ينحط من صبب ، ويمشي في صعد ، كأنما يتقلع من صخر . اذا التفت التفت جميعاً .

ليس بالجعد القطط[5] ، ولا الصبط[6] . ذا وفرة الى شحمة أذنيه . ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتطامن عرفه اطيب من المسك الأذفر .

لم تلد النساء قبله ولا بعده مثله . بين كتفيه خاتم النبوة كبيضة الحمامة .

لا يضحك إلا تبسماً . في عنفقته شعرات بيض لا تكاد تبين .

وقال أنس بن مالك : لم يبلغ الشيب الذي كان برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عشرين شعرة .

وقيل له : يا رسول الله ، عجل عليك الشيب ؟! .

---

(١) الزجج في الحاجبين : دقتهما في طول .
(٢) ادعج : اسود العين واسعها .
(٣) اهدب : كثير اشعار العينين .
(٤) الشثن : الغليظ .
(٥) الجعد : القصير وكذلك القطط .
(٦) السبط : (بالفتح ككتف) نقيض الجعد .

قال : شيبتني هود واخواتها »[1] .

وجاء في بحار الأنوار : « عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال : قال الحسن بن علي بن ابي طالب (عليه السلام) . سألت خالي هند بن ابي هالة [2] عن حلية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان وصافاً للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال :

كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخماً مضخماً ، يتلألؤ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، اطول من المربوع ، واقصر من المشذَّب[3] ، عظيم الهامة[4] ، رجل الشعر ، إن انفرقت عقيقته[5] فرق ، والا فلا يجاوز شعره شحمة اذنيه ، اذا هو وفرة ، ازهر اللون واسع الجبين ، أزج الحواجب[6] ، سوابغ في غير قرن بينهما[7] ، له عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين[8] له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله

---

(١) العقد الفريد : لابن عبد ربه الاندلسي ، ج ٤ ، ص ٢٥٠ .

(٢) هو هند بن ابي هالة التميمي ، ربيب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) امه خديجة ام المؤمنين (رضي الله عنها) . شهد بدراً ، وقيل : بل شهد احداً ، وكان وصافاً لحلية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وشمائله . . واوصافه .

(٣) المشذب عند العرب : الطويل الذي ليس بكثير اللحم .

(٤) الهامة : الرأس .

(٥) في بعض المصادر : عقيصته .

(٦) أزج الحواجب : معناه ان الحاجبين بينهما انكشاف وابيضاض .

(٧) في غير قرن بينهما : معناه ان الحاجبين بينهما انكشاف وابيضاض .

(٨) اقنى العرنين : القنا أن يكون في عظم الانف احدداب في وسطه والعرنين الانف .

أشم[١] ؛ كث اللحيـة ، سهل الخـدين ، ضليـع الفم[٢] أشنب مفلج الأسنـان[٣] ، دقيق المسربـة كأن عنقـه جيـد دميـة [٤] في صفـاء الفضـة ، معتـدل الخلق ، بادنـاً ، متماسكـاً ، سواء البـطن والصدر ، بعيـد ما بـين المنكبـين ، ضخم الكراديس ، أنـور المتجرد [٥] ، مـوصول مـا بـين اللبـة والسرة ، بشعر يجري كالخط ، عـاري الثديـين والبطن مما سوى ذلـك ، اشعـر الذراعـين والمنكبين ، واعـالي الصـدر ، طـويـل الـزنـدين ، رحب الـراحـة ، شثن الكفـين والقـدمـين [٦] ، سـائـل الاطـراف ، سبط القصب [٧] ، خمصان الاخمصين[٨] مسيح القدمين[٩] ، ينبو عنهما الماء .

---

(١) أشم : الشمم : ارتفـاع قصبـة الانف ، واستـواء اعـلاه واشـراف الأرنبـة قليـلا والعرانين الأنوف وهو كناية عن الرفعة ،والعلو، وشرف الانفس .

(٢) قوله ضليع الفم معناه كبير الفم ، ولم تزل العرب تمدح بكبر الفم .

(٣) الاشنب : من صفة الفم ، قالوا : انه الذي لريقه عذوبة وبرد .

(٤) المسربة : الشعر المستدق ـ الممتد من اللبة الى السـرة ـ والدميـة : الصورة المزينة فيها حمرة .

(٥) أنور المتجرد : معناه نير الجسد الذي تجرد من الثياب .

(٦) شثن الكفين ؛ أي خشن الكفين ، والعرب تمدح الرجال بخشونة الكف .

(٧) سبط القصب : العظام الجوف غير متعقدة .

(٨) خمصـان الاخمصـين : معنـاه أن اخمص رجـله شـديـد الارتفـاع مـن الأرض والاخمص : ما يرتفع عن الأرض من وسط باطن الرجل واسفلها .

(٩) مسيح القدمين : معناه ليس بكثير اللحم فيهما وعلى ظاهرهما .

اذا زال زال قلعاً يخطو تكفؤاً[1] ويمشي هوناً ذريع المشية[2] ، اذا مشى كأنما ينحط في صبب[3] ، واذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره الى الأرض اطول من نظره الى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يبدر من لقيه بالسلام »[4] .

(١) زال قلعاً : معناه متثبتاً . ويخطو تكفؤاً معناه خطاه كأنه يتكسر فيها أو يتبختر لقلة الاستعجال معها ، ولا تبختر فيها ولا خيلاء .
(٢) يمشي هونا : معناه : السكينة والوقار. ذريع المشية أي واسع المشية من غير أن يظهر فيه استعجال .
(٣) كأنما ينحط في صبب : الصبب : الانحدار .
(٤) بحار الانوار: للمجلسي ، ج ١٦ ، ص ١٤٩ .

بعض ما جاء في هدم الكعبة وبنائها

الكعبة المعظمة هي بيت الله الحرام ، والمكان المكرم من لدن آدم ابي البشر ـ ومن اقدم العصور لقوله تعالى :

﴿ ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ـ فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[1] .

الكعبة المعظمة الشريفة يؤمها الناس للتبرك والتضرع والدعاء والتوسل بالباري تعالى بان يغفر لهم الخطايا والذنوب وليشهدوا منافع لهم كما في قوله تعالى مخاطباً نبي الله ابراهيم (عليه السلام) : **﴿ واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير ـ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾**[2] .

والكعبة المقدسة هي اشرف بقعة في الأرض ، وهي البيت العتيق ، وكان الناس عامة والعرب خاصة يعظمونها لما لها من هالة

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) سورة الحج ، آية ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

قـدسيـة ، وعـظمـة روحيـة في نفـوسهـم ، فـلا يجـرؤ ون عـلى اي تغيـير أو تبديل في بنائها رهبة ، وهيبة ، واجلالا .

لكن يقول المؤ رخون واصحـاب السير أنـه لما أصـاب الكعبة المقـدسة الحـريق وذلك بسبب امـرأة أحرقت بخـوراً فـاصـاب النـار استـار الكعبـة فاحترقت وتداعى بناؤ ها .

وقيـل تصدع بنـاء الكعبة المقـدسة بسبب آخـر وهـو أن سيـلا مـلأ مـا بين الجبلين ودخل الكعبة حتى تصدعت .

عند ذلك عقدت العزم قريش على هدم الكعبة واعادة بنائها .

وقـام رجـال قـريش بـالعمـل وهم متحـدون يـدا واحـدة في اعـادة البنـاء . وساهم رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) في هـذا العمـل الشريف وقام بجهد وافر في اعانتهم .

وتنـادى اشـراف قـريش (كـابي طـالب) وغيـره : ان لا يـوضـع في بنـائها أي مـال مشبوه أو حـرام أو مـال ربـا او غـير ذلـك مما ينـافي قـدسيـة الكعبة المعظمة .

وحينما شارف البنـاء على التمـام وقد سهـل الله سبحانـه أمـامهم كـل امـر عسير ، وسـاق اليهم سفينة كـانت في عرض البحـر قد غـرقت اخـذوا أخشابها واستعانوا به على اتمـام البناء كـما سنذكـر ذلك في مـوضع لاحق ان شـاء الله . اختلفـوا فيـما بينهم عـلى وضـع الـركن (الحجـر الاسـود) ومن الذي يضعه فيكون له الشرف العظيم .

وكـادت ان تكون فتنـة عظيمـة يهرق بسببهـا الكثير من الـدمـاء لكن

اخيـراً اتفقوا جميعـاً على مـا يروي اهـل التاريـخ وهو ان يحكمـوا أول قـادم يقدم عليهم .

فكان أول قادم هو الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلـم) .

وهنـا تتجلى روعـة التفكير عنـد الرسـول الأعظم وسيـاستـه الحكيمـة فهـو الخبير بـاحوال قـريش وعاداتهـا وتقاليـدها واختـلاف آرائهـا وميـولهـا وتنافسها على الرئاسة وحب الذات .

لـذلك نـراه (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) قـد جـاء بثـوب ـ أو رداء ـ فبسطه ووضع الحجـر فيه ثم قـال لرؤ سـاء القبائـل ليأخـذ كل رجـل منكم بـطرف منه وارفعـوه جميعا فـرفعوه حتى اذا قـارب موضعـه من البنـاء اخـذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه .

وفي ذلك قال ابو طالب :

إن لـنـا أولـه وآخـره في الحكم والعـدل الـذي لا ننكـره
وقـد جهـدنـا جهـده لنعـمـره وقـد عـمـرنـا خيـره واكـثـره
فان يكن حقا ففينا أوفره

ذكـر ابن هشام في سيـرته في حـديث بنيـان الكعبـة وحكم رسـول الله (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) بين قـريش في وضع الحجـر بقـولـه : « قـال ابن اسحـاق : فلما بلغ رسـول الله (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) خمسـاً وثـلاثين سنـة ، اجتمعت قريش لبنيـان الكعبة[1] وكـانـوا يهمـون بـذلـك

---

(١) يروي اهل التاريخ ان الكعبة المقدسة بنيت عدة مـرات : الاولى حين بنـاها شيت بن آدم (عليـه السـلام). والثـانية حـين بنـاهـا ابـراهيم الخليـل (عليـه السـلام). =

ليسقفوها ويهابون هدمها . وانما كانت رضما[1] فوق القامة ، فارادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفراً سرقوا كنزاً للكعبة ، وانما كان يكون في بئر في جوف الكعبة ، وكان الذي وجد عنده الكنز دويكاً ، مولى لبني مليح بن عمرو ، من خزاعة .

قال ابن هشام : فقطعت قريش يده ، وتزعم قريش ان الذين سرقوه وضعوه عند دويك .

وكان البحر قد رمى بسفينة الى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فاخذوا خشبها فاعدوه لتسقيفها[2]

وكان بمكة رجل قبطي نجار ، فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها .

وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم ، فتتشرق[3] على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون . وذلك أنه

= والثالثة حين بنتها قريش، وكان ذلك قبل الاسلام بخمس سنين . والرابعة حين احترقت في عهد ابن الزبير. . . وهكذا .

(١) رضما : الرضم : ان تنضد الحجارة بعضا على بعض من غير ملاط .

(٢) يقول صاحب البداية والنهاية (ابن كثير) قال الأموي : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم تحمل آلات البناء من الرخام والخشب والحديد سرحها قيصر مع باقوم الرومي الى الكنيسة التي احرقها الفرس للحبشة . فلما بلغت مرساها من جدة بعث الله عليها ريحاً فحطمتها .

(٣) تتشرق: تبرز للشمس . ويقال : تشرقت اذا قعدت للشمس لا يحجبك عنها شيء.

كان لا يدنو منها أحد الا احزألت وكشت[1] وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها .

فبينا هي ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة ، كما كانت تصنع ، بعث الله اليها طائراً فاختطفها فذهب بها . فقالت قريش : انا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية » .

---

(١) احزألت : رفعت رأسها . وكشت : أي صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض .

ذكر بعض ما حدث عند بناء قريش للكعبة

قال ابن هشام : « فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها ، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ـ فتناول من الكعبة حجراً ، فوثب من يده ، حتى رجع الى موضعه ، فقال :

(يا معشر قريش ، لا تدخلوا في بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغيٍّ ـ ولا بيع رباً ـ ولا مظلمة احد من الناس)[1] .

قال ابن اسحاق : وابو وهب خال ابي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وكان شريفاً ، وله يقول شاعر من العرب :

ولو بابي وهب انخت مطيتي — غدت من نداه رحلها غير خائب
بأبيض من فرعي لؤي بن غالب — اذا حصلت أنسابها في الذوائب[2]
أبي لأخذ الضيم يرتاح للندى — توسط جداه فروع الأطايب

---

(١) وفي رواية أنه قال : لا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً اصبتموه غصباً. ولا قطعتم فيه رحماً ـ ولا أنهكتم فيه ذمة احد بينكم وبين احد من الناس . . الى آخره .

(٢) الذوائب : الأعالي ، واراد بها الشاعر الانساب الكريمة .

عظيم رماد القدر يملأ جفانه من الخبز يعلوهن مثل السبائب[1]

ويذكر اليعقوبي في تاريخه : عن أهل مكة لما أرادوا هدم الكعبة واعادة بنائها فيقول : « وحفروا حتى انتهوا الى قواعد ابراهيم ، فقلعوا منها حجراً فوثب الحجر ورجع مكانه ، فامسكوا .

ويقال : أن الذي بدر الحجر من يده أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .

وخرج عليهم ثعبان فحال بينهم وبين البناء . فاجتمعوا فقال : ماذا ترون ؟! . .

فقال ابو طالب : ان هذا لا يصلح ان ينفق فيه الا من طيب المكاسب . فلا تدخلوا فيه ما لا من ظلم ولا عدوان . . . فاحضروا ما لم يشكوا فيه من طيب اموالهم . ورفعوا أيديهم الى السماء . . .

فجاء طائر فاختطف الثعبان حتى ذهب . فوضعوا إزرهم يعملون عراة الا رسول الله فانه أبى أن ينزع ثوبه ، فسمع صائحاً يصيح . . . لا تنزع ثوبك . . . »[2] .

جاء في تفسير ابن كثير عن ابن اسحاق قوله : « حدثني بعض من يروي الحديث (حديث بناء الكعبة) عندما انتهى الهدم الى الاساس ـ اساس ابراهيم (عليه السلام) أفضوا الى حجارة خضر كالاسنة آخذ

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، (والمراد من السبائب في قول الشاعر : السبائب هي ثياب رقاق بيض ـ فشبه الشحم الذي يعلوا الجفان بها .).

(٢) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ١٥ .

بعضهـا بعضاً . ويـروي بان رجـلا من قريش ممن كـان يهدمهـا (الكعبة) ادخـل عتلة بـين حجـرين منهـا ، ليقلع بهـا أيضـاً احـدهمـا ، فلما تحـرك الحجر انتفضت مكة باسرها . فانتهوا عن ذلك الأساس [1] .

جـاء في البدايـة والنهايـة عن عبد الله بن عبـاس : « ان أوليـة قـريش كانوا يحدثون ان رجالا من قريش لمـا اجتمعوا لينـزعوا الحجـارة الى تأسيس ابـراهيم واسمـاعيـل (عليـه السـلام) عمـد رجـل منهم الى حجـر من الاسـاس الأول فـرفعـه وهـو لا يـدري انـه من الأسـاس الأول ، فـابصـر القـوم برقـة تحت الحجر كـادت تلتمع بصـر الرجـل ، ونزا الحجـر من يـده فـوقع في مـوضعه وفـزع الـرجـل والبنـاة فلما سـتر الحجـر عنهم مـا تحتـه ، عادوا الى بنيانهم وقالوا : لا تحركوا هذا الحجر ولا شيئاً بحذائه [2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(٢) البداية والنهاية ، لابن كثير، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

اختلاف قريش فيمن يضع الركن وقبولهم بتحكيم محمد (ص)

يحدثنا التاريخ أنه بعدما انتهت قريش من هدم الكعبة المقدسة وشرعت في بنائها اختلفت فيما بينها من يضع الركن (الحجر الأسود) . وكادت تكون فتنة تؤدي الى حرب شعواء .

واختصمت القبائل ، كل قبيلة تريد أن يكون لها شرف وضع الحجر في موضعه دون الاخرى وهكذا كما أسلفنا .

ثم ان سادات قريش اجتمعوا في المسجد وتحاوروا وتناصفوا وقالوا : نرضى بتحكيم أول داخل من باب المسجد ، وذلك حسما للنزاع . فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اول داخل فلما رأوه مقبلاً قالوا جميعاً : هذا محمد (الامين) قد رضينا به حكماً .

يقول ابن كثير في تفسيره : « قال ابن اسحاق : ثم ان القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها (اي الكعبة) كل قبيلة تجمع على حدة .

ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ، يعني الحجر الأسود . فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الاخرى حتى تحاوروا ، وتحالفوا ، وأعدوا للقتال .

فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً . ثم تعاقدوا هم وبنو

عـدي بن كعب بن لؤي على المـوت ، وادخلوا أيديهم في ذلـك الدم في تلك الجفنة فسموا « لعقة الدم » .

فمكثت قريش على ذلك اربع ليال أو خمساً . . . .

ثم انهم اجتمعـوا في المسجـد ، فتشـاوروا ، وتنـاصفـوا فـزعم بعض اهـل الروايـة ان أبا اميـة بن المغيرة بن عبـد الله بن عمرو بن مخـزوم وكان عـامئـذ أمن قـريش كلهم[1] قـال : يـا معشـر قـريش اجعلوا بينكم فيـما تختلفـون فيـه أول من يـدخـل من بـاب هـذا المسجـد يقضي بينكم فيـه ، ففعلوا .

فكـان أول داخـل رسـول الله (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين . . . رضينا . . . هذا محمد .

فلما انتهى اليهم واخبـروه الخبـر قـال (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) هلم إليَّ ثـوبا . فـأتي به . فـاخذ الـركن يعني الحجر الأسـود فـوضعـه فيه بيـده ثم قال : لتـأخذ كـل قبيلة بنـاحيـة من الثـوب ، ثم ارفعـوه جميعـاً . ففعلوا ـ حتى اذا بلغـوا به مـوضعه وضعـه هـو بيـده (صـلى الله عليـه وآلـه وسلـم) ثم بنى عليه كما أسلفنا .

وكـانت قريش تسمي رسـول الله (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) قبـل ان ينـزل عليه الـوحي (الامين) . فلما فـرغوا من البنيـان وبنوهـا عـلى مـا ارادوا : قـال الزبـير بن عبد المطلب فيما كـان من امر الحيـة (التي كانت في بئر الكعبة) التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها :

---

(١) هكذا ورد في الأصل .

عجبت لما تصوبت العقاب	الى الثعبان وهي لها اضطراب
وقد كانت يكون لها كشيش	واحياناً يكون لها وثاب[1]
اذا قمنا الى التأسيس شدت	تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما ان خشينا الرجز جاءت[2]	عقاب تتلئب[3] لها انصباب
فضمتها اليها ثم خلت	لنا البنيان ليس له حجاب
فقمنا حاشدين الى بناء	لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه	وليس على مساوينا ثياب[4]
أعزَّ به المليك بني لؤي	فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي	ومرة قد تقدمها كلاب
فبوّأنا المليك بذاك عزاً[5]	وعند الله يلتمس الثواب[6]

نعود فنقول أن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بحكمته ودرايته وحسن تصرفه قد أنقذ قريشاً مما كان يتهددها من الحرب والدمار .

(١) الوثاب ، أي الوثوب .

(٢) الرجز : العذاب . وفي رواية : الزجر وهو المنع .

(٣) تتلئب : تتابع في انفضاضها .

(٤) أجمع المؤرخون واصحاب السير: أن قريشاً عندما كانت تبني الكعبة كانوا جميعاً ينقلون الحجارة عراة ، ويرون ذلك ديناً واجبا ، وأنه من باب التشمير والجد في الطاعة ، وتقول الروايات أن رجال قريش عند بناء الكعبة كانوا قد وضعوا أزرهم .

لكن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يضع ازاره حين البناء بل كان يعمل معهم وينقل الحجارة وقد شد ازاره على وسطه لان مكارم اخلاقه (صلى الله عليه وآله) لا تسمح له بكشف عورته .

(٥) فبوأنا : أي احلنا ـ وأوطننا .

(٦) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، ج ١ ، ص ١٨١ .

ويحدثنا التاريخ أن محافل مكة ، وأندية قريش ما زالت تردد قول الشاعر القرشي (هبيرة بن ابي وهب المخزومي) وهو إبن خال عبد الله بن عبد المطلب ـ والد الرسول .

قال هبيرة :

تشاجرت الاحياء في فصل خطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، فالبغض بعد مودة	واوقدنا رأ بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جدَّ جده	ولم يبق فينا غير سل المهند
رضينا وقلنا : العدل أول طالع	يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد	فقلنا : رضينا بالأمين محمد

ذكر بعض ما جاء في تجديد قريش بناء الكعبة

لا يخفى على كل متتبع أو قاريء للتاريخ والسير ما جاء في قصة تجديد بناء الكعبة المقدسة وما دار حولها من احداث .

هذا الحدث العظيم الذي ساهم فيه الرسول العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) مساهمة كبيرة .

لقد ساهم (صلى الله عليه وآله وسلم) قولا . . وفعلاً . . وادارة .

لقد اتفق الرواة على التجديد لبناء الكعبة لكن هناك بعض الاختلاف في السبب الذي حمل قريشاً على الهدم والتجديد .

فمنهم من قال : كان السبب في تجديد بناء الكعبة حينما تصدعت بسبب سيل ملأ ما بين الجبلين فدخل الماء الى داخلها وكان بناؤ ها رضما لا يمنع الماء فتصدعت .

ومنهم من قال أنها احترقت بسبب امرأة كانت تحرق بخوراً داخل الكعبة فسرت النار الى استار الكعبة فتصدعت . . وهكذا كما اسلفنا .

وقد اختلفت الأراء حول بناء الكعبة المقدسة (بيت الله الحرام) .

جاء في البداية والنهاية عن خالد بن عرعرة : قال : « سأل رجل

علياً (عليه السلام) عن قوله تعالى : ﴿ **ان اول بيت وضع للناس ببكة مباركاً وهدى للعالمين** ﴾ أهو أول بيت بني في الأرض . ؟ .

قـال : لا . . . ولكن أول بيت وضـع فـيه البـركـة للنـاس ، والهدى ، ومقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمناً .

وان شئت نبأتك كيف بناؤه . . . ان الله تعالى أوحى الى ابـراهيم أن إبن لي بيتاً في الأرض ، فضاق به ذرعاً ، فـارسل إليه السكينة ، وهي ريح خجوج[1] لها رأس ، فاتبع احدهما صاحبه ، حتى انتهت ، ثم تطوقت في موضع البيت تطوق الحية ، فبنى ابراهيم حتى بلغ مكان الحجر ، قال لابنه : ابغني حجراً . . .

فالتمس حجراً حتى اتاه به ، فوجد الحجر الأسود قد ركب . فقال لأبيه : من اين لك هذا . . . ؟!

قال : جاء به من لا يتكل على بنائك ، جاء به جبريل من السماء فأتمه . . .

قال : فمر عليه الدهر ، فانهدم ، فبنته العمالقة .

ثم انهدم ، فبنته جرهم . . .

ثم انهدم ، فبنته قريش ، ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يومئذٍ رجل شاب .

فلما أرادوا ان يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه فقالوا : نحكم

---

(١) الخجوج من الرياح : الشديدة المرور ، أو الملتوية في هبوبها .

بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة . فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أول من خرج عليهم ، فقضى بينهم أن يجعلوه في مرط[1] ثم ترفعه جميع القبائل كلهم[2] .

وعن خالد بن عرعرة أيضاً عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) . قال : لما انهدم البيت بعد جرهم بنته قريش ، فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا من يضعه . فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب .

فدخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من باب بني شيبة ، فامر بثوب فوضع الحجر في وسطه ، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب فرفعوه ، واخذه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فوضعه »[3] .

وعن ابي ذر (رضي الله عنه) قال : قلت يارسول الله ـ أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » .

قلت : ثم أي . . . ؟ قال : « المسجد الاقصى » .

قلت : كم بينها ؟ . . .

قال : اربعون سنة[4] .

---

(١) المرط جمع مروط : كل ثوب غير مخيط ، كساء من صوف ونحوه يؤتزر به .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير، ج ٢ ، ص ١٩٩ .
(٣) البداية والنهاية ، لابن كثير، ج ٢ ص ٣٠٠ .
(٤) البداية والنهاية ، لابن كثير، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

انتهى الجزء الأول بعون الله ويليه الجزء الثاني .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع ـــــــــــــــــــــــــــــــــ الصفحة

الموضوع ——— الصفحة

الموضوع ——————— الصفحة

الموضوع ــ الصفحة

الموضوع ——— الصفحة